

المجلد
٣

إِثْرَاءُ
المَشْرُوعِ الحَضَارِيِّ



مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ هُوَذَا

وَأَسْبَابُ زَوَالِ حَضَارَةِ قَوْمِ عَادَ

تَأَلِيفُ

د. عَلِيِّ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ الصَّلَاحِيِّ

الْأَمِينُ الْعَامُ لِلاتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تَقْدِيمُ

أ.د. عَلِيِّ مُحْيِي الدِّينِ الْقُرَّةِ دَاغِي

رَئِيسُ الْإِتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ



رقم الإصدار	315
الترقيم الدولي للسلسلة	(Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد	(3.c) 978-625-5637-73-4
اسم الموسوعة	موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب	نبي الله هود عليه السلام وأسباب زوال حضارة قوم عاد
اسم المؤلف	د. علي محمّد محمّد الصّلابي
المدير العام للدار	رجب صونگول
الاخراج الفني	AsaletAjans
الطبعة	الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ
دار النشر	İmak Ofset Basım Yay. A.Ş. Sertifika No: 71320 Akçaburgaz Mah. 137. Sk. No: 12 Esenyurt/İSTANBUL
	دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
	Asalet Eğitim Danışmanlık Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret Sertifika No: 40687 Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd. Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE Tel: +90 212 511 85 47 www.asaletyayinlari.com.tr asalet@asaletyayinlari.com.tr



كما أن إصداراتنا متاحة على منصتي



Google Play
Books

Copyright © 2026

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ هَوْرٍ

وَأَسْبَابُ زَوَالِ حَضَارَةِ قَوْمِ عَادَ

تَأَلَّفَ

د. عَلِي مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ الصَّلَابِي

الْأَمِينُ الْعَامُّ لِلاتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تَقْدِيمُ

أ. د. فَضْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُرَاد

أ. د. عَبْدُ السَّلَامِ مُقْبِلُ الْمَجِيدِي

أ. د. عَلِي مُحْيِي الدِّينِ الْقَرَّة دَاغِي

رَئِيسُ الْإِتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تقديم



بقلم

أ.د. علي محيي الدين القره داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

إن القرآن الكريم عندما يذكر قصة، ويولي لها عنايته، ويكررها بصور مختلفة في سور متعددة، يفهم من ذلك بوضوح أهمية تلك القصة، ودلالاتها وفوائدها، من حيث العظة والاعتبار لأمة الإسلام، ومن حيث تنوع الحكم والمقاصد التي تستنبط منها، فقد توصلنا إلي يقين بأنه لا توجد قصة في القرآن الكريم إلا وهي تعالج مشكلة، بل مشكلات تتكرر في عصر الرسالة وما بعدها فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إن قصة عاد: قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ هي قصة الطغيان بسبب القوة والحضارة المادية التي وصلت إليها عاد، حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وكذلك فهي قصة الانبهار الذي وصل إلى مرحلة الاستكبار، وهي أيضا قصة البطر والترف التي ألهمتهم عن المقابر واليوم الآخر، حتى قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتَأْتَرَفُنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٣] وَلَٰكِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِتَّكُمُ إِذَا خَلْتُمُوهُنَّ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

ومن الثابت أنه - منذ عصر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة - أن أهل الترف والبطر والأهواء، وأصحاب الشهوات والمستكبرين، والمفسدين في الأرض إذا لم يتوبوا، ولم يُحصنوا بالإيمان بالله وباليوم الآخر فإنهم سيظلون أشد أعداء الدعوة الحقّة إلى الله تعالى، فيغتروا بما لديهم، ويصدون عن سبيل الله بكل قوتهم، ويبدلون كل جهودهم، ليجعلوا الطريق معوجًا، وهذا مشاهد اليوم أماننا في معظم العالم.

وكذلك لا يقيمون العدل، ولا يعرفون الرحمة والإحسان، بل كما قال الله تعالى في حق عاد: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وهذا ما نراه اليوم في غزة العزة، حيث قتلوا عشرات الآلاف من النساء والأطفال والشيخوخ، ودمروا كل شيء.

بل يستكبرون في الأرض، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

فقد وصفهم الله تعالى بالطغيان والفساد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ⑤ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿ [الفجر: ١١، ١٢].

صورة من قوة عاد تشبه ما عليه الحضارة المادية اليوم.

وقد تحقق لقوم عاد كل عناصر القوة العمرانية، حيث قال تعالى في وصفهم: ﴿اتَّبَنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، والقوة الصناعية: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، والقوة العسكرية الضاربة الباطشة: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

فهذه المواصفات متحققة اليوم بصورة أعظم مع التقنيات العلمية المتطورة في الحضارة المادية الغربية، بل يقول أهلها: "من أشد منا قوة"، وطمغوا فعلاً في البلاد طغياناً مبيئاً، فأكثرُوا فيها الفساد فاحتلوا معظم البلاد الإسلامية، والعالم الثالث، وأذلّوا شعوبها، بل جعلوا بعضهم عبيداً إلى أمريكا وغيرها، لاستغلالهم في المصانع والمزارع، ولم يكتفوا بذلك، بل دخلوا في صراعات فيما بينهم، فحدثت حربان عالميتان خلال النصف الأول من القرن العشرين أكلتا الأخضر واليابس، ونتج منهما قتل عشرات الملايين، وتدمير معظم أوروبا، فانتبه رؤساءهم الغالبون في الحرب العالمية الثانية، فاتفقوا على إنشاء الأمم المتحدة، ووضعت لها مجموعة من القوانين؛ لتحقيق الحفاظ على الأمن والسلام الدوليين، ولكنهم لم يستطيعوا التخلي عن التباهي بالقوة، والعنصرية والميكافيلية، فبنوا نظام الأمم المتحدة على أساس الحق المطلق للقوى المنتصرة فأعطوا حق النقض (الفيتو) للدول الخمس الكبرى.

ووضعوا لأنفسهم أيضاً مبادئ الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، والنساء والأطفال وكانوا يتباهون بها، ولكن شاء الله تعالى أن يختبرهم بمأساة غزة، فحينئذ سقطت كل هذه القوانين والمبادئ الإنسانية والأخلاقية لدى الدول الغربية الكبرى، وبخاصة أمريكا.

وحسب سنن الله تعالى التي ذكرها لعاد قوم هود فإن مصير هذه الحضارة المادية الطاغية الظالمة إلى الزوال عن قريب فقال تعالى لتأكيد هذه السنة القاضية ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۖ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصِرٌ ۝﴾ [الفجر: ١١-١٤].

﴿الإيمان لا يتعارض مع القوة، بل هو قوة إلى القوة﴾

ومن أعظم ما ذكره القرآن الكريم مبدأ أعظم، وسنة قاضية من سنن الله تعالى، وهي: أن الإيمان بالله تعالى والالتزام بأوامره ونواهيه لا يتعارض مع القوة الشاملة، ولا يمنعه من المؤمنين، بل إن الله تعالى أمر بها، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأكثر من ذلك فإن الإيمان الحقيقي في ذاته هو قوة عظمى تسرى في الروح فتتقوى الروح المعنوية، وتجعل صاحبها لا يهزم مهما كانت القوة المقابلة، وكذلك تسرى في البدن، حيث هو دافع لمزيد من تحصيل القوة المتنوعة، وأن الشرط الوحيد للإيمان هو أن تكون القوة في ظلال التوحيد والأخلاق، وأن تستعمل في الخير، لا في الشر، حيث قال تعالى على لسان هود: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، حيث تدل هذه الآية على أن الإيمان والاستغفار والتوبة إلى الله تعالى سترتب عليها أن يبارك في أهلها بالبركات في السماء، وبزيادة القوة الإيمانية والمعنوية إلى القوة المادية، وتجعل أهلها جامعين بين حسني الدنيا والآخرة، وهذا هو فقه الميزان الإسلامي.

وقد بين المؤلف الكريم، والمفسر والمؤرخ القدير فضيلة الشيخ الدكتور علي الصلابي في كتابه هذا عن سيدنا هود عليه السلام وقومه: مجموعة كبيرة من الفوائد والسنن والحكم والعبر نكاد نشاهدها كل يوم في عصرنا الحاضر، وكذلك ذكر أسباب هلاكهم، وعوامل إفنائهم بعذاب أليم، فبلغت عشرين سبباً وعاملاً.

وقد بذل جهوداً طيبة مباركة في سبيل إخراج الكتاب بصورة تحقق أهدافه، وغاياته من التأليف حيث وفقه الله تعالى في استحضار مجموعه من النتائج العلمية النافعة، وهي أن مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية يعتمد على تحليل عميق للقصص القرآني، وفهم دقيق لكيفية ازدهار الإنسان، حيث إن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الموثوق به في عرض هذه القصص، وكيفية بناء الحضارات القديمة، وأن الأنبياء والمرسلين هم الذين رسموا فقه الحضارة الربانية لمسيرة البشرية على مر تاريخها الطويل، وأن الحضارة الدينية تقوم على كفتي الميزان من التدين والعمران، حيث إن التوحيد والتعبد الخالص لله تعالى والقيم الأخلاقية تشكل الكفة الأولى للحضارة العادلة النافعة، في حين أن العمران بكل ما تعنيه هذه الكلمة من العلم والقوة والابتكارات يشكل الكفة الثانية المكمل لها، ويدخل في هذه الكفة العمرانية الجمال الشامل للظاهر والباطن وسمو الروح، وسمو النفس، والإحسان.

وبذلك تبعد الحضارة في نظر القرآن عن الطغيان والترف والاستكبار والظلم والعدوان، يل يسودها الإخاء، والمحبة، والتعاطف، والتراحم، والتعاون، والتكافل، والتكامل، ونحو ذلك من القيم الإسلامية، والإنسانية الراقية العظيمة.

فالكتاب بفضل الله تعالى كتاب نافع، بمباحثه الرائعة، مفيد بتحليلاته الجيدة، ثري بموضوعاته المختلفة، وثرى بمسائله المتنوعة، بالإضافة إلى أن الكتاب كُتب بأسلوب سلس جميل، وبلغه مفهومة واضحة، فجزى الله مؤلفه خيراً وكتب كل ذلك في ميزان حسناته، وجعله خالصاً لوجهه الكريم، ونفع به الإسلام والمسلمين، آمين يا رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

كتبه الفقير إلى ربه

أ.د علي محيي الدين القره داغي

الدوحة، ٠٥ ربيع الأول ١٤٤٦هـ

الموافق: ٠٧-٠٩-٢٠٢٤م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هود عليه السلام ومفردات الإنقاذ الرسالي والحضاري



أ.د. فضل بن عبد الله مراد

لقد اختار الله سبحانه وتعالى لحضارة قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ موقعاً استراتيجياً عالمياً أثر على الحضارات وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية على مر التاريخ.

إنها اليمن والأحقاف بالتحديد كموقع مركزي لهذه الحضارة الباسقة في التاريخ، كأول حضارة إنسانية بهذا المستوى الذي وصفه القرآن أنه لا مثل لها ولا نظير على المستوى العالمي.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦-٨].

لقد امتدت لتشمل حضرموت وكامل الجنات والأنهار والمروج التي تسمى اليوم الربع الخالي.

ولقد غشاها ما غشى من سنة التبديل والتغيير الربانية التي أراد الله أن نستوعبها في قصص القرآن.

لقد أكدت الاكتشافات العلمية والدراسات الحديثة أن صحراء الجزيرة كانت مروجاً وأنهاراً كما أخبرنا بذلك الرسول الكريم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةٍ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مَرْجًا وَأَنْهَارًا»^(١).

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب التَّزْيِينِ فِي الصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ لَا يُوجَدَ مَنْ يَقْبَلُهَا، رقم ١٦٨١.

لقد صوّرت الأقمار الصناعية اليوم هذه المعجزة النبوية وهي تتطابق مع ما ذكر القرآن من الأبهة والترف والعلو لحضارة قوم نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لقد قرأت كتاب هود عليه السلام لصديقي العلامة مؤرخ الحضارة الإنسانية وفيلسوف التاريخ الإسلامي الدكتور علي الصلابي.
نعم.

لقد قرأته لأغادره حاملاً معارف من الفقه التاريخي والاستنتاجات الكبيرة التي لا بد من إبرازها.

لماذا موسوعة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام؟
دعوني أقول قبلاً.

لقد تكلمتُ مرات عن شغفي بالتاريخ وقصة الحضارة قرأت كثيراً جداً في التاريخ والفقه التاريخي أو ما يسمى فلسفة التاريخ سواء في المكتبة العربية أم الأجنبية.

لقد تنبّهتُ إلى سر عظيم في قصة الحضارات والأفراد والقادة هو أن التاريخ يريك سنن الله لتنبه للتدافع الإنساني المحتوم على كل فرد وجماعة وأمة وشعب، تدافع بين الخير والشر، وبين الخيور والشرور مع بعضها على مستوى الإنسان فرداً وجمعاً.

بل على مستوى النفس الذاتية والشخصية تدافع بين الطاعة والمعصية والإقدام والتردد والعزم والرخاوة.

والشدة واللين، والغلو والتوسط. والشجاعة والتعقل والجبن.

لكن أتدرون ماذا استنتجت؟

قلت في نفسي هذه السرديات التاريخية منها الصادق والكاذب بلا شك، لهذا عزمت أن أسعى لتمحيص الحقيقة التاريخية لأستفيد أولاً على المستوى الشخصي الفكري والعملي والاستراتيجي.

وهنا سألت أهم سؤال:

أين أجد التاريخ الإنساني الذي يحمل الحقيقة والحقيقة فقط؟

لقد أذهلني الجواب: إن ذلك في قصة الإنسانية في القرآن وصحيح السنة.

كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

فأخذت أستعرض الكتاب الذي لا ريب فيه؛ كتاب الله ممعناً متأملاً مستنبطاً.

فقلت: هنا فقه التاريخ الحضاري والإنساني للبشرية.

هنا الحقيقة الوحيدة الحصرية التي تقصّ على العالم بدايته من أول خلقه وهدف خلقه الاستخلاف لعبادة الله وهبة الله تعالى للإنسان العلم من أول لحظة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] أسماء كل شيء، نعم وليست الأسماء النحوية المتأخرة الاصطلاح.

بل الأسماء المتعلقة بالأشخاص والأشياء والأحداث والأفعال التي تشكل لغات العالم. كل ذلك في شريحة إلهية في كينونة آدم الأب. وفي تصوري -والله أعلم- أن هذه المعلومات انتقلت عبر الجينات إلى ذريته فكان منهم كل السنة ولغات العالم.

إنها معلومات معرفية مكنوزة في الخلق البشري من آدم، وهنا أتذكر القضية الجدلية الكلامية هل اللغات توقيفية أم لا؟.

وهي قضية جدلية لا أثر لها في الواقع، لكنها كانت متكافئاً جدلياً للخلاف في جواز القياس في اللغة والاشتقاق وغيره.

والواقع يسير وفق سنة الله لا يؤثر فيها هذا الجدل.

لقد رحلت في الفقه التاريخي الحضاري في القرآن والسنة طويلاً.

ثم عزمت على تدوين ما وصلت إليه في كتاب -ولو بعد الانتهاء من المشروع التجديدي-: "موسوعة معالم الاجتهاد في فقه العصر".

الذي صدر منه المقدمة في فقه العصر قبل سنوات ثم صدر قبل أشهر القواعد الأم جزءان ومجلد الصيام ومستجداته.

وقريبا إن شاء الله أهم جزء تأصيلي سيصدر في مجلدين بعنوان خارطة النظر الفقهي. كتابٌ بذلتُ فيه مهجة الوقت وعصارة التجربة لأكثر من ربع قرن فيه أساسات وقواعد وأصول ما يحتاجه الناظر النظار في الفقه المتقدم والمعاصر.

أين وجدت ضالتي؟

لكني وجدتُ ضالتي أثناء الرحلة في لجج التاريخ وأعماق الفقه في قصة الإنسانية في القرآن والسنة

ثم فكرت فيما كتبه صديقي العلامة علي الصلابي فرجعتُ إلى قصة بدء الخلق ونشأة الحضارة له

بدأت بآدم ثم نوح وهكذا إلى لوط ولا زلتُ في هذه الرحلة.

فقلت ما قال موسى وجد بُغيته: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ [الكهف: ٦٤].

نعم هنا فقه التاريخ هنا فقه القرآن القصصي والسني والحضاري. أدعوكم إلى قراءة هذه الموسوعة وكل ما كتبه الشيخ في التاريخ وما يحصل في المنطقة بأسرها والعالم كله محكوم بفقه السنن الإلهية والتدافع.

إذاً، عليك إذاً أن تفقه هذا!

إن فقه السنن والحضارات وعوامل نهضتها وقوتها وانهارها أغنانا الله سبحانه وتعالى فيه عن التخبط الفكري والاضطراب وهوس التحليلات التي تصدق وتخيب بل وتشترى وتبيع. إن الحضارة الإنسانية وقادتها العظام في القرآن الكريم هي المصدر الوحيد مع السنة النبوية لاستنباط فقه الحضارات وسنن الله فيها من التغيير والتبديل.

وقد قام بهذا المشروع العظيم أخي وصديقي العلامة علي الصلابي في موسوعته نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.



هذه الموسوعة في تقديري أهمُّ ما كُتِبَ في قصص الرسالات وسير الأنبياء القادة الرساليين العظام للحضارات الإنسانية المصلحة في الأرض وفق مقصود الاستخلاف الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

- هود والحضارة العادية الكبرى في هذا الكتاب.

صدّقوني أنّي قرأتُ الكتاب في ساعات معدودة لشغفي المعرفي بهذا الجانب من جهة، لكن من جهة أهم هو ما في الكتاب من الجواهر والأفكار والأسلوب الكتابي، والفقه التاريخي وهو ما يسمى فلسفة التاريخ عند الغرب ويسمى عندنا فقه السنن.

لم يسرد الشيخ علي الصلابي كتابه رواية تاريخية على غرار الخيالات والحبكة الدرامية في الرواية الإسلامية التي تحدثت عن قصص بعض الأنبياء، لبعض الكتاب. ليس كذلك.

إن هذا الكتاب وموسوعة نشأة الحضارة كاملة:

١- إن شئت أن تقول هو من أهم ما كتب في التفسير الذي يمكن أن يقرأه العالم ويلفت نظره إلى عجائب النص القرآني ومفرداته.

٢- أو يقرأه الإنسان العادي ليفتح له آفاقاً من المعرفة والفهم للحياة ودورها ومواجهة صعوباتها وحل إشكالاتها حتى لا يفاجأ ولا يتوقف ولا يصدم بعقبات الحياة التي هي من طبيعتها أصلاً.

٣- أو يقرأه الداعية ليقف بقدم راسخة على طريق الدعاة الرساليين من الأنبياء، الذين غيروا التاريخ وأصلحوها في الأرض.

٤- أو يقرأه المؤرخ ليفهم السردية الحقيقية والوحيدة حصرياً أقولها بلا تردد، إنها الحقيقية الحصرية في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

لقد جعل الله اليَمَنَ في موقع عالمي استراتيجي حكمت به الحضارة اليمنية العالم، فكانت في أيام هود عليه السلام حضارة كبرى قال الله عنهم: ﴿الَّذِي تَرَكَيْكَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ ۖ وَالَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

إن الألف واللام في لفظة (البلاد) تدل على العموم.

ومن هنا أثبتت الدراسات والحفريات والنقوش وصول نفوذ أمة عاد اليمنية إلى معظم شرق آسيا شرقاً وإلى أفريقيا غرباً.

كما بيّنه المؤلف بإثباتات تاريخية ودراسات ونقوش.

كما أثبت الامتداد النسبي السامي لهذه الأمة الذي تخفيه يهود وحرفته لتحصر العرق السامي في البيت الإسرائيلي الذي حولته لقضية عالمية مطلبية تحاكم به العالم مع أن العرب بأسرهم ساميون.

لقد امتازت هذه الأمة:

- ١- بالتفوق الصناعي: قال سبحانه ﴿وَتَجِدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].
- ٢- وبالاقتصاد: قال سبحانه: ﴿أَمْذَكُم بَأْغَمٍ وَبَنِينَ ۖ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٣، ١٣٤].
- ٣- والقوة العسكرية الجبارة: قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].
- ٤- وبالقوة العمرانية: قال سبحانه ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

ومعنى كلمة ريع أي مرتفع من الجبال وكل مرتفع مطل على الطرقات، كانوا اتخذوا الجبال والتباب والمرتفعات مواقع للعمران الحضاري الذي يكفي أن الله سبحانه سماها آية. وبالمناسبة لا يزال هذا الشغف بالبناء مركزاً في فطرة الإنسان اليمني إلى الآن العمارة والتشييد في كل ريع ومرتفع وتبة وجبل.

إن هذه الأمة أرسل الله لها هوداً عليه السلام جدّه سام ابن نوح وهو أبو اليمن العرباء والعرب العاربة.

ثم كان ما أخبر الله به في القرآن من شأنهم من البطر والتكذيب والهلاك سوى من آمن مع هود عليه السلام.

لقد استوفى المؤرخ الصلابي في هذا الكتاب هذه الجوانب كلها من الناحية التاريخية المحضة، ثم ما في النص القرآن، ثم استنباط السنن والقيم والأخلاق وأسباب النهوض الحضاري والانهايار.

لماذا لم تفصل قصص الأنبياء في السنة سوى القليل وما الهدف؟

لم يأت في السنة النبوية ما جاء في القرآن من التفصيل الحضاري للأمم والرسول ودعوتهم، لأن الهدف من ذلك أن يبهت الكفار بخبر الغيب من مصدر معجز في ألفاظه تحداهم أن يأتوا بسورة منه كـ "قل هو الله أحد" أو "الكوثر".
فعجزوا إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين.

فكان هناك إعجازان، في اللفظ والبيان، وفي الخبر نفسه في الحقيقة التاريخية التي تضمنتها هذه النصوص التي لا يعلمها العرب البتة، كقصة نوح، والتي لا يعلمها أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، كقصة هود وصالح وعاد وشمود، لم تذكر في الكتب السابقة، إما أنهم لا يعلمونها على شهرتها عند العرب، وإما لأنهم طمسوها من كتبهم المحرفة، لئلا يكون للعرب ذكر حضاري عندهم ولا نسب سامي.

وقد وجد في التوراة والإنجيل بعض قصص النبيين والمرسلين، بلطخات من السواد والتشويه، الذي انعكس من نفسية مريضة دنيئة وحقد ظلامي، غير مبرر من بني إسرائيل على الرسالات والنبوات.

لهذا نص القرآن في قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

والهدف الثاني: أن يتعبد بها في الصلاة إلى يوم الدين ليفقهها ويسمعها كل مسلم على وجه الأرض في صلواته وتلاواته لكتاب الله، بخلاف ما لو فصل هذا التفصيل في السنة، فإنها لن تكون حاضرة هذا الحضور بين المسلمين في الصلوات والتلاوات.

والهدف الثالث: وهو غائي وهو التثبيت للرسول وحملة الدعوة إلى يوم القيامة بهذا التاريخ السنني في النص القرآني.

- ثلاثة أهداف استراتيجية كبرى في سير الرسل والأنبياء في القرآن:

ذكرنا أن هدف التثبيت كان ضمن مصفوفة الأهداف في القصة القرآنية، لكن أهم وأجلى الأهداف الاستراتيجية ثلاثة، نصّ عليها الله سبحانه عليه في آخر سورة هود، بعد ذكر سلسلة القصص من نوح إلى هود، ثم صالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قال سبحانه معللاً ذلك: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيَّ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٠-١٢٣].

إن الهدف تثبيت، وموعظة، وذكرى.

١- تثبيت الفؤاد:

إنه إذاً تثبيت خاص ومهم وعميق، إنه تثبيت للفؤاد حتى لا يقربه خوف ولا ظنون ولا وساوس في مسيرة الدعوة، وما يتعرض له حملتها من الإزعاج والكيد والأذى في أنفسهم وأموالهم وما يحبون.

إن أول شيء تؤثر فيه هذه الموجات المكرورة من الصراع والكيد والتأمر هو القلب.

نعم والقلب هو مركز استشعار عالي الدقة والتوجيه، تتأثر بحالته الأفعال والأقوال والتصرفات عموماً.

لذلك إن أهم ما يشبه ليشكل حماية له من أي هزات هي قصص هذه النخبة القائدة من الرسل.

٢- ثم هدف تالٍ وهو الموعظة:

ومعناها كما في التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٣١): «كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في ضده». إذا القصص ليست للتسلية فقط بل تحذير من مكروهات الطريق ومضلاتها وترغيب وطلب لسلوك مسالك الخير والإصلاح والإيمان.

٣- ثم هدف ثالث هو المنبه التذكاري وهو المسمى في الآية (الذكرى).

وهي عبارة عما يتشكل من مخزون معرفي معلوماتي عن سير الأنبياء والمصلحين كالمنبه على طول طريق السلوك إلى الله وحمل رسالته، كلما مر عليك موقف بعث إليك هذا المنبه المعرفي رابطا تعود به إلى موقف مماثل حصل لمن قبلك من الأنبياء والرسل.

إذاً، إنه يمثل إشارة تذكيرية، كما يرسل لك منبه الهاتف ما خزنته من مواعيد ومعلومات من قبل.

فيالها من حكمة إلهية ومقصد رباني عظيم في قصص قادة البشرية من الرسل والأنبياء والمصلحين.

إني وفي الختام، ألفت نظركم إلى أن هذه الحياة هي كتلة ممزوجة بالمتضادات من سرور وحزن ونهوض وانهيار وربح وخسارة وصحة ومرض وهكذا؛ إنها كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البعد: ٤].

هكذا بحرف (في) الدال على الظرفية الانغماسية.

إذاً، الحياة هكذا مكابدات، صعوبات، مواجهات، صراع إيمان كفر، نهوض انهيار، فرح وحزن... إنها باختصار كَرْ وَفَرْ.

إنها في التسمية القرآنية (في كبد).

وهي في المفهوم القرآني كذلك (تدافع).

وهذه اللفظة تتشكل مع غيرها لتضع معالم السنن الرباني في الأنفس والآفاق والحضارات.

إذاً، على الإنسان أن يقرأ ذلك من خلال كتاب الله، وسنة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولقد جاء هذا الكتاب لاستكمال خدمة هذه المهمة، فقد ألم بالنص القرآني في عموم سور القرآن عن قصة هود.

فقد ذكر في ١٨ سورة من القرآن الكريم ذكرت عاد خلالها ٢٤ مرة، وذكر نبيها هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ٧ مرات.

أكتفي بهذه الإطالة لأترككم مع الكتاب وما فيه من كنوز معرفية وسنن ربانية وأخلاق وقيم وتاريخ رسالي مختوم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

كتبه:

أ.د. فضل بن عبد الله مراد

مؤسس مشروع فقه العصر

أستاذ الفقه والقضايا المعاصرة جامعة قطر

أمين لجنة الاجتهاد والفتوى بالاتحاد العالمي

لعلماء المسلمين والأمين العام المساعد للاتحاد.

١٨ محرم عام ١٤٤٦ هـ

٢٤ - ٧ - ٢٠٢٤ م



الإهداء



إلى أبناء الإنسانية في هذه المعمورة، إلى الباحثين عن تاريخ الإنسانية، وأهم محطاتها الحضارية.

إلى الباحثين عن أجوبة شافية للأسئلة الوجودية الكبرى؛ عن وحدانية الله تعالى، وخلق الكون، والجنة والنار، والقضاء والقدر، والرسالات والنبوءات، وسنن الله في خلقه، والصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والكفر والإيمان.

إلى العقول النيرة، وأصحاب الفطرة السليمة، والأفئدة النقية، الذين هم في أمس الحاجة إلى معرفة سير الأنبياء والمرسلين.

إلى أبناء الأمة المخلصين، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، الذين يعانون ويصبرون، ويدافعون عن القيم الرفيعة والمبادئ السامية، ويعلنون كلمة الحق، وينشرون الحقيقة في مشارق الأرض ومغاربها.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل، سائلاً المولى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وعلماً نافعاً للبشرية جمعاء.

المقدمة



إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُ بِهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَلَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ، وَلَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَا.

أَمَّا بَعْدُ؛

فهذا الكتاب هو امتداد لمشروع علمي يتعلّق بتاريخ الحضارة الإنسانية في أهمّ محطاتها، وحلقاتها التي جاءت في القرآن الكريم، والمتعلّقة بقصص الأنبياء والمرسلين، والتي صدر منها حتى الآن:

١. قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم، وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٣. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ داعية التوحيد، ودين الإسلام، والأسوة الحسنة.

٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله؛ عدوّ المستكبرين وقائد المستضعفين.

٥. المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحقيقة الكاملة.

٦. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٧. النبي الوزير يوسف الصديق (عليكم السلام) من الابتلاء إلى التمكين.

٨. الأنبياء الملوك داود وسليمان (عليهما السلام)، وهيكلي سليمان المزعوم.

٩. نبي الله لوط عليه السلام ودعوته للقوم الظالمين المعتدين المسرفين المجرمين.

وهذا الكتاب "نبي الله هود عليه السلام وأسباب زوال حضارة قوم عاد"؛ يُعدّ حلقة مهمة في بناء الصرح الحضاري في تاريخ الإنسانية المتعلق بسير الأنبياء والمرسلين. وقد قسّمته إلى مباحث:

المبحث الأول: ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية. وقد تحدّث فيه عن:

أولاً: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨].

ثانياً: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

ثالثاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

رابعاً: إسهام صفات نوح عليه السلام، وأخلاقه في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية:

١. الإخلاص.

٢. الصبر.

٣. التقوى.

٤. مستغفر وتوّاب.

٥. الدعاء.

٦. العبودية.

٧. العلم.

٨. العفة.

٩. الأمانة.

١٠. الثبات.

١١. برّ الوالدين.

خامساً: فقه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعامل مع السنن الربّانية:

١ - سنّة الله في التغيير، وعلاقتها بالبناء العقديّ.

٢ - سنّة الابتلاء.

٣ - سنّة الله في الأخذ بالأسباب:

أ- في أسلوب الدعوة.

ب- اهتمام نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بمن آمن معه.

ج- صناعة الفلك.

د- بذور الحضارة الإنسانيّة الثانية.

٤ - سنّة التدافع.

٥ - سنّة الله في النصر والتمكين.

سادساً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانيّة الثانية:

أ- العامل العقديّ.

ب- العامل الصناعيّ والاقتصاديّ.

ج- عامل البيئة.

د- العامل الاجتماعيّ.

٦- العامل الأخلاقيّ.

٧- العامل السياسيّ.

٨- عامل الجمال.

سابعاً: تفسير الآيات التي تحدّثت عن الجارية والفلك المشحون.

ثامناً: وصيّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته.

تاسعاً: قوم عاد في ضوء التاريخ القديم والبحوث والاكتشافات الحديثة. وكان الحديث عن أرض الأمم السامية، ومساكن الأمم السامية الأول، والهجرة منه؛ ومن هي الأمم السامية الأولى؟ وعن عاد ومساكنها ودولها؛ وانتشارهم في بابل ومصر، وآشور، إيران، وفينيقيا، وقرطاجة، وكريت، واليونان. وتحدّثت عن نبيّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم وكتب التفسير والتاريخ.

وفي المبحث الثاني: تحدّثت عن قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والأحقاف وفصلت.

أولاً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف.

ثانياً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة هود.

ثالثاً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة المؤمنون.

رابعاً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.

خامساً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأحقاف.

سادساً: قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة فصلت.

سابعاً: إشارات سريعة في قصّة هود في القرآن الكريم:

١ - قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الذاريات.

٢ - قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القمر.

٣ - قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الحاقة.

٤ - قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الفجر.

ثامناً: ذكر عاد مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم:

١. في سورة التوبة.

٢. في سورة إبراهيم.

٣. في سورة الحج.

٤. في سورة الفرقان.

٥. في سورة العنكبوت.

٦. في سورة ص.

٧. في سورة غافر.

٨. في سورة ق.

٩. في سورة النجم.

المبحث الثالث: أسباب هلاك قوم هود، وأهم صفاته، وخصائصه، ووفاته.

أولاً: أسباب هلاك الكافرين من قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي:

١. الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

٢. الشرك بالله.

٣. الظلم.

٤. الإجرام.

٥. تكذيب الرسول الكريم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.
 ٦. إيذاء هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنواع الإيذاء.
 ٧. استعجال العذاب ودعاؤه على قومه.
 ٨. الجدل بالباطل.
 ٩. الترف.
 ١٠. البطر.
 ١١. الاستكبار.
 ١٢. الخطايا والذنوب.
 ١٣. التكذيب بالبعث والنشور.
 ١٤. الفساد.
 ١٥. الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة.
 ١٦. سُنَّة الاستبدال.
 ١٧. سُنَّة الأجل الجماعي.
 ١٨. سُنَّة الهلاك.
 ١٩. سُنَّة الخسران.
 ٢٠. الغفلة عن أسباب الهلاك.
- ثانياً: أهمّ صفات وخصائص هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومقام النبوة والرسالة، ووفاته:
- ١- تعريف الرسل وصفاتهم:
 - أ- تعريف الرسول اصطلاحاً.
 - ب- هل يُنبأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟

- ج- الرسالة اصطفاء.
- د- الرسل يوحى إليهم.
- هـ- طرق الوحي.
- ٢- الفرق بين النبي والرسول.
- ٣- أهم صفات الرسل ومنهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:
- أ- الصدق.
- ب- الفطنة.
- ج- التبليغ.
- د- العصمة.
- هـ- مكارم الأخلاق.
- و- الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنفّرة.
- ٤- الإيمان بالأنبياء والمرسلين.
- ٥- عدد الرسل.
- ٦- التفاضل بين الأنبياء والرسل.
- ٧- أولو العزم من الرسل.
- ٨- حكمة إرسال الرسل عامّة.
- ٩- وظائف الرسل.
- ١٠- أمور تفرّد بها الأنبياء.
- ثمّ كان الحديث عن وفاة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ...

وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء ٤ رجب ١٤٤٥ هـ، الموافق ١٦ يناير ٢٠٢٤ م، وذلك في تمام الساعة الثامنة بعد صلاة العشاء بمدينة الدوحة في دولة قطر - حفظها الله من كل سوء -.

والفضل لله من قبل ومن بعد، فأسأله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتقبَّل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعني في مرحلة الانتهاء من هذا الكتاب، إلا أن أفف بين يدي الله عَزَّجَلَّ بقلب خاشع منيب، معترفاً بفضلته وكرمه ومتبرئاً من حولي وقوّتي، ملتجئاً إليه، في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل عليّ.

وربّي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد منّي العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري وجنّبي اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري. وأسألك ربّنا بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلا، أن تأجرني وإخوتي الذين أعانوني على تمام هذا العمل.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفعة العظيم. كما أرجو من كل من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي ۖ إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والحمد لله ربّ العالمين.

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه: علي محمد محمد الصلابي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

يوم الثلاثاء ٤ رجب ١٤٤٥ هـ، والموافق لـ ١٦ يناير / ٢٠٢٤ م.

المبحث الأول

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية



قال الله تعالى:

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿هود: ٤٨، ٤٩﴾

﴿أولاً﴾: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾:

- ﴿قِيلَ يٰنُوحُ﴾ [هود: ٤٨] بُني الفعل للمجهول دون حرف عطف؛ لينتقل السياق إلى ختام القصة، وفاعل القول هو: الله، وقد أوحى الله لنوح عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

- ﴿يٰنُوحُ اهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨] وكأن السفينة طائرة، فاستخدم كلمة ﴿اهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨] فهي لارتفاع الموج كانت كأنها معلقة فقليل: ﴿اهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، وإما السفينة عالية فقليل: ﴿اهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، والتعبير بالهبوط يصور لنا أن الخروج من السفينة من أعلاها، وأن الوصول إلى اليابسة قد كان على سلالم أو ألواح خشبية مائلة يهبط الهابط عن طريقها إلى الأرض، ولو كان سطح السفينة في مكان استوائها مساوياً لطرف من أرض الجبل لكان التعبير المناسب أن يقال: اخرج^(٢).

- ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨]: أي: اهبط أنت ومن معك وما معك، مصحوباً بسلام منّا عليك، وبركات منّا عليك.

(١) نوح وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٤.

(٢) المصدر السابق نفسه. وفي: تفسير سورة هود دراسة تحليلية - موضوعية، الدكتور: أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ١٨٧.

- ﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]: أي: بأمنٍ مِنَّا، وهذا يشمل كل ما يطلب فيه الأمن، كالأمن من المهلكات، ومن كل ذي شرٍّ، وكالأمن من الموت جوعاً أو عطشاً ونحو ذلك^(١).

﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] تشمل في ثناياها معاني متعددة، كالسكينة والأمن والاستقرار والهدوء، وهذه الحضارة الإنسانية الثانية من أسسها العظيمة السلام ﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨].

﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] على دينك وتوحيدك.

﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] على أتباعك.

﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] على مقومات الحياة الإنسانية الجديدة التي ستقودها.

﴿يَسْلَمِ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والعلاقة بين الإنسان لما بعد الطوفان العظيم، والكون والبيئة، وهذا لمن أثار اسم الله عزَّجَلَّ السلام، فمن أسماء الله الحسنى السلام.

[السلام]: اسم الله السلام في اللغة يعني: البراءة من العيوب والنقائص، ويشمل في ثناياه معاني متعددة كالسكينة والأمن والاستقرار والهدوء^(٢).

والسلام: هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله، وكذلك من اسم السلام اشتقَّ الإسلام، وهو دين الله^(٣)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

يقول ابن القيم: من اسم السلام جَلَّ جَلَالُهُ قولان: أحدهما: أنه مصدر، وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى: أنه ذو السلام، وذو العدل على حذف المضاف. والثاني: أن المصدر لمعنى الفاعل أي: السالم، كما سُمِّيت ليلة القدر سلاماً، أي: سالمة من كل شرٍّ بل هي الخير لا شر فيه^(٤).

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٤.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢م، ص ١٤٩.

(٣) مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، عقيل حسين، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٧٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٢.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، في هذه الآية كل اسم من أسمائه الحسنی يؤكد على الصفة التي تسبقه ويحتويها، فالملك هو الله، والقدوس هو الله، والسلام هو الله جَلَّ جَلَالُهُ؛ ولأنها هي الله تعالى، فهي بطبيعة الحال تحتوي كل صفات الكمال فيها، ولذلك فإن اسم الله يحتويها، ومع أن هذه الآية ثلاثية الأبعاد، إلا أنها نزلت وحدة واحدة متماسكة بنياناً مرصوصاً. والأبعاد هي:

- **فالبعد الأول:** ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣] في هذا البعد ينفي وجود إله غيره، ويتم التأكيد على أنه الله الذي لا شريك له في الأمر، إنه الله الواحد الأحد، ولا وجود لإله غيره، وهذا يعني: إذا كان هناك من يعتقد بوجود إله غير الله تعالى فلا يجده ولن يجد له مكاناً، ولن يجد له صفات، ولذلك كفر الذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

- **البعد الثاني:** ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، هذه الأسماء جميعها هي الله؛ الذي تمَّ التأكيد عليه بالبعد الأول بأنه لا إله إلا هو، وهذا يعني: أن هذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحسنی هي غير متعددة، بل هي صفات تتعدد لواحد لا يتعدد، ولذلك فإن القاعدة هي: تتعدد الصفات للواحد، ولا يتعدد الواحد في صفاته، فالكریم عندما يكون صادقاً وعادلاً يظل هو واحد وصفاته متعددة، ولهذا فإن الله واحد أحد، وصفاته متعددة، فالحمد لله الواحد المتعدد الصفات الحسان.

- **والبعد الثالث:** ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، يؤكد هذا البعد بالتمام مقاصد البعدين السابقين بأن الله واحد أحد، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، أي: هو الذي له الأسماء الحسنی ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لينفي وجود الشريك، ويؤكد على الواحد الأحد متعدد الصفات^(١).

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

والسلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي مِنْهُ جَاءَت السَّلَامَةُ، ولذا فإن السَّلَامَةَ تابعة للسلام وأثر من آثاره، فهو تعالى الأول قبل كل شيء، وتحتوي السَّلَامَةُ البراءة من كل شر وسوء، ومن كل مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كل حسد وعلة، وفي مقابل ذلك: فهي القوة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء^(١).

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصدر السلام والأمن، وكل من ابتغى السَّلَامَةَ عند غيره، سبْحَانَهُ، فلن يجدها، وهذا معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم أنت السلام ومنك السلام»^(٢)، ولذلك سميت الجنة دار السلام؛ لأن من دخلها سلم من الآفات والشرور والمنغصات والأكدار، قال تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

ومن ذلك تحية الإسلام التي حث الإسلام على إفشائها، وذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣)، وفي إفشائها إشاعة للأمن والودِّ والسلام بين الناس، ومن ذلك سلامه عَزَّجَلَّ عَلَى أَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ، وذلك في:

- قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١٨٠) وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصفات: ١٨٠-١٨٢].

- وقوله تعالى: ﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ٧٩].

- وقوله تعالى: ﴿سَلَّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفات: ١٠٩].

- وسلامه سبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[النمل: ٥٩]، وغير ذلك.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابِ اسْتِحْبَابِ الذِّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَبَيَانِ صِفَتِهِ، رقم ٩٣١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابِ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبٌ لِحُصُولِهَا، رقم ٨١.

لقد اعتمد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه على مرتكزات عظيمة أسهمت في تحقيق السلام من الله تعالى له وللمؤمنين به، ومن ثم انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية، ومن هذه المرتكزات:

- التوحيد وعدم الشرك بالله

- إيمان أتباعه به كرسول ونبي

- والالتزام بحدود الله وشرعه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وغير ذلك من الأمور^(١).

﴿ثَانِيًا: وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

- ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: ٤٨]: البركة: الزيادة في كل خير عن قدر الحاجة والضرورة، فتشمل البركات الزيادة في خيرات الأرض من الزروع والثمار، والزيادة في خيرات مطاعم صيد البر والبحر وغير ذلك من كل ما يستمتع به الناس في الحياة الدنيا، حتى الصحة النفسية وطمأنينة القلب وسعادته^(٢).

وباب "البركة" وباب "الطمأنينة" هما بابان يفتحهما الله على المؤمنين فحسب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولفظ البركة لا ينحصر في معناه الرخاء المادي، إنه أوسع، بل نكاد نقول إنه ليس الرخاء المادي أساساً - وإن شمله - إنما هو شيء ما في حياة الناس يجعلها مباركة طيبة وضيئة رقيقة غالية نظيفة تستروحها النفس. وهناك معاني للألفاظ يصعب تحديدها، ولكن من ذاقها عرفها.

فالثقة المتبادلة بين الناس نوع من البركة والحب المتبادل نوع من البركة والتعاون على البر والتقوى نوع من البركة وغيره كل إنسان على عرض أخيه نوع من البركة والحفاظ

(١) مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، عقيل حسين، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٥.

على القيم العليا في المجتمع نوع من البركة والحرص على صلوات الرحم نوع من البركة وكفالة القادرين لغير القادرين نوع من البركة وطلب العلم لنفع الناس به نوع من البركة. وهناك مئات ومئات من المشاعر والأعمال تجمعها هذه اللفظة المفردة، التي يضيفها الله عليها من رحمته فيجعلها "بركات".

وأما الطمأنينة فاسأل عنها الخائفين القلقين الحائرين المضطربين المتوجسين المرهقي الأعصاب من القلق والخوف والتوجس، إنهم يعرفون جيداً ما يبحثون عنه، إنهم يبحثون عن الطمأنينة، والله يبين لهم الباب الذي يؤدي إليها قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولعلنا لا نحتاج أن نقول: إنَّ الجاهلية المعاصرة برغم كل أدوات التمكين المتاحة لها من القوة الحربية والقوة السياسية والقوة المادية والقوة الاقتصادية والقوة العلمية تفتقد الطمأنينة، وتفقد السعادة التي ينشدها الإنسان في حياته، والخمر والمخدرات والجريمة وحدها دليل على فقدان السعادة والطمأنينة فضلاً عن القلق والانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية، فالخمر ومثلها المخدرات محاولة للهروب من الواقع، فلماذا يسعى الناس للهروب من واقعهم لو كانوا سعداء به؟!

والجريمة لون من الشعور المرضي نحو المجتمع، يعبر عن عدم الرضا في هذا المجتمع، فلماذا تنتشر الجريمة وتزداد نسبتها؟

وأما المرح المجنون الذي تغرق فيه الجاهلية المعاصرة في لحظات "الانفلات" في المراقص والملاهي والحانات وعُلب الليل، فليس دليلاً على السعادة، بل هو أخرى أن يكون دليلاً على فقدانها ومحاولة التعويض المفتعل على الخواء النفسي الناشئ من فقدانها، وهذه هي الصورة الكالحة للجاهلية التي تعجز عن إخفائها المصانع الضخمة والإنتاج المادي الكبير والصواريخ الذاهبة إلى القمر والمريخ^(١).

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ -

وما يحدث الآن من تمكين الحضارة المعاصرة في صورتها الجاهلية هو من باب الاستدراج الذي يعطيه الله للكافرين حين "يريدون" الدنيا، ويذلون الجهد المكافئ لتلك الإرادة، فيوفيهم جزاءهم في الحياة الدنيا، ويفتح عليهم أبواب كل شيء مما يتعلق بباب التمكين.

وتمكين الاستدراج تمكين مؤقت مهما طال مدته، وينتهي دائماً بالدمار، بينما تمكين الرضا ممتد حتى يغير الناس ما بأنفسهم، ويحيدوا عن الطريق فيزيل عنهم التمكين، فإن لم يغيروا ما بأنفسهم امتد لهم التمكين^(١).

فالحضارة الإنسانية الثانية التي أسسها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قامت على أساس من السلام والبركات الربانية، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨] أي على أمم تتفرع وتتوزع في الأرض، وهم سلالات ممن معك من ذريتك؛ لأن الله جعل ذريته هم الباقين من قومه بعد الطوفان^(٢)، وهذا السلام والبركات عليك يا نوح وعلى أمم ممن معك، أولهم بطبيعة الحال من آمن معه ثم باقي المخلوقات المرافقة^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَتَمَتَّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، أي: وأمم أخرى هم أيضاً سلالات ممن معك لا يشملهم فضل السلام والبركات، ولكن ﴿نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ [لقمان: ٢٤]، أي: متاعاً دنيوياً معجلاً على قدر أزمته ابتلائهم في الحياة الدنيا، وهم مهما أصابوا منها فهو قليل بالنسبة إلى الآخرة، وقد دلت نصوص قرآنية متعددة على أن متاع الدنيا متاع قليل، كما دلت على أن الحياة الدنيا متاع الغرور، وبعد هذا المتاع القليل تأتيهم منايهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] مؤلم مذيق للألم.

وإشارة النص هنا، ودلالات نصوص أخرى تدل على أن هذا العذاب الأليم يكون لهم؛ بسبب كفرهم، وفسقتهم وظلمهم وما كانوا يعملون في الحياة الدنيا من سيئات^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، الميداني، ص ١٣٥.

(٣) تفسير سورة هود، ص ١٨٧.

(٤) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، الميداني، ص ١٣٦.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنِ السَّلَامِ وَالْبَرَكَاتِ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالَّذِينَ مَعَهُ تُؤَرِّخُ لـ:

- حلقة من تاريخ البشرية، وهي البنية الثانية بعد قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في معمار تاريخ الإنسانية، وهي حلقات تتكرر ولا أحد يتذكر إلا من رحم ربي.

- هؤلاء، أي قوم نوح، أول المهلكين بعذاب الاستئصال، ثم كَرَّتِ السلسلة بعد ذلك ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

- الأمن والسلام والبركات ثمرة الإيمان، وهي ملازمة له ملاصقة ملابسة مقترنة لا تنفك، وخارج دائرته لا يوجد كل هذا^(١).

ولقد نزل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بسلام من الله وبركات، وبأشر مهمته الإيمانية في خلافة الأرض، ومعه مقومات الحضارة الجديدة التي حملها معه في الفلك من كل زوجين اثنين وفيها المؤمنون كلهم^(٢)، ولقد كان التدخل الإلهي لكي يصحح مسار قوم نوح من خلال الطوفان والغرق للجاحدين، والسفينة والنجاة للمعتصمين بالله؛ لكي ينطلقوا لتأسيس جديد للحضارة الإنسانية والرقى بها إلى رؤية أشمل لتحقيق العبودية لله ومفهوم الخلافة في الأرض، وبالتالي تكون دعوة نوح قد انتقلت من المكان الطبيعي إلى المكان التاريخي مستكملة رسالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي انتقلت من الزمان الطبيعي إلى الزمان التاريخي وأسست المؤسسة الأسرية، وهذه هي رسالة نوح تؤسس المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية في إطار الرسالة الإلهية عبر التاريخ الإنساني^(٣).

﴿ثَالِثًا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

(١) تفسير سورة هود، نوفل، ص ١٩١.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ٥٦/١.

(٣) رسالات الأنبياء؛ دين واحد وشرائع عدة: دراسة قرآنية، عبد الرحمن حللي، بيروت، مركز نماء للدراسات والبحوث، ط ٢٠١٥، ص ٦٩.

هذه الآية تعقيب على قصة نوح، فكأنها الخلاصة منها والثمرة، والثمرة جزء من الشجرة، صحيح أننا نقطعها منها، ولكنها مرتبطة بها وهي منها. والمعنى: تلك: اسم إشارة إلى ما سبق من قصة نوح، واللام للبعد، وهي كذلك أي: أنها مطابقة، فهي أيّ القصة موعلة في البعد الزمني والعمق التاريخي، وهي بعيدة عن ثقافة العرب كذلك، ومعلوماتهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩]، وما في التوراة مخلوط أو خليط فيه قليل من الحق وكثير من الخرافات والأساطير، فليست قصة نوح على الحقيقة أو كما هي في الواقع، والتي أوجزها القرآن الكريم أكمل إيجاز، بل أكمل عرض مع الاختصار وهنا تكمن العظمة.

واستخدام اسم الإشارة أحياناً بصيغة المذكر ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾، وهذا النص من السورة التالية لهذه السورة، أعني من سورة يوسف في الآية ١٠٢، والتذكير باعتبار الخبر؛ لأنها تضمنت قصة نبي واحد. وصحيح أن التعقيب في سورة هود جاء على قصة أو عقب قصة نوح، لكنه يمتد إلى ما بعد هذه الآية من قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ثم موسى وفرعون فهي قصص:

- ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [يوسف: ١٠٢] من تبعية، أي: بعض أنباء الغيب، والغيب: ما غاب عن السامع للقصة أو تاليها للبعد التاريخي، فقصة نوح غيب ماضوي، وهناك غيب مستقبلي، وغيب حالي لا نطلع عليه؛ مثل الملائكة، والملا الأعلى، وعوالم كثيرة لا نعلم عنها شيئاً، أعني علم مشاهدة لكننا نؤمن بها.

وهناك غيب موجود لم نطلع عليه، وقد نطلع على بعض دون بعض ككثير من العلوم الفلكية والأرضية، وهذا باب واسع بلا حدود.

- "والنبا": الخبر العظيم ذو الشأن، والأنباء جمع نبأ، والنبأ قد يكون في داخله أنباء كقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام فيها العديد من الأنباء، وكل نبأ منها مهم كدعوته قومه هذه المدة المتطاولة، هذا نبأ، وإصرار الملا على الكفر والاستكبار طيلة هذه المدة هذا نبأ، وبناء السفينة نبأ، والطوفان نبأ، وهلاك القوم نبأ، وقصة ابنه ودعاء ربه نبأ، ونجاة المؤمنين نبأ، وهكذا.

- "والغيب": كل ما غاب عنا.

- ﴿وُحِيَهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]: أي نقصها عليك نوحى بها إليك، ونرسلها عبر ملك الوحي جبريل بهذا القرآن الجليل، فهي من ضمن وحيها إليك، والإيحاء: الإعلام بطريقة مخصوصة، والوحي أنواع ليس هذا محل تفصيلها وهي معلومة.

- ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]: هذه الأنباء، وهذه القصة، وسائر قصص هذا الكتاب كانت غائبة عنك يا رسول الله، وغائبة عن قومك، وحتى أمم الرسالات السابقة، فهي بهذا الوجه الحق الصافي غير المشوب بشوائب الوضع والدس والزيادة والنقص، وهي غائبة عنهم كذلك، وإن كانت معلومة اسماً، وتفاصيل قسم كبير منها غير صحيح ولا دقيق ولا مطابق.

- ﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]: أي من قبل هذا القصص، ومن قبل هذا القرآن أو من قبل هذا النبا الذي وصلك عن قصة نوح أو كل ذلك.

- ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]: إِنَّ الجملة الأخيرة، والنتيجة النهائية لصالح الإيمان وأهله من المتقين. و"المتقين" كلمة شاملة، تشمل اتقاء الله واتقاء عذابه، واتقاء كل شر قد يوصل إلى عذابه، والمعنى واسع ومفتوح، أو هم المتقون الذين هذه صفتهم وهذه سمتهم وشخصيتهم وميزتهم، واللام في ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] للاختصاص والملك، فيقتضي ملك المتقين لجنس العقابة الحسنة فهي ثابتة لهم لا تفوتهم^(١). وهذه الآية تبين:

- حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون، فهذا القصص غيب ما كان يعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا قومه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

- حقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يردّها، وقد بدت باطلة في جيل.

- حقيقة تحقق البشرى بالوعيد، كما يبشر النبي وهذا شاهد من التاريخ.

(١) تفسير سورة هود، نوفل، ص ١٩٣.

- حقيقة السنن الجارية لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد.

- حقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وجيل وجيل، وإنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم بإله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك^(١).

قال ابن عاشور: في هذه الآية: امتنان على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩]، وموعظة في قوله: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ [هود: ٤٩]، وتسليية في قوله: ﴿إِنَّ الْعِقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. والدروس المستفادة من القصة:

● الدرس الأول المستفاد من القصص درس العبر.

● الدرس العظيم المهم الثاني ﴿إِنَّ الْعِقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

● معرفة النتيجة سلفاً تطمئن السائرين على طريق الإيمان.

● هذا القصص حكيم مليء بالدروس والعظات، وحرام أن تضعي الحكم وسط بحر التفعيلات المنقولة عن الإسرائيليات.

● هذه المعلومات الموجودة في القصص ليست من معلومات البيئة ولا حتى الكتب السابقة، فهي إذاً وحي يوحى^(٢).

﴿رابعاً: صفات وأخلاق نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودورها في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية﴾

كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك وآمن بعض الناس برسالته، وربى الناس على أخلاق وصفات حميدة كانت متجسدة في شخصه الكريم، وفاضت على من حوله من أتباعه، فقد كان كثير الشكر لرَبِّه ومخلصاً له، وطارقاً لأبوابه بالدعاء والتضرع بين يديه، وشديد الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، تائباً إلى الله وطالِباً للمغفرة منه، صابراً على تكاليف الدعوة، صادقاً في دعوته، شجاعاً لا يخاف إلا الله، باراً بوالديه، وغير ذلك من الصفات والأخلاق الحميدة

(١) المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٦.

التي عاش بها في وسط الناس ودعا إليها وعلمها لمن استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطوفان وبعده، وأسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية، ونذكر أهم تلك الصفات والأخلاق:

١- الإخلاص:

بَيَّن رسول الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أهمية الإخلاص لله عَزَّجَلَّ في مسيرته الدعوية، وجرد نيته من جميع الشوائب، وحظوظ النفس، والطمع في الدنيا، وإنما أراد بعمله ودعوته وجه الله عَزَّجَلَّ، وبَيَّن لقومه أنه لا يريد منهم على دعوته أجراً ولا ثناء، وليس له من وراء دعوتهم مصلحة يرجوها منهم إلا ما كان من الله عَزَّجَلَّ.

- ففي سورة الشعراء قال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

- وفي سورة هود قال: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

- وفي سورة يونس قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَاسْمُرُوا أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وهذا وحده كافٍ في إثبات صدقه، وإخلاصه لله عَزَّجَلَّ، وأنه رسول من عند الله وإلا فكيف يعقل أن يخرج نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من مألوف قومه من عادات وتقاليد وأعراف وعبادات للأصنام، ويطلبهم بالتخلي عنها ثم يدعوهم، بدلاً من ذلك كله إلى الإيمان برسالته التي هي على النقيض من ذلك كله، وهو يعلم مسبقاً أنه يتعرض من قبل قومه؛ بسبب دعوته لكل صنوف العذاب بدءاً بالسخرية به، وانتهاءً بالتهديد له بالرجم، وكان الأجدر بهم أن يتساءلوا فيما بينهم لماذا يتحمل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كل هذه المتاعب، ويتعرض لكل هذه المخاطر، ولو فعلوا ذلك لأدركوا أن هذا الأمر الذي يدعوهم إليه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أكبر من كل ما يتوهمون فيه من أنه أراد به تحقيق جاه، أو منصب أو مكسب من مال أو غيره من المصالح الدنيوية فيما يزعمون^(١).

(١) قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام، عمر إيمان أبو بكر، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠١٧م، ص ٣٩.

ولقد بين الله عزَّ وجلَّ من أسباب نجاة نوح عليه السَّلام، كونه من المخلصين ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُذْنِبِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصفات: ٧٣، ٧٤]، وقد تعلمت البشرية المؤمنة بالله عزَّ وجلَّ في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية من نوح عليه السَّلام:

- أهمية أن يكون العمل القلبي والبدني والقولي خالصاً لله تعالى.
- أن يتجرد الإنسان من الدنيا ويزهد فيها، ويجعل أعماله في عمارة الأرض وخلافتها، عبادة خالصة لله.
- أن يسعى الإنسان المؤمن لرضا خالقه العظيم غير متأثر بمدح ولا بدم، كما رأوا في سيرة وقصة نوح عليه السَّلام.

ولقد وجه نوح عليه السَّلام ضربة موجعة ومؤلمة لإبليس من خلال قيمة الإخلاص وصفة الإخلاص وخلق الإخلاص، ونجا من وساوسه، وكذلك من سار على هديه، قال تعالى: ﴿قَالَ فِعْزَتِكَ لأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢، ٨٣] فقد اعترف إبليس سلفاً أنه لا سلطان له على الخلاصة الصافية من عباد الله تعالى المؤمنين الصادقين، ويئس منهم قبل أن يراهم^(١).

ومما ساعد نوح عليه السَّلام في تحقيق هذه الصفة، وهذا الخلق في نفسه وأتباعه الذين أنشأوا الحضارة الإنسانية الثانية لهو توفيق من الله لهم، ودوام المراقبة لله، واستشعار لعظمته، مما رأوا من أحداث جسام، وطوفان عظيم، ونجاتهم في الفلك المشحون، وتذكُّرهم لليوم الآخر، ومشاهدة الرهيبة، ومحاسبة نفوسهم على الدوام، وعدَّ خطواتها وأنفاسها، واستصغار شأنها، واتهامها في أعمالها، والتوبة، والاستغفار على الدوام^(٢).

يُعلمنا نوح عليه السَّلام أن الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى توحيده وعبادته إن لم يصاحبها الإخلاص لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وابتغاء وجهه العزيز، وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل

(١) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، أحمد سليمان الرقب، دار المأمون، طبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه نفسه.

أيّ عرض من الدنيا، فإنها دعوة منزوعة البركة، وعديمة الأثر على الناس فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله تعالى، وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلى الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوث النيات بهذه الدنيا الفانية، سواء كانت هذه الدنيا مالاً أو جاهاً أو منصباً أو ثناءً أو شهرة أو غير ذلك، ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث أعلنها في بداية دعوته أنه لا يبتغي من الناس أجراً ولا مالاً على دعوته لهم، إنما أجره على الله عَزَّجَلَّ، ولقد قالها كل نبي لقومه فصارت معلماً مهماً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس على ضوئه وهديه^(١).

إنَّ إخلاص نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه، وترفعه على الدنيا وزخرفتها، وإرادته وجه الله عَزَّجَلَّ في كل حركة وسكنة من حياته، معلم من معالم الاقتداء بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته من الذين آمنوا به وكذلك بعد مماته، واستخراج ذلك من سيرته وقصته.

إنَّ قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إفادة لبني الإنسان الباحثين عن الحقيقة، وإنَّ الإخلاص للخالق العظيم له آثار على الفرد منها^(٢):

- الخلاص من الكوارث الكبرى والطوفان العظيم.
- ولاية الله للمخلصين، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته الله تعالى، فالناس متفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى.
- حصول الأمن والاهتداء والنجاة من المخلوق.
- نزول السكينة في القلب.
- الثبات على الدين.
- السلامة من إغواء الشيطان.
- إجابة الدعاء.

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط ٢ ١٩٩٨ م، ص ١٥٦.

(٢) الإخلاص في القرآن الكريم، حمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، الرياض، السعودية، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩، ٣٦٣.

- القبول في الأرض والذكر الحسن، وغير ذلك من الآثار.

وأما آثاره على المجتمع الجديد الذي كان نواة الحضارة الإنسانية الثانية، فقد تغلغت هذه الصفة في نفوس أفراد الذين كانوا في سفينة النجاة، وغرست في الأبناء الجدد، وتوارثتها الأجيال، فمن آثار الإخلاص على النواة الجديدة الإنسانية:

- دخول أفراد في ركب أهل الإيمان.

- حلول السلام والبركات وكثرة الخيرات.

- النصر والتمكين في الأرض.

- حصول الأمن والهداية للمجتمع الناجي من الطوفان وغير ذلك من الآثار.

وأما في الآخرة فالنجاة من النار ودخول الجنة وحصول رضا الله عز وجل.

٢- الصبر:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَعَلَّ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ويتفاوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويتفاضلون في الصبر، فصبر أولي العزم من الرسل هو أعظم الصبر؛ لأنهم واجهوا من الأذى والصد ما لم يواجهه نبي قط، وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فنوح عليه السلام من أولي العزم، صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً^(١).

فما أصبر نوحاً عليه السلام على قومه!، فقد أُنذِرهم لأجل أن يتعظوا ويخشوا الله فيما يفعلونه فلم يستجيبوا، ومع ذلك صبر على أنهم لم يستجيبوا لدعوته التي دعاهم إليها أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، ولقد استمر فيهم داعياً ومبيناً لهم خطورة كفرهم وشركهم بالله، ومع ذلك فلم يستجيبوا أيضاً، وأعاد الكرة عليهم مرات عديدة؛ لأجل أن يتقوا الله ويؤمنوا به

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٣/ ١٠٧.

فلم يستجيبوا، وأنبأهم ليلاً ونهاراً بمغفرة الله لمن يؤمن منهم ويتوب ويتقي، فازدادوا ضللاً وإصراراً واستكباراً، ومع ذلك صبر ولم يستسلم لرفضهم واستكبارهم فازدادوا إصراراً، وهكذا كلما ازدادوا إصراراً ازداد نوح صبراً^(١).

عاش نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عمراً مديداً، ودهراً طويلاً منها ألف سنة إلا خمسين عاماً لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له والحث على تقواه وطاعته، لا يكل ولا يمل، ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً وجهاراً، وهذا من شدة حرصه على قومه، والتزامه أوامر في تبليغ دعوته.

إِنَّ دَعْوَةَ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرَّسَالَةَ الَّتِي كَلَفَهُ اللهُ تَعَالَى بِتَبْلِيغِهَا إِلَى قَوْمِهِ كَانَتْ تَوْسَسَ مِنْهُمْ جَآمِئاً لِلْأَنْبِيَاءِ وَلِلرَّسَالَاتِ بَعْدَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا:

- أول دعوة تحمل شريعة بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- طول المدة التي استغرقتها.

- الإيمان هو الأصل.

- الشرك والكفر طارئان.

- إظهار أسلوب الدعوة.

- توضيح طريق الدعوة.

- الدعوة من حيث الزمن ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

- الدعوة من حيث الوقت ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

أسست نبوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعوة قومه - هذه المدة الطويلة - للأنبياء: النهج، الفكر، الأسلوب، المطاولة، الجدل، الحوار، الصراع، الابتلاء، العبر، وما من نبي جاء بعد نوح إلا وكان له في نوح أسوة حسنة^(٢).

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دمشق، دار ابن كثير، ط ١، ٢٠١١ م، ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

وكذلك لمن حوله من أتباعه الذين آمنوا به، فهل هناك أعظم من صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بقي يدعو قومه قرابة عشرة قرون من الزمن، ثم بعد ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، ولذا أخبر الله تعالى أن نوحاً بقي في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، تسعة قرون ونصف قرن، ومع هذه المدة الطويلة قال تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فهذه دلالة على عظيم صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذلك الزمن الطويل وهذه الفترة المديدة في دعوة قومه إلى الله.

وكيف لا يكون نوح من الصابرين، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فكان الله معه في كل لحظة من حياته ومن خلال دعوته، فقد قال تعالى: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وعندما صنع الفلك برعاية الله تعالى وعنايته ووحيه، كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ صابراً على كل ما يلاقيه من أذى قومه، محتسباً ذلك عند الله عَزَّجَلَّ^(١).

إن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ تميّز في حياته بصفة الصبر، التي كانت من أسباب الثبات والنصر على الأعداء وهو محل قدوة وأسوة إذ صبر على تكذيب قومه وما لقيه من الإيذاء والسخرية إلى أن جاء نصر الله المبين ونصره على القوم الكافرين، وهذا يدلُّنا على حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر.

كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مدرسة فريدة من نوعها في الصبر والتحمل، وقد غرس هذا الخلق في أتباعه، فكان المجتمع الجديد بعد الطوفان في أشد الحاجة إلى التخلق بهذه الصفة في أفرادهِ وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والحضارية، وللصابرين درجات وفضائل تترى بينها الله عَزَّجَلَّ في كتابه، فقد ترتب على الصبر خيرات الدنيا والآخرة:

أ- إختصهم الله بمعيته: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٨.

ب- في سياق الفئة الثابتة مع طالوت يأتي الشئاء عليهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُ اللَّهِ كَرَّمَنَ فِتْنَةً قَلِيلَةً عَلَيَّتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهي معية خاصة تتضمن الحفاظ والرعاية والتأييد.

ج- محبة الله تعالى لهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاؤُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

د- إطلاق البشري لهم:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وكان عمر بن الخطاب يقرأها ويقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، ويعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى.

هـ- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، وتوفيتهم أجورهم بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ فَمَا مِنْ قُرْبَةٍ إِلَّا وَأَجْرُهَا بِتَقْدِيرٍ وَحِسَابٍ إِلَّا الصَّبْرَ، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر، قال الله في الحديث القدسي: الصوم لي وأنا أجزي به، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات^(١). وقال العلامة ابن القيم: الصبر نصف الإيمان^(٢)، فإن الإيمان نصف صبر ونصف شكر^(٣).

و- الحصول على درجة الإمامة في الدين، وقد نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين^(٤)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

(١) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣١٠/٤.

(٢) الصبر نصف الإيمان: روي مسنداً إلى عبد الله بن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»،

شعب الإيمان للبيهقي، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم، رقم ٤٧.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١١٥/٢.

(٤) المصدر السابق، ١١٥/٢.

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿[السجدة: ٢٤]﴾. وقرأ سفيان بن عيينة الآية فقال: أخذوا برأس الأمر - يعني الصبر - فجعلهم رؤساء^(١).

إن خلق الصبر وقيمه أصيلة في نشأة الحضارات الإنسانية، ولا يمكن أن ترتقي على المستوى المادي والمعنوي إلا بخلق الصبر على مستوى القيادة والأفراد والمجتمع، فمن ملامح ومعالم الحضارة الإنسانية الثانية خلق الصبر الذي تميز به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وربي عليه أتباعه.

٣- التقوى:

كان من صفات نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه تقيٌّ لله، وقد اهتم بدعوة قومه إلى توحيد الله عَزَّجَلَّ وإفراد العبودية لله عَزَّجَلَّ والحث على تقواه؛ لأن تقوى الله عَزَّجَلَّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التخلف عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله بلا رياء ولا تظاهر ولا ممارسة، فقد كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قوي العلم بالله عَزَّجَلَّ وأثر ذلك في صدق إيمانه وكمال توحيده وخشيته وتقواه لربه.

فكلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصاً له والعكس بالعكس، فقد قال نوح عليه الصلاة لقومه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَتَى اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، أي أعلم من أمر الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين^(٢).

(١) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، أحمد سليمان الرقب، ص ١٥٩.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٥٤ / ٣.

ومن تقوى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه شدة تعظيمه وخوفه من الله، وقد جاء ذلك في قصة نوح مع قومه في سورة هود كما مر معنا، حيث يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿ [هود: ٤٥-٤٧].

ويظهر من هذه الآيات عِلْمُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه عَزَّجَلَّ، الذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه، والخوف منه سبحانه، فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين، يختم دعاءه بقوله: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأسماء الله عَزَّجَلَّ وصفاته وأثارها؛ لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين، ولم يكن مع الناجين، ولذلك ختم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه بقوله: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربه، واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، الله أكبر، هذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أمضى مئات السنين في دعوة قومه، وصبر وصابر وناله من الأذى والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] (١).

وكان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عبداً متقياً لربه في كل ما يجب أن يتقى الله فيه، وهو اتقاء كل ما تفسد العقائد والأخلاق والعبادات والروابط العامة والخاصة، وكان على يقين من ربه بأن ﴿الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقد علم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أتباعه تقوى الله، وزكى نفوسهم بالتربية على هذا الخلق العظيم.

ومن ثمرات التقوى الهادية إلى بناء المعرفة والقوة، وحصول السيادة، والتمكين في الأرض:

أ- أن جعل للمتقين ملكة من العلم، وهداية ونوراً في قلوبهم، وفرقاً يفرقون به بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الطيب والخبيث، ومخرجاً لهم من الشبهات وتكفيراً للسيئات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ب- يجعل الله عز وجل للمتقين مخرجاً من كل شدة، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ولا يأملون، ويبارك لهم فيما آتاهم ويكفيهم ما أهمهم:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ج- للمتقين معية خاصة، فالله تعالى معهم بتأييده ومعونته وهدية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

د- يحصل بالتقوى الرخاء والخصب، فمن سنته تعالى في خلقه حين يتركون ما نهى الله عنه وحرمه، حصول الخصب والوفرة في الإنتاج، وسعة العيش بكثرة الأمطار التي هي سبب كل خير من زرع وضرع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هـ- المتاع الحسن للمتقين: ومن سنته تعالى تيسير سبل العيش الرغيد الهنيء، والحياة المريحة والنفسية المطمئنة لأهل الإيمان والتقوى، وإفاضة نعمه الحسية والمعنوية عليهم، وهذا المتاع الحسن هو ثمرة عبادتهم لله، وتقواهم له، واستغفارهم وتوبتهم إليه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۚ وَإِنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٢، ٣].

وهكذا فإن العاقبة الحسنة ثابتة للمتقين لا تفوتهم أبداً وفق سنة الله في خلقه، فقد صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه على: مشاق التكليف، وامثال الأوامر واجتناب النواهي^(١).

٤- مستغفر وتواب:

أخبر القرآن الكريم عن طلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ المغفرة من الله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي آعُودُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وطلب هذه المغفرة والرحمة من الله تعالى يوحي أنه صدر منه عَلَيْهِ السَّلَامُ مخالفة، وبعض العلماء يُجسد هذه المخالفة ويفتحها، والبعض الآخر يتلطف في عرضها^(٢)، وسأورد شبههم مقرونة بالرد عليها:

وفي هذا تحكم على الله، إذ قد يولد من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من هو مؤمن بالله سبحانه، وكان عليه أن يصبر على أذاهم ولا يدعو عليهم بالهلاك^(٣). وظل قلب نوح يرتجف من هذه الدعوة حتى أنه اعتذر عن الشفاعة من أهل الموقف يوم القيامة، كما ورد في صحيح البخاري وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ»^(٤)، الَّتِي أَصَابَ سَوَالَهُ ربه بغير علم.

ورد هذه الشبهة: أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقدم على الدعاء على قومه إلا بعد أن علم أنهم لن يؤمنوا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لبث فيهم مدة طويلة

(١) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، محمد أمحزون، ١/ ٣٩٨.

(٢) التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص ١٩٧.

(٣) تفسير الرازي، ١٨/ ٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَكَ﴾ [سورة ص: ٧٥]، رقم ٦٨٦١.

فخيرهم وخيرهم، وعرف طباعهم وجربها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولم يؤمن به إلا قليل، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ومن أجل هذا، حكم عليهم هذا الحكم^(١).

وأما عن دعاء نوح على أطفال هؤلاء الكفار وطلب العقم لنسائهم، فلا إشكال في دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَام عليهم لعدم وجود أطفال فيهم^(٢)، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وأما القول الثاني: فمن رأى أن الأطفال موجودون وقت دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَام ولا ذنب لهم حتى يقع عليهم الهلاك كما سيقع على آبائهم، فإن انضمامهم في العقوبة لآبائهم، في ذلك زيادة تعذيب لهم إذا أبصروا أطفالهم يعذبون، هذا القول غير مسلم به؛ لأن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام لم يدع عليهم إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فالله تعالى أطلعه على حال قومه، ومنهم هؤلاء الأطفال وإنهم سيكونون كافرين، وليس في دعاء نوح عليهم أي ذنب، وكلا القولين معقول، والله أجل وأعلم؛ لأن القول تؤيده الآية، إذ إن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام بحث قومه على الاستغفار الذي من نتائجه أن يرزقهم الله ما يفقدونه، وهم بحاجة إليه كإنزال الأمطار وحصولهم على الأموال والأولاد^(٣).

الشبهة الثانية: طلبه نجاة ولده الكافر:

إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي أُنَبِّئُ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، وقد ردَّ الله عليه بقوله: ﴿قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فيأخذ المعارضون من هذا أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كذب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه كان

(١) تفسير الألوسي، ٢٩/ ١٠٠.

(٢) تفسير القرطبي، ١٨/ ٣١٢.

(٣) التوبة في ضوء القرآن الكريم، د آمال بنت صالح نصير، ص ١٩٩.

يعلم أن زوجته وولده ممن سبق عليهما القول حيث هلكا مع الهالكين، فكيف يسأل ربه نجاة كافر^(١).

ويستدلون على أنه ارتكب ذنباً بأن الله تعالى زجره زجراً شديداً فقال: ﴿فَلَا سَعَتَيْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ثم إن تعوده عَلَيْهِ السَّلَامُ من سؤاله ربه ما لا علم له به إيذان بصدور الذنب عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ورد هذه الشبهة: كون نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، هذا لا يعدُّ ذنباً؛ وذلك لأنه إما أن يكون ظن أن أهله الذين وعدهم الله سبحانه بنجاتهم هم قرابته وعلى رأسهم ابنه، أو أن يكون حين رأى ابنه في معزل عن الكافرين فلربما ظن أن ابنه رجع عن الكفر، فرجا أن يكون هذا الاعتزال سبيلاً إلى دخوله في زمرة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

يقول صاحب كتاب المنار: يحتمل أن يكون عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظن أنه قد بدا له في كفره فكرهه وجنح للإيمان، ويحتمل أن يكون قد فهم أنه غير داخل في عموم قوله تعالى له: ﴿أَتَهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]؛ لأنه تعالى جعل الناجين قسمين: أهله إلا من استثنى، ومن آمن من قومه، فجاز في فهمه أن يؤمن من أهله من كان كافراً لأنهم قسيم من قومه لا قسم منهم، فالله عَزَّجَلَّ بين لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الأهل عنده تعالى في دينه وميزانه، ليسوا قرابة الدم، وإنما هم قرابة العقيدة، وأما كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سأل وزجر عن ذلك: فلأن الله تعالى أراد أن يعرفه أنه يسأل فيما ليس له به علم صحيح^(٢)، ويقول: أي فلا تسألني في شيء ما، من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب^(٣).

(١) عصمة الأنبياء، محمد عمر الرازي، ص ٢٣.

(٢) التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح نصير، ص ٢٠١.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٩٧٥ م، ١٢ / ٨٥.

وكان الأولى به عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا يسأل هذا السؤال بعد هذا الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقد علم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه ما دام قد أغرق ولده فهو ليس من أهله، وإلا فإن الله لا يخلف وعده، وكان عليه أن يعلم أن أهله هم المؤمنون بعد أن تبين له نجاة المؤمنين^(١).

إن عذر سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه اندفع إلى هذا السؤال بدافع الشفقة وعاطفة الأبوة، فأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلمه درساً في الموالاتة، وأنها لا تكون إلا للمؤمنين، ولا موالاتة للكافرين، وهذا معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، إني أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أول وتحقق ونجا من أهلك الذين هم أهلك على التحقيق^(٢).

وهذا هو الأنسب بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي ذلك يقول الإمام ابن حزم: وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة، وهذا لو فعله أحدٌ لكان مأجوراً، ولم يسأل نوح تخلص من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع عن ذلك نهى أن يكون من الجاهلين، فتندم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك ونزع، وليس هاهنا عمد للمعصية البتة والله أعلم^(٣).

وأما عن استغفار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلبه الرحمة من الله تعالى، فإن ذلك لشعوره بعظم قدر الله تعالى وعلو مقامه الكريم وأنه قد خالف الأولى والأفضل^(٤) وهو عدم السؤال، فعد ذلك خطأ منه، فسارع إلى الله تعالى بالاستغفار، والذي يدل على أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرتكب ذنباً

(١) التوبة في ضوء القرآن الكريم، نصير، ص ٢٠١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ٤ / ١٨٨٠.

(٣) الفصل بين الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٦ م، ابن حزم، ٦ / ٤.

(٤) تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علاء الدين علي بن محمد البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٥٧ / ٧. وانظر: التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٠٢.

أنه جاء على لسان قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، ولم يقل: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، وذلك للمبالغة في تأكيد أسفه وندمه على هذا السؤال الذي بدر منه ^(١).

إن في استغفار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلبه الرحمة من الله لفتاً للأنظار إلى ما كان عليه من العبودية والتذلل لله تعالى، وأنه بلغ منتهاه في ذلك، إذ لمجرد مخالفته للأولى ارتعش فؤاده ووجل قلبه خوفاً من أن يكون بذلك قد أغضب المولى جَلَّ وَعَلَا، فسارع يتذلل ويخضع منادياً: ﴿اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

كما ألمس من تكرار هذا الطلب، وإلحاحه عَلَيْهِ السَّلَامُ في قبوله اعتذاره أنه إذا كان هذا هو حال نبي الله الذي اصطفاه الله تعالى لرسالته، فالأجدر بأهل الذنوب والمعاصي المسارعة واللجوء إلى الله تعالى والإلحاح عليه في الطلب لما يقع منهم من أخطاء مقصودة وغير مقصودة، كي يظفروا بقبول توبتهم وعفو الله عنهم.

وألح في توبة نوح استعماله للفظ الربّ، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي آعُذُ بِكَ﴾ [هود: ٤٧]، وبدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة فيها، وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى وهذا أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك، لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالاستجارة بالله تعالى، ثم ختم اعتذاره برجائه لله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف، وإلا سيكون من الذين خسروا أعمالهم ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [هود: ٤٧] ^(٢).

دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الله عَزَّجَلَّ وسأله المغفرة والرحمة، ومن أسماء الله الحسنى الغفور الرحيم، ولها آثارها على الأفراد والأمم والشعوب والأكوان والمخلوقات:

(١) التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٠٢.

(٢) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، عبد الهادي الشمراني، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٦، ص ١٣٩.

أ- ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي﴾ [هود: ٤٧]: طلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ المغفرة من الغفار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الساتر لذنوب عباده والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم^(١).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أسمائه الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب^(٢). ومن آثار الإيمان بأسمائه سبحانه: الغفور، الغفار، غافر الذنب:

- محبة الله عَزَّجَلَّ وحمده وشكره على رحمته لعباده، وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يثمر في قلب المؤمن توقي معاصي الله تعالى قدر الطاقة، وإذا زلت القدم ووقع المؤمن في الذنب، فإنه يتذكر اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغفور الغفار، فيسري الرجاء في قلبه ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى ويحسن الظن بربه الذي يغفر الذنوب جميعاً^(٣).

- سؤال الله عَزَّجَلَّ بهذا الاسم الكريم مغفرة الذنوب ووقاية شرها؛ لأنه وحده الذي يملك غفران الذنوب ولا يملك ذلك أحد سواه، وما أكثر الأحاديث التي تحت على أفضلية الاستغفار، وما أكثر الأدعية النبوية التي فيها الاستغفار، ومن أشهرها سيد الاستغفار المذكور والذي منه: ... «وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٤).

ولما سأل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء يدعو به في صلاته قال: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٥).

إن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من المستغفرين والتائبين إلى الله، وعلم أتباعه كيفية الاستغفار الذي يجعل من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه الله لزام ذلك من حيث لا يحتسب.

(١) تفسير الأسماء، الخطابي، ص ٣٨.

(٢) الحق الواضح المبين، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح، ص ٧٣.

(٣) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص ٥٧٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب أَفْضَلِ الاسْتِغْفَارِ، رقم ٥٨٣١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم ٧٩٠؛ وصحيح مسلم رقم ٤٨٧٦.

ب- ﴿وَتَرَحَّمْنِي﴾ [هود: ٤٧]: طلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الرحمة من الرحمن الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وآثار رحمة الله عَزَّجَلَّ قد وسعت كل شيء، فكما أن علم الله عَزَّجَلَّ قد وسع كل شيء ولم يخف عليه أي شيء، فكَذَلِكَ رحمته سبحانه قد بلغت كل شيء بِلُغَةِ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فقد عرف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كيفية استمطار رحمة الله عليه بدعائه وانكساره بين يدي مولاه، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ من آثار رحمة الله على خلقه، ورحم الله به البشرية وحفظ ذريتهم في الفلك المشحون.

ومن أعظم آثار رحمة الله سبحانه إرساله الرسل، وإنزاله الكتب هداية للناس، وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، فالرسل رحمة من عند الله عَزَّجَلَّ لعباده؛ لتعريفهم ببرهم سبحانه، وأسمائه، وصفاته، وكيفية عبادته لينقلهم برحمته من الجهالة إلى العلم، ومن الغي إلى الرشd، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة، فسبحان الله أرحم الراحمين^(١).

ومن أعطى اسم الرحمن حقّه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمينه إنزال الغيث وإنبات الكلاً وإخراج الحبّ، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، ولكن المحجوبين إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك^(٢).

وقد تجلت رحمة الله عَزَّجَلَّ في رحمته الخاصة بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بتوفيقه وتسديده، وحفظه وتيسير أموره، وإجابة دعائه ونصره على أعدائه الكافرين وتمكينه في الأرض، وإغاثته وكشف الكروب عنه، وتسهيل أموره لقيادة الحضارة الإنسانية الثانية، حضارة السلام والبركات^(٣).

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩.

٥- الدعاء:

كان من صفات نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كثرة الدعاء لربه، وقد بَيَّنَّتها في مواضعها القرآنية، ومن دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية:

- ﴿نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الشعراء: ١١٧، ١١٨].

- وطلب من الله أن يمدّه بالنصر على قومه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

- وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

- وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[هود: ٤٧].

- وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

- وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ

إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

إنَّ من أسباب النعيم والرخاء، ودفع الشدة والبلاء: التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بذلك؛ لأنه أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة ووعدده حق، يقول تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُهُ بتوجيه رغائبنا إليه والتعويل عليه، وكفل لنا الإجابة بإعطائنا ما نريد فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه^(١).

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، مكتبة الرشد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى،

وفي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام يظهر تعلقه بدعاء ربه عَزَّوَجَلَّ، حيث كان الدعاء من أهم الأسلحة التي استخدمها نوح عَلَيْهِ السَّلَام لتحقيق نصر الله عَزَّوَجَلَّ، فقد لجأ إلى الله واحتتمى بحماه ولم يركن إلى الأسباب وحدها، فتوجه إلى الله بالدعاء لعلمه أن الدعاء أهم أسلحة النصر، وسجل لنا القرآن الكريم صيغ الدعاء التي دعا بها نوح عَلَيْهِ السَّلَام وكيف أن الله استجاب له^(١).

٦- العبودية:

من صفات نوح عَلَيْهِ السَّلَام أنه كان عابداً لله، ومحققاً معنى العبودية لله في أعلى درجاتها:

- قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْذُوءٌ وَازْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٩].

- وقال تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١].

- وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٤٠].

ومظاهر العبودية عند نوح عَلَيْهِ السَّلَام بادية ظاهرة، ومن ثمراتها:

أ- الشكر الجزيل: فنوح عَلَيْهِ السَّلَام ترقى إلى مقام العبد الشكور ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

ب- كثرة السجود والبكاء من خشية الله: ويظهر هذا في سياق الآية الكريمة:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَٰئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

ج- دوام الدعاء واستمراره (صاحب دعوة مستجابة):

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

(١) في صحبة الرسل الكرام، السيد عبد المقصود عسكر، دار البشير، طنطا، مصر، ط ١ ٢٠٠٠م، ص ٤٨.

د- التوكل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَاتٍ
اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

هـ- التجرد وتفويض الأمر إلى الله تعالى:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، وقال
تعالى: ﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاثِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ
أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]

و- العبد الذاكر: ﴿وَقَالَ أَزْكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنْ رِئِ لَعَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾

[هود: ٤١].

ز- اليقين: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾
[هود: ٣٨، ٣٩]

ح- المبادرة إلى التوبة والاستغفار:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ
الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

الإيمان والإحسان: هما من مراتب الترقى، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩-٨١].

ط - الإخلاص:

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٣، ٧٤].

ي - الصلاح (العبد الصالح):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمْرَأَتٍ نُّوحٍ وَأُمْرَأَتٍ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحریم: ١٠].

ك - الابتلاء:

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، ابتلي في أقرب الناس إليه.

٧ - العلم:

- قال تعالى: ﴿قَالَ يَقُومُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

٨ - العفة:

- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

- ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يونس: ٧٢].

- ﴿وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩].

٩ - الأمانة:

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

١٠ - الثبات:

- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤].

- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنَّ آيَاتِي لَتُفَسِّحُنَّ ۖ وَيَقْوَمُ مَنْ يَصْرِفُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠، ٢٩].

١١ - بر الوالدين:

- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]. وغير ذلك من الصفات والأخلاق الكريمة والقيم الرفيعة.

وتتضح شخصية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال صفاته وأخلاقه وسيرته فمن معالمها:

- العبودية لله: ومن ثمراتها: الشكر الجزيل لله وكثرة السجود والبكاء ودوام الدعاء والتوكل والتجرد واليقين والذكر والتوبة والاستغفار والإيمان والإحسان والإخلاص والصلاح والابتلاء.

- العلم: من ثمراته: الوضوح وقوة الحجة، وسلامة الطريق وصفاء المنهج، والقناعة العقلية والمنطقية والوجدانية.

- العفة والأمانة والثبات: من ثمراته: حبُّ المؤمنين والحرص على فقرائهم وضعفائهم.

- بر الوالدين والصبر الجميل^(١): لا شك أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ غرس هذه الصفات والأخلاق في أتباعه، وساهمت في نهضة الإنسانية في دورتها الحضارية الثانية بعد الطوفان العظيم.

﴿خامساً: فقه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعامل مع السنن الربانية﴾

إنَّ قيادة الحضارات، وتربية الناس، والنهوض بها، يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمل في سيرة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله العظيم.

(١) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٢٨، ١٣٢.

وإنَّ السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، كما أنها جارية على الإنسان في كل زمان ومكان وهي كثيرة جداً.

إنَّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها واستخراج العبر منها، والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

وحينما يوجَّه القرآن الكريم أنظار الناس إلى سنن الله تعالى في الأرض وفي حركة التاريخ وسير المرسلين، فهو بذلك يرددهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب والأمم والدول والأفراد، جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، والأمور لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السنن وأدركوا مغازيها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة من وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين؛ لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه، والسنن التي تحكم الحياة واحدة، فما وقع منها في زمان مضى، سيقع في كل زمان^(١).

إنَّ أول شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبّر عنه بـ "فقه السنن"، ونستنبط منها على ضوء فقها لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية^(٢).

إنَّ حركة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو توحيد الله عَزَّجَلَّ، وإفراده بالعبادة، والحثُّ على تقواه، وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، والتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته، وقصته:

(١) في ظلال القرآن، السيد قطب، ١/ ٤٧٨.

(٢) المشروع الحضاري لنهضة الأمة، ص ٥٨.

- أهمية القيادة في صناعة الحضارة.

- أهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافتها.

- أهمية الوحي الذي يبين المنهج الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات.

- أهمية سنة التدرج وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن المهمة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

وقد اتضح في سيرة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ منطلق هذه السُّنَّة بما أن الطريق طويل، فقد سار باتزان وتريثٍ وصبرٍ عظيم، وأوغل فيها برفق نحو الأهداف المرسومة، من ترفق بالناس واختيار المؤمنين بدعوته، ومقاومة خصومه، ثم مرحلة النصر والتمكين بعد الطوفان العظيم.

لقد تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة التدرج بحكمة وذكاء وبُعد نظر، ورعى هذه السنة في سياسة الناس وتربية الجيل المؤمن، الذي حمل عبء الحضارة الإنسانية الثانية في منطلقاتها الروحية والعقلية والمنطقية والوجدانية. ومن أهم السنن التي تعامل معها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد سنة التدرج:

١ - سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بوضوح وصدق وإخلاص، فقد قاد التغيير بمنهج الله ووحيه، وبدأ بالنفس البشرية، وصنع من القلة التي آمنت به عظماء في صناعة الحضارة من بعد الطوفان، وأحدث بهم تغييراً في شكل المجتمع ومفاهيمه وأخلاقه وقيمه، ونقل الناس الذين آمنوا به من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم حضارة إنسانية ثانية رائعة، حضارة السلام والبركات.

لقد قام نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بما أوحى الله إليه بتغيير العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ما حولهم في دنيا الناس فتم تعريفهم وتربيتهم على التوحيد، وهو الأساس الذي قام عليه البناء في الحضارة الإنسانية الثانية، وقد آتت تربيته المباركة ثمارها، فتطهر أتباعه الذين نجوا معه مما يضاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا في مجتمعهم الجديد إلا إلى شريعة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي نزلت من عند الله عَزَّجَلَّ، ولم يطيعوا غير الله ولم يتبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا لله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يركعوا إلا لله أو يسجدوا... إلخ، وآمنوا باليوم الآخر واستعدوا له غاية الاستعداد من خلال مفهوم التوحيد والعبادة وعمارة الأرض وخلافتها.

وآمنوا بقضاء الله وقدره، وأن العاقبة للمتقين، وآمنوا بأركان الإيمان التي دعا إليها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يقتصر في تربيته لهم على تعليمهم أركان الإيمان، بل صحح عندهم كثيراً من المفاهيم والتصورات والاعتقادات عن الإنسان والحياة والكون والعلاقة بينهما؛ ليسيروا على نور من الله، ويدركوا هدف وجودهم في الحياة، ويحققوا ما أراد الله منهم غاية التحقيق، ويتحرروا من الوهم والخرافات، فاتضح تصورهم عن:

- قصة آدم والحضارة الإنسانية الأولى وعداوة الشيطان لآدم وبنيه.

- أهمية العبادة والأخلاق لبني الإنسان والمجتمع الجديد.

- أهمية أعمال العقل في الآفاق والأنفس والكون واكتشاف سنن الله فيه والدلالة على الله وغير ذلك من الأمور المتعلقة بسنة الله في تغيير النفوس، لقيمة الإيمان بالله وتوحيده وما يفتح الله لعبده من خلال إيمانه به من آفاق وعوالم عقلية وروحية وفطرية ووجدانية ونفسية... يرتقي بها لتحقيق العبادة القولية والوجدانية والعملية لخالقنا العظيم سبحانه تعالى.

إنَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بدأ بالتغيير الداخلي للأُنفس، وذلك من خلال الدعوة إلى الإيمان بالله عَزَّجَلَّ وتوحيده، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتنشئة الأفراد والأبناء على سيرة محكمة

من الدرجة الأولى، وهو الذي يطبع الأفراد على الصدق والإخلاص والأمانة والعفاف ومحاسبة النفس، وضبط نوازعها، وإيثار الحق، وسعة النظر والقلب، وعلو الهمة، والكرم والسخاء والتضحية، والتواضع، والشعور بالواجب، والاستقامة والشجاعة، والبسالة والقناعة والاستغناء وعاطفة السمع والطاعة، واتباع القانون، ويؤهلهم لأن يبرز بهم إلى حيز الوجود أحسن مجتمع وأطهره^(١).

إن الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قامت على توحيد الله واتباع شرعه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، فبين لأتباعه من خلال عقيدة التوحيد حقيقة الوجود، ورسم غاية الحياة التي بنى عليها الحضارة الإنسانية الثانية التي خضعت لمفاهيم وتصورات وأفكار وقيم ومبادئ مرجعيتها الإيمان بالله وتوحيده، فجوهر الحضارة الإنسانية الثانية هو التوحيد الذي أعطاه هويته الربانية في تأسيسها، وربط بين أجزائها التشريعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والشخصية ببعدها الإنساني والإيماني، وجمعت بين البعد الروحي والمادي في انطلاقها الجديدة بعد الطوفان العظيم.

وكان لقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعامل مع سنة الله في تغيير النفوس الدور الأكبر من خلال الجهد الكثير والعمل المثابر الذي قام به مع أتباعه الذين يعتبرون النواة الصلبة المؤثرة في المشهد الحضاري الجديد، وتكونت منهم الشعوب والمجتمعات والأمم البشرية فيما بعد.

٢- سنة الله في الابتلاء:

في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ألوان من الابتلاء له، ولقومه، ولأبنائه القادمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [المؤمنون: ٣٠]: المشار إليه بلفظ "ذلك" كل قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقومه التي ذكر منها هذا النص من سورة المؤمنون، وقد أكدت الآية الكريمة في قصة نوح ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

(١) الحضارة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، ص ٢٩٠ - ٢٩١.

إن في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه آيات عديدة دالات على طائفة من صفات الرب الخالق وحكمته في امتحان خلقه وحكمته في مجازاتهم بالعدل والفضل، فالكافرون الظالمون المجرمون لهم الجزاء بالعدل، والمؤمنون المتقون والأبرار والمحسنون لهم الجزاء العظيم بالفضل، والآية هي العلامة ذات الدلالة على أمر من الأمور سواء كانت مرئية أو محسوسة بأية حاسة أخرى من الحواس الظاهرة أو الباطنة، وقد يُتوصل إلى إدراك الأمر الذي دلت عليه الآية عن طريق اللوازم الفكرية أو الاستنباط العقلي، أو دقائق الدلالات اللغوية في الكلمات والجمل، وصور تراكيب مفردات الجمل وتنظيم وتصنيف الجمل في عموم النص.

ونستطيع أن نستنبط من الآيات التي اشتملت عليها فقرات هذه القصة التي عرضتها سورة المؤمنون ما يأتي:

- إرسال الله نوحاً إلى قومه هو إحدى سنن الله في البشر، فما من أمة انحرفت عن شريعة الله ومنهجه، وانمحت من ذاكرتها تعاليم الدين الرباني الصحيحة، ولم يبق لديها إلا تحريفات وتخريفات وضلالات، إلا بعث الله لها نبياً رسولاً بشيراً ونذيراً يبلغها عن دين الله، وشرائعه ومنهاجه ويدعوها إلى الإيمان والعمل الصالح ويبين لها مسؤوليتها في الحياة الدنيا، وأن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يبعث الناس إليها بعد الموت والفناء للحساب والجزاء.

- عبادة الله وحده لا شريك له، بعد الإيمان به واحداً في ربوبيته، واحداً في ألوهيته، هي من أعظم المطالب الدينية التي على الإنسان أن يؤديها؛ ليجتاز رحلة امتحانه بنجاح بعده، لأن يكون من أصحاب جنات النعيم^(١).

- عقاب الله، وعذابه هو الأمر الذي أعده الله لمن كفر به جاحداً له أو مشركاً به، ولمن عصاه فاستكبر عن عبادته، كل بحسبه.

- من الظواهر البشرية، أن رؤساء الأقوام وقادتهم يتعللون ببشرية الرسل، لرفض دعواتهم، ويتهمونهم أيضاً بأنهم طلاب رئاسة وزعامة على أقوامهم، لذلك فهم يدعون

(١) نوح وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨٦.

لتغيير ما عليه أقوامهم من عقائد ومفاهيم وعادات، ليكونوا هم أئمتهم فيما يقدمونه لهم من جديد باسم الدين، الذين يدعون أنهم رسل الله فيه، ويتهمونهم أيضاً بالجنون لصدد جماهير قومهم عنهم، ويجادلون بغير ذلك.

- من الظواهر البشرية أن يفرض أكثر الناس آراءهم الخاصة على حكمة الله، ومن ذلك مطالبتهم بأن يكون الرسل إلى البشر من البشر أنفسهم.

- من سنة الله في عباده أن ينصر رسله وأن ينزل نقمته بالظالمين من أقوامهم.

- أن المؤمنين مطالبون بأن يذكروا الله عند كل مناسبة، مستعينين به، وحامدين له، وداعين في كل مناسبة بحسبها.

- أن ظروف الحياة الدنيا هي ظروف امتحان لكل مستوفٍ لشروط الامتحان من الناس فيها، فالرسل مبتلون، وأنواع الابتلاء مختلفة، منها ابتلاء بالتكاليف، ومنها ابتلاء بالنعم، ومنها ابتلاء بالمصائب، ومنها ابتلاء الناس بعضهم ببعض.

- من الآيات ما في القصة من عظات، وعلى الذين كفروا أن يتعظوا بها، ويعتبروا بما جرى لمن قبلهم من الكافرين والظالمين من عقاب رباني، وأن يستدلوا من ذلك على أن الرب الذي أوعد بالعقاب المعجل ثم نفذه سيحقق يوم القيامة عقابه المؤجل الذي أوعد به.

- من الآيات ما في القصة من تطمين للرسل والمؤمنين أن الله معهم وناصرهم إذا صدقوا وصبروا، وأن الله لا بد أن يحقق وعده لهم في الدنيا والآخرة، كلما حققوا في أنفسهم الشروط المطلوبة منهم.

- من الآيات ما دلَّ على أن من حكمة الله أنه متى أمسى القوم قوم فساد عام غير قابل للإصلاح بمقتضى مؤثرات البيئة وضغوطها التي لا تسمح بأن يندَّ عنها مستقيمون صالحون، كان إهلاكهم إهلاكاً عاماً شاملاً باستثناء المؤمنين، أمراً لا مناص منه^(١).

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

- ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]: الابتلاء هو الامتحان والاختبار؛ لإظهار ما في النفوس والضمائر من عمل إرادي، إيمان أو كفر، طاعة أو معصية، فضائل أو رذائل، خير أو شر.
- وجاء التعبير بضمير العظمة ﴿كُنَّا﴾ [المؤمنون: ٣٠]، وبصيغة الجمع ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]؛ لأن الموقف الذي يجري التعبير عنه هو موقف عظمة وجلال، يفرضه سلطان الرب الخالق، المبتلي لكل عباده، وفي مقدمتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام^(١).
- ويفيد تأكيد الجملة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠] أي: وإننا لمبتلون، وفعل الكون هنا للدلالة على السنة الدائمة الثابتة مع الزمن في الماضي والحاضر والاستقبال^(٢).
- والابتلاء ألوان: ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص، وابتلاء للتقويم،... إلخ^(٣). ومن ابتلاءات نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الآتي:
- ابتلاؤه بقومه الذين لم يهتدوا ولم يؤمنوا به وبرسالته إليهم وتكذيبهم له.
- ابتلاؤه بابنه فهو عمل غير صالح لأسباب لا يعلمها يقيناً إلا هو جَلَّ جَلَالُهُ.
- ابتلاؤه بزوجه وعدم إيمانها به.
- سخرية قومه منه: السخرية استهزاء بمن يستوجب احترامه، ويقصد من ورائها التقليل من شأن المستهزأ به، وهذا المستهزأ به هو من ينال رضا الله عَزَّجَلَّ وينال التقدير والاعتراف من الصادقين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين^(٤).
- إِنَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرض لسنة الابتلاء، وأصبح نموذجاً يقتدي به المبتلون على مر العصور والدهور وتوالي الأزمان في تحمل الشدائد والمصائب في سبيل الحق.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٣) في ظلال القرآن، السيد قطب، ٤/ ٢٤٦٦.

(٤) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من وحي القرآن، عقيل، ص ١٣٣.

ومن الآيات المحكمات التي تكشف عن هذه السنة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فهذه الآية الكريمة تستنكر على المخاطبين بها أن يكونوا طامعين في الاستثناء من سنن التاريخ، وأن بإمكانهم تحقيق النصر دون أن يصيبهم ما أصاب السابقين قبلهم، إذ يخبر سبحانه وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنة جارية لا تتغير ولا تتبدل، وإن من يحمل لواء دينه وشرعه لا بد له أن يتلى، فليس الإيمان بالتحلي والتبني ومجرد الدعاوى، بل لا بد أن تصدقه الأفعال أو تكذبه، إنها سنة مضت في الأولين، جارية في الآخرين^(١).

٣- سنة الله في الأخذ بالأسباب:

تعامل نوح عليه السلام بسنة الأخذ بالأسباب؛ لنشر دعوته والتمكين لدينه، ويظهر ذلك في أمور عديدة:

أ- في أسلوب الدعوة:

مرة بالليل ومرة بالنهار، وأخرى بالسرّ وأخرى بالعلن، واستخدم خطاب العقل والمنطق والوجدان، واستطاع نوح عليه السلام أن يقنع بعض الأشخاص بسمو دعوته، وقدسيتها وصدقها وتحقيق ما ينفعهم في الدارين.

ب- اهتمامه بمن آمن معه:

﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فقد عمل نوح عليه السلام على تكوين لحمة واحدة منهم، وأن تكون قوّة متماسكة ينصهر بعضها في بعض، فتشكل النواة القلبية وتحمل معها تكاليف الرسالة، ويحرص كل منهم على الآخر، وقام نوح عليه السلام بنصحهم وإرشادهم وتهذيبهم وتربيتهم، فكانوا نعم العون له في مناصرة دعوته، وكان هذا القليل الذي نجح

(١) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ١/ ١٩٦.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في إقناعه بالدعوة والذي آمن بها ينفذ أوامر الله بدون تردد، فقد شكل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قاعدة صلبة من هؤلاء المؤمنين وعاشوا معه المحنة والمنحة، والبلاء والعطاء، وحققوا أصولاً جامعة لقضية السننية في القلة منها:

- أنهم السابقون إلى الإيمان بالله وتوحيده والصابرون على ابتلاءاته.
- أنهم الثابتون في الأزمات والاختبار.
- أنهم يختارون بعد ابتلاء واختبار.
- أنهم الناصرون للحق ودعوة التوحيد.
- أنهم المستغفرون لله الشاكرون له قولاً وعملاً.
- أنهم على مستوى فقهى وعلمى وإنساني يؤهلهم للمساهمة في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية.
- أنهم على معرفة بالسنن والنواميس الجارية والخارقة في الحياء والأحياء، تعلموها من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- أنهم الراضون بعطاء الله وقضائه.
- أنهم عادلون في الشركة لا ييغون في الخلطة.
- أنهم خلاصة زمانهم وبقية جيلهم.
- أنهم المنصرون المؤيدون.
- أنهم أصحاب العزم
- شدة صلتهم بالله، أمورهم تبدأ باسم الله وكثيري الحمد لله والدعاء له.
- أنهم أقدر الناس على الثبات والسمع والطاعة لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- لا يحتنكهم الشيطان^(١).

تلك بعض الأصول الجامعة التي وصف بها أتباع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين أسهموا في تأسيس حضارة السلام والبركات مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ج- صناعة الفلك:

ومن فقه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سنة الأخذ بالأسباب، شروعه في صناعة السفينة بأمر ربّه، وقد خضع مشروع الصناعة لخطة عمل وهندسة بناء وتحديد مواد وطريقة تنفيذ، وأيد عاملة مساعدة تتحمل سخرية قومه الذين كانوا يمثلون الكثرة والغلبة ما قبل الطوفان ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ﴾ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿هود: ٣٨، ٣٩﴾.

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهد، وكان يستعيز بالله من الهم والحزن والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»^(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفَرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ»^(٣).

وما غزوات الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المظفرة إلا مظهراً من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش وبعث الطلائع والعيون، وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على جبل الرماة، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر بنفسه، واتخذ أسباب الحيطة

(١) سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس، نقل بالتصرف، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) سنن الترمذي، رقم ٢٤٤١، وابن حبان، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل، رقم ٧٣٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الجذام

في هجرته، وأعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه، وغير الطريق واختبأ في الغار^(١)، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد وهو سيد المتوكلين^(٢).

إنَّ قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي قام عليها نظام الكون من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وسرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط^(٣).

إنَّ قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ تعلمنا الأخذ بالأسباب والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد خاصة بالمواقع الصعبة التي تواجه الأفراد والشعوب والأمم، وقد جعل الله نجاة نوح ومن آمن معه بصناعة السفينة وبإتقان علم صناعة السفن وقوانينها في البحار، وكان لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه همة وعزيمة في استيعاب العلوم الربانية التي ساعدتهم على إنتاج هذا الصرح الحضاري الكبير.

د- بذور الحضارة الإنسانية الثانية:

حَمَل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سفينة الحياة من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة في ذلك الزمان والميسرة كذلك لبني الإنسان ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فجاءت ﴿قُلْنَا﴾ [هود: ٤٠] بنون العظيمة، ولا ريب أنَّ الحادث جلل وضخم وعظيم، فناسب نون العظيمة.

لقد أخذ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بتوجيه الله تعالى له وحمل من كل زوجين اثنين معه، وكان ذلك سبباً في انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية وازدهارها.

ويظهر لنا تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بسنة الأخذ بالأسباب في أمور كثيرة من أهمها:

(١) عقيدة التوحيد، سعاد ميسر، ص ٢١٢، وانظر: الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، ط ٤، ٢٠١٤م، ص ١٦٤.

(٢) الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، ص ١٦٤.

(٣) الإيمان بالقدر، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م، ص ١٦٥.

- أسلوبه في الدعوة إلى الله.

- اهتمامه بمن آمن معه.

- صناعة السفينة.

- حمله لبذور الحضارة الإنسانية في السفينة.

٤- سنة الله في التدافع في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام:

تعامل رسول الله ونبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَام مع سنة التدافع بكل عزيمة وإيمان، وقد ظهرت بينه وبين قومه جلية واضحة، وكان من أسباب التدافع بينه وبين خصومه الذين كفروا أمور منها:

- كونه بشراً مثلهم وليس ملكاً، قال تعالى: ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ورد عليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَام من أن البشرية لا تمنع من تلقي الوحي والاصطفاء من الله العليم الحكيم.

- إتهامهم له بالضلالة والسفه، قال تعالى: ﴿قَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

دافع نوح عَلَيْهِ السَّلَام بنفي ما وصف به من الضلال المبين، بما قصه الله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]. ناداهم بإضافتهم إليه ﴿يَقَوْمُ﴾ [الأعراف: ٦١]. استماله لهم^(١). وذكر لهم أنه رسول من رب العالمين، ووصف نفسه بأربع صفات^(٢):

- الأولى: أنه صاحب رسالة ورسول مرسل من رب العالمين.

(١) فقه السنن الإلهية، وفاء محمد سعيد طيب، دار الأمة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ١٨٥.

(٢) الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، عادل صالح أبو العلا، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ، فرع الكتاب والسنة.

- الثانية: أنه بلغ عن الله ما فيه هدايتهم ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٢] أي: أبلغكم ما أرسلت به من الأوامر والنواهي في العبادات والمعاملات.

- الثالثة: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقد عبر بالفعل المضارع، ليدل على عظيم صبره على قومه كلما جددوا عناداً جدد لهم نصحاً.

- الرابعة: أنه خَصَّ من بينهم بإحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها، قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

- كبر الملاء واستعلاؤهم: قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَتْ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يَنْصَلُوا﴾ [هود: ٢٧]، علل الملاء من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ امتناعهم عن اتباعه؛ بسبب متابعة ضعفائهم له الذين سموهم بالأراذل أي: الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا مال، وسبب ذلك البر الذي جعلهم يقبلون الحقائق، ويأنفون عن الحق بحجة أن الأراذل اتبعوه، وفي الحقيقة أن اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، وأن الأراذل هم المعاندون المخالفون للحق ولو كانوا في أعين الناس من الأشراف.

- دعواهم أن ما جاء به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يسمعوا به في آبائهم الأولين: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

- هذا القول إما أن يكون صدر عنهم أول الدعوة في الذين مضوا قبلهم على عبادة الأصنام، أو أنهم كانوا يعلمون أن آباءهم الأولين بين آدم ونوح كان أكثرهم موحدين، لكنهم جحدوا ذلك تكذيباً وعناداً، فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين^(١).

- تكذيبهم نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه من المؤمنين: قال تعالى في ذكر صراعهم لنوح ومن اتبعه: ﴿بَلْ نُنَبِّئُكَ كَذِيبٌ﴾ [هود: ٢٧]، فأساس صراعهم وصددهم عن دعوة نبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

ظنهم أنه كاذب، وهذا في تصورهم سبب كاف لرفض متابعتة ومن آمن معه، ورغم طول الفترة التي دعاهم فيها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بكل الوسائل لم يؤمن إلا قليل^(١).

وقد تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة التدافع بموضوعية واتزان، حقق من خلاله ما كان يرجو إليه من رضا ربِّهِ عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالتدافع والصراع في عالم الأفكار والعقائد والثقافات والسياسة والاقتصاد... إلخ هو سبيل الحيوية والنمو، وعلامة الحياة والاستمرار، وهو أحد محركات الحياة^(٢).

وكانت العبرة في قصة نوح في سنة التدافع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضلال في انتصار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه لأنه:

- لن يقف شيء أمام قدرة الله العظيمة وإرادته النافذة، فهذا الطوفان دمر كل من كفر بالله ممن كذب نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- إن الله تعالى يجازي الناس في الدنيا والآخرة بأعمالهم الصالحة، وإيمانهم الراسخ، وتقواهم لا بأنسابهم وأحسابهم، وأشكالهم، وألوانهم، إذ لا علاقة للصالح بالوراثة والأنساب، ولا الأشكال ولا الألوان، ولا محابة لأحد في ميزان الحساب، فهذا ابن نوح وزوجه كانا من الهالكين، وهما من أقرب الناس لرسول الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- أهم ما ينتظره الناجون من بلاء عظيم، هو الحصول على الأمن والأمان، والاستقرار والسكينة.

- الإخبار عن قصة نوح وغيره من الأنبياء لا يعرفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا قومه، وهو إعجاز للقرآن وتصدیق لرسالته وتثبيت له^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٢) السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، جمال نصار، ط ١، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، إسطنبول، دار الأصول العلمية، ص ٣٥-٣٦.

(٣) القصة القرآنية هداية وبيان، وهبة الزحيلي، دار الخير، دمشق، ط ١، ١٩٩٢ م، ص ٤٨.

- إن الناس إذا غلب عليهم الجهل استغلتهم الشياطين، وزينت لهم عبادة غير الله، فعبدوا الأصنام والأوثان، وقبور الصالحين.

- الصبر على الدعوة والاستمرار فيها، ولو لم يستجب لها، ولم يقبلها إلا القليل من المدعوين^(١).

٥- سنة الله في النصر والتمكين:

- قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

- وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

- وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣].

إن هذه الآيات، وأمثالها تشير إلى نصر الله، وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة، ويتحملون المشاق في سبيلها، سواء كان الداعية رسولاً كريماً أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة^(٢)، كما أن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها:

أ- تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم، كأصحاب القرية التي جاءها المرسلون، وأصحاب الأخدود.

ب- المشاركة في الحكم، كالتمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحكم لمصر بعد ما مكثه الملك في ذلك.

ج- وصول أهل التوحيد إلى سدة الحكم، وتوليهم لمقاليذ الدولة، كالتمكين لداود وسليمان والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة.

(١) قصص المرسلين في كلام رب العالمين، أبو بكر الجزائري، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ، ص ٨.

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٩م، ص ٢٣.

د- نصر الله لأولياؤه، والتمكين لهم بهلاك الكفار، ونجاة المؤمنين، كقصّة نوح وهلاك قومه المستكبرين الكافرين.

إنَّ التمكين الفعلي، والانتصار العظيم، والإعزاز الكريم عندما تمكَّن منهج رب العالمين من نفوس أهل الإيمان، وإن كانوا قلة، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين، والمستجيبين للحق، وإنما في صفاء المنهج الرباني الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء قلة أم كثرة، فقد مكَّن الله لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن به على وجه الأرض لأنهم حققوا شروط التمكين، وعرف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف يتعامل معها، وحقق شروط الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله عَزَّجَلَّ من:

- الإيمان بالله بكل معانيه وبكافة أركانه.

- وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه.

- والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البرِّ.

- وتحقيق العبودية الشاملة.

- ومحاربة الشرك بكل أنواعه وأشكاله وخفاياه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ولقد تحقق على يدي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ سنة الاستخلاف للمؤمنين الصالحين العاملين، وتوارثوها أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل بواسطة هذه الشروط:

- الإيمان بالله وتوحيده

- العمل الصالح، وتحقيق العبودية لله.

- محاربة الشرك.

وقد تحقق المنهج الإيماني في الأرض مع بزوغ الحضارة الإنسانية الثانية التي جاءت بعد طوفان قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما شاء الله عَزَّجَلَّ من عدل وحق وإزهاق باطل، وسارت البشرية خطوات رشيدة نحو الكمال والسعادة، والهناء، والحرية، والمساواة في الحقوق والواجبات، وتحقيق القيم الرفيعة التي دعا إليها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن تتلمذ على يديه، وقد كان هذا التمكين بامثال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لأوامر الله وطاعته، والوقوف عند حدوده، ومراعاة سننه الحاكمة في حركة المجتمعات والشعوب والأمم، وحسن التعامل معها، كالصبر والتقوى، والأخذ بالأسباب والتدرج وغيرها.

وقد تمكن الدين في قلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجوارحه ولسانه، وبعد نجاته، ومن معه من الطوفان العظيم أصبحت شريعة الله حاكمة في شؤون الحياة وأمور الناس، وإعمار الأرض والانتفاع بكل ما أودعه الله عَزَّجَلَّ فيها من ثروة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وكان هذا التمكين مصحوباً بالذكر الحسن لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنصر على الأعداء والانتقام منهم، والحفظ والنجاة له ولأتباعه، وعطاء رباني كبير مؤيد بسلام من الله وبركات عليه وعلى من معه بعد كشف همٍّ وإزالة غمٍّ.

﴿سادساً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية﴾

يعتمد مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية على تحليل عميق للقصص القرآني، واستنباط الفهم الحقيقي لمفهوم الحضارة، ويعتمد على الازدهار الإنساني بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية؛ تحقيقاً لعبودية الله في الأرض، وعمارتها، وفق مراد الله عَزَّجَلَّ على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

وأفضل من رسم فقه الحضارة الربانية لمسيرة الإنسانية على مرّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمرسلون، وبالتالي هم قادة حضارات إنسانية عظيمة أصلت لمفهوم التوحيد والعبادة والقيم والعمارة والاستخلاف والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي والنفسي والعمراني والمادي المنزلة من عند رب العالمين، كما أنها جمعت بين مظاهر:

- الرقي المادي الذي يشمل جوانب الحياة من صناعة وتجارة وزراعة وفنون.
- الرقي المعنوي الذي يتصل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري والإبداع الأدبي الرفيع.

ولا تكون الحضارة ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقي المادي والمعنوي على حد سواء؛ لأن الحضارة تقاس بالتقدم العلمي والصناعي أو الآلي والعمرائي عندما تُعبر عن مقاصد إنسانية صالحة، وتجسد مبادئ خلقية فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع نجدها في قيادة الأنبياء والمرسلين للأمم والشعوب:

- الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- أو التي حدثت في عهد داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ولقد تحدث الدكتور عبد الله محمد الأمين عن المفاهيم الحضارية، والرؤية الغربية لعوامل قيام وسقوط الحضارات، وبالمقابل تناول الرؤية الإسلامية لعوامل قيام وسقوط الحضارات والعلاقة بين الحضارات في رؤى العالم في كتابه "الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة ومقارنة" وخرج بالتائج الآتية:

- إنَّ من الخطأ البين محاولة تفسير الحضارة بأنها المدنية أو الرقي والتقدم، ومن ثم يتم تغييب السبق العقدي الذي يحدد طبيعة العلاقة مع الله والغيب والكون والإنسان، ولعلَّ مصدر الخلاف الأساس في مفهوم الحضارة بين النموذج العلماني يرى التقدم مادياً خالصاً، بينما يرى الإسلام أن التقدم معنويٌّ وماديٌّ، وأنه إنساني أصلاً وتوحيدي أساساً، فكل تقدم في مفهوم الإسلام يحث على التحرر من عبودية غير الله. وهذه النقطة تقود إلى نقطتين هما:

أ- أن هناك حضارات قامت على أساس استبعاد الله والبعد الغيبي، وتعاملت مع عالم الشهادة، واقتصرت علمها وقوانينها وتمثلاتها للوجود على المفاهيم الوضعية القائمة على الصراع ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

هذه الحضارة مآلها أن تحمل بذور فنائها من داخلها بحكم تناقضها مع النظام الكوني القائم على الحق فتكون الأزمات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وتكون الحروب وكافة أشكال إهلاك الحرث والنسل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩﴾ ثُمَّ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسْأَلُوا السُّوءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[الروم: ٧-١١].

ب- هناك حضارات دينية قامت في أصل نشأتها على أساس ديني، وظلت في تطورها التاريخي في ضعفها وقوتها مرتبطة ارتباطاً جديلاً بمدى التزامها وابتعادها عن التوجيه الديني وحضوره أو غيابه داخل المؤسسات الاجتماعية، فكل حضارة لها منطلقها الخاص، ومعنى هذا: أن الحضارات الدينية تجعل من الوحي الإلهي مصدراً أساسياً للمعرفة وتتعامل مع عالمي الغيب والشهادة.

ج - إن الحضارة المعاصرة التي تمثل المركز، حضارة مادية تتعامل مع المحسوس، ومن ثم فلا ينبغي أن تكون أنموذجاً تحتذي به بقية الحضارات؛ ذلك لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون معرفة بطبيعتها الحقيقية إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

د - على الرغم من أن الحضارة المعاصرة تعيش مأزق تعاملها مع المحسوس واقتصارها على عالم الشهادة وعجزها عن الإجابة عن الأسئلة الكلية، إلا أن هناك من نظر إلى بقية الإشاعات اللاهوتية الكامنة فيها، فقرر أن الحضارة الغربية باقية أزلية؛ وذلك لأن كل مادة

وكل وقود يتحول إلى إشعاع، أما بقية الحضارات فهي إما مهددة بالزوال والانقراض، أو الذوبان في الحضارة الغربية.

هـ- تطورت نظرية تمجيد الحضارة الغربية لتنتهي على يد (فرانسيس فوكوياما) إلى إعلان نهاية التاريخ بالانتصار الساحق للنمط الحضاري الغربي، وبانتصار المعسكر الغربي وسقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة تنتهي التناقضات الأساسية في العالم بانتصار الليبرالية الاقتصادية، والسياسية والديمقراطية الليبرالية، ومن ثم تعلن الحضارة الغربية هيمنتها على بقية الحضارات، كما أعلن (صمويل هنتنغتون Samuel Huntington) أنه بنهاية الحرب الباردة يبرز صراع من نوع جديد بين الحضارات هو صدام الحضارات.

و - إذا كانت الحضارة تعني الشهادة أو حضور النموذج الذي تكون فيه صبغة الله هي الموجهة لعمل الإنسان، وتكون فيه غاية الحياة مربوطة بالآخرة، وعمارة الأرض التي هي دائرة التكليف، والسعي فيها للإصلاح وكف الفساد، فإن الحضارة بهذا المعنى هي الإسلام أو حضارة الإسلام، وهي الموعودة بالانتصار في مرحلة الظهور الكلي للدين.

ز - إنَّ جوهر حضارة الإسلام الذي قامت عليه مؤسساتها وحدد امتدادها التاريخي وشكل تفاعلها الخارجي وحدد أهدافها، هو التوحيد، وفي ضوء هذا التصور فقط يمكن أن نتحدث عن واقع الأمة الإسلامية وعن ماضيها ومستقبلها، وإن توحيد الله عَزَّجَلَّ هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، وهو الذي يربط بين أجزائها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها عند عبورها في نهج التوحيد ويجعلها متجانسة مع كل ما حولها^(١).

ح - ليس التحضر وضعاً مجبولاً في فطرة الإنسان، وإنما هو وضع كسبي يستحدثه الإنسان بإرادته الحرة وفق عوامل ذاتية وموضوعية، تفضي إليه، وعلى رأسها عامل الفكرة متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود، وغاية الحياة بالغة في الفعل

(١) رؤية الإسلاميّة والمسألة الحضارية دراسة ومقارنة، عبد الله محمد الأمين، ص ١٤٦.

الحضاري ذروته حينما تكون فكرة دينية الصبغة، فالتحضر بما هو جهاد جماعي لإنجاز الترقى المادي والمعنوي ليس في حقيقته إلا جهاداً مدفوعاً بالتصور لحقيقة الوجود وموجهاً بالغاية من الحياة، فهو في مبدئه واطراذه محكوم بتلك الغاية، وقائم من أجل تحقيقها، ومن ثم فإن قوماً لا يملكون تصوراً بيناً لغاية الحياة لا تنمو حياتهم إلى وضع من التحضر، بل يبقون على حال من البداوة أو ما هو شبه بحال البداوة.

إن ما نود أن نختم به هذا المبحث هو أنه من الصعب تصور ثقافة مجردة ومحايدة، أي لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهب عقائدي، أو إيديولوجيا لها فلسفتها الخاصة في الوجود؛ تقيم عليها تصوراتها، وباعتبار أن الثقافة هي التي ترفد الحضارة بالأفكار، فكذلك من الصعب تصور حضارة بدون فلسفة ما في الوجود تقيم عليها تصوراتها.

فالحضارة الغربية المعاصرة تنطلق إما من مثالية، تجعل من الإنسان مركزاً للكون أو ﴿إِلَهًا﴾، أو من واقعية تؤله المادة وتجعل من اللذة والمنفعة هدفاً وغاية، ولعلّ مكنم القصور في هذه الحضارة أنها تستمد أنموذجها المعرفي من فكر بشري قاصر، لا يجعل الوحي مصدراً معرفياً لها.

وعلى العكس من ذلك، فإن من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية أنها تسترشد الوحي في سيرورتها، فهي حضارة تقوم على منهج الحق، وتأسيساً على ما سبق فإن رؤية العالم حاضرة في دراسة الحضارات^(١).

لقد استطاع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُنشئ حضارة إنسانية جديدة بعد الطوفان، تُلبي حاجات الحياة، وما يتطلبه المجتمع الوليد من أمور فكرية ونفسية وروحية وجسدية ومادية واجتماعية في جميع المجالات العلمية والعملية، وارتقى بالجيل الذي هبط بسلام الله وبركاته على جبل الجودي. وبالتالي، قامت الحضارة الإنسانية الثانية على خصائص متعددة، ومن أهمها:

- قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له، في حكمه وملكه، وهو وحده الذي يعبد، وهو وحده الذي يقصد، وهو الذي يعز

(١) المصدر السابق، ص ١٤٧.

ويذل ويعطي ويمنع، وما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

وهذا السمو في فهم الوحداية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسانية وتحرير الجماهير من طغيان الملام والأقوياء، وتصحيح العلاقة بين القيادة والأتباع، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده خالق الخلق ورب العالمين، وكان لعقيدة التوحيد أثر كبير في الحضارة الإنسانية الثانية فجردتها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب.

- إنسانية النزعة والهدف، وتلبي احتياجات بني الإنسان الروحية والعقلية والمادية، فالنوع الإنساني عند نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكذلك عند الأنبياء والمرسلين واحد، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

سارت الدعوة الإسلامية المحمدية على نفس النهج الحضاري الذي أسسه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في هدفه الإنساني، ونزعه البشرية، فالقرآن الكريم حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على أصعدة الحق والخير والكرامة، جعل حضارته عقداً تتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم؛ خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم، ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت منهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج للفكر الإسلامي السليم.

- جعلت للمبادئ الأخلاقية مكانة رفيعة في كل نظمها، ومختلف ميادين نشاطاتها العلمية والتشريعية والاقتصادية والأسرية، وروعت المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، فكانت المبادئ الأخلاقية - التي هي من ثمار التوحيد - متجسدة في شخص نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفاضت على من حوله تعليماً وتربية وسلوكاً.

- تؤمن بالعلم في أصدق أصولها ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فقد خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد، وهي ميزة تميزت بها الحضارات التي قادها الأنبياء والمرسلون، فقد كان الوحي السماوي من أكبر عوامل الرقي فيها^(١).

- قامت على حرية المعتقد، وعلى البينة والدليل والبرهان، وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني، قال تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنُحِلَّهَا لِكِرْهُون﴾ [هود: ٢٨]، فالدين والعقيدة والفكر المستنير بالإقناع والنظر والتدبر لا بالقهر والسلطان والإخضاع، فحرية الاختيار في المعتقد والتوحيد قامت عليها الحضارة الإنسانية الثانية.

وأما عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية على يد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن نجا معه من الموحدين، هي:

١ - العامل العقدي:

لقد كان أول شيء بدأ به نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه، أن دعاهم إلى عبادة الله وحده ولا عجب، فإن الدعوة إلى التوحيد هي أساس كل رسالة وقيام كل حضارة ربانية.

وبملاحظة الآيات التي أشارت إلى دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نلاحظ فيها تكرار الفكرة الكلية للأهمية، حيث بدأ الحديث فيها عن دعوته قومه لعبادة الله وحده لإشفاقه عليهم من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

من ثم نلاحظ أن القرآن لا يكرر المعاني الفرعية، وإنما يكرر الحقيقة أو ما يسمى في الأدب: الفكرة الكلية، أو الموضوع، وعندئذ نقول: إن الأحداث التي يكررها القرآن هي

(١) الأساليب التربوية في دعوة الرسل من خلال سورة الأعراف، ياسر حسن عارف، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى،

ذات الحقيقة الكلية الهامة، كأحداث العقيدة، فالعقيدة هي أساس الدين كله، وكل ما في الدين جملة وتفصيلاً إنما يرتبط بالعقيدة، إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة، ولذلك فحقيقة العقيدة بحاجة إلى تكرار متواصل لأهميتها الخاصة، ولذلك نجد هذا المعنى يتكرر في محاورات نوح مع قومه لتأكيد العقيدة وتثبيتها في نفوسهم، فلا حضارة بدون عقيدة راسخة في قلوب متبعيها^(١).

٢- العامل الصناعي والاقتصادي:

يظهر هذا العامل في صناعة السفينة، فقد أمر الله عَزَّجَلَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بصناعة السفينة، وقد امتثل الأمر وصنع السفينة بيديه، إذ كانت سفينة نوح مؤلفة من أخشاب وحبال ومسامير ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ﴾ [القمر: ١٣]، وهذا يعني أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد استحضر موادها الأولية وألف بينها - وفق العلم الإلهي الموحى إليه في صناعة السفن - حتى صارت سفينة صالحة للإبحار، ولسنا بصدد الدخول في الروايات الإسرائيلية عن حجم السفينة، بل إن الذي يعيننا أن هذه السفينة من الضخامة بمكان، بحيث صمدت أمام الأمواج المتلاطمة كما صورها القرآن ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وكانت مهمة السفينة أن يركب فيها الناجون؛ ليسلموا من الطوفان، وفي ذلك إشارة إلى أن النجاة يصنعها الإنسان بيده، ثم يتوكل على الله، وأن الأمة مطلوب منها أن تصنع سفينة نجاتها بيدها وأيدي أبنائها، لا أن تعتمد في نجاتها على سفن غيرها، ولا أن تقف مكتوفة اليدين أمام طوفان الباطل والظلم؛ لتغرق فيه أو تنتظر ممن يريد إغراقها أن ينجيها، وأن الأمة التي لا تصنع ركب نجاتها بيدها، هي عرضة للهلاك والغرق والطوفان^(٢).

كما أن إتقان صناعة السفينة يشير إلى اقتدار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه وكفاءتهم على المستوى الصناعي في مجالات عديدة، إذ يحتاج صنعها إلى المهارة في صنع الكراسي والأبواب والنوافذ والسلالم، وبناء البيوت للسكن وفق ما يناسبهم من مقاييس واحتياجاتهم

(١) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

الإنسانية من صناعة الخشب والحديد وغيرها من المعادن، ولقد ثبتت مزاولة الأنبياء حِرَفاً وألواناً من النشاطات الاقتصادية والصناعية زيادة على مهمتهم الأولى، وهي تربية الأمم ورعايتها وتعبيدها لربها، هذه المهمة التي تخرج الإنسان الذي يبنى الحياة في مختلف جوانبها الحضارية، وقد كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ رائداً في استخدام الخشب والحديد في صناعة السفن^(١). وكانت السفينة تحمل:

- بذور الثروة الحيوانية.

- بذور الثروة النباتية.

- الطيور بأشكالها وأنواعها.

- مقومات الحياة الاقتصادية والصناعية الجديدة.

وكان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه متجهين نحو العمل بجدية ومثابرة، وكانت حركتهم الصناعية والاقتصادية قوية ومزدهرة الأمر الذي حققوا به ازدهاراً حضارياً متميزاً، فقد أراح عنهم المعوقات والعراقيل، وسهل لهم الأمور ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

ومعنى ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨] أي على أمم ستكون على الإيمان من بعدك، و﴿وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] أي: هي أمم الكفر التي يمتعها الله متاعاً قليلاً في الحياة الدنيا، وهي سنة من سننه تعالى، ثم يكونون من الأشقياء وبهذا يكون الوعد في الآية بالسلام والبركات لكل مؤمن في أي زمان ومكان^(٢).

وكانت البركات التي صاحبت نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته الصناعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وفي المشاعر والعواطف والأرزاق وطيبات الحياة كلها، وليست البركة وفرة الماديات فقط^(٣).

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات، محمد هيثور، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.

وكانت الحياة الاقتصادية بعيدة عن الغش والتطفيف وبخس الناس أشياءهم، وبعيدة عن الطمع والجشع، وكانت شريعة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حاكمة في الحياة الاقتصادية، فكانت العلاقات الاقتصادية سليمة وفق شرع الله عَزَّوَجَلَّ:

- إعطاء كل ذي حق حقه.

- الوفاء بالكيل والميزان.

- تحري الحلال والحرام.

- والجميع يتقي الله في أقواله وأفعاله ونواياه.

٣- عامل البيئة:

هياً الله أمور البيئة الجديدة لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونستنتج ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فالبينة كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر يرتبط معها بعلاقات متبادلة^(١).

والبيئة في المدلول القرآني هي: الأرض بما عليها من مكونات وما في جوها من مسخرات^(٢)، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجن: ١٣]. فمن مكونات البيئة التي ساعدت على نشوء الحضارة الإنسانية الثانية: السماء والأرض، والماء والهواء والنبات والحيوانات وغيرها، وكانت ولا زالت مسخرة للإنسان.

فالمكونات في حالتها الطبيعية التي خلقها الله عليها طاهرة نقية، مباركة مستعدة لتلبية نداء العمارة، فكانت البيئة التي عاش فيها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه بعد الطوفان تساعد على التأمل والتدبر، وهي ناطقة بوحداية الله وصفات كماله وهي مسخرة بكل مظاهرها من

(١) حماية البيئة الطبيعية، صفاء موزة، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م،

ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠.

قبل الله لخدمة الإنسان وتدبير أسباب عيشه وتحقيق رفاهيته وأمنه، فالمخلوقات في هذه البيئة مسخرة ومذللة للإنسان، فسبحان القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْهَوْا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه للتأمل، والبحث، واستخدام فكره، وقدراته للاستفادة من مكونات البيئة، وقطف ثمار إخضاعها، فقام نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بأداء مهمته في عمارة الأرض والخلافة فيها بعد أن منحه الله العقل والهداية السماوية، وعمارته تكون بالزراعة والغرس والأبنية، كما تكون بجميع وجوه التعامل المتزن الإيجابي مع مكوناتها استغلالاً وإبداعاً.

وقد دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته للتأمل والتفكير في مكونات البيئة التي يعيش فيها ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٥-٢٠].

كانت علاقة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبيئة من منطلق الحب والتقدير؛ لأنه يعلم أنه من العبادة عمارته للأرض والاستفادة من مكونات البيئة التي سخرها الله للإنسان، كما أنه هو والذين معه مع مكونات البيئة يشتركون في تسبيح الله وتمجيده، وأداء المهمة الموكلة إليهم، وهي قائمة على سنن وقوانين أوضحها الله لأنبيائه ورسله، وبينها في كتابه الخاتم القرآن الكريم. ويعدُّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أصدقاء البيئة حيث أسهم في تطهيرها من رجس الكفر والظلم، بدعوته المباركة وحافظ على مخلوقاتها وحمل معه من كل زوجين اثنين، فحافظ على الحيوانات والطيور والنبات من غمرة الطوفان العظيم.

٤ - العامل الاجتماعي:

كان المجتمع الجديد الذي أسسه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قائماً على أخلاق ربانية رفيعة، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان باراً بوالديه ومحباً لأتباعه وداعياً لهم بالمغفرة، قال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وهذه التعاليم في بر الوالدين كانت مهيمنة ويتقربون بهذا البر لله، ودعاؤه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨] يدلُّ على رحمة بينهم، ورابطة العقيدة هي التي توجه سلوك هذا المجتمع.

وكان المجتمع الجديد عميق الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، مطبقاً لتعاليم الوحي بجدية والتزام، وبأقل قدر من المعاصي، فالدين بالنسبة له هو الحياة وليس شيئاً هامشياً يفنيء إليه بين الحين والحين، وإنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها بالوجه الصحيح، وإنما أيضاً في أخلاقهم وتصوراتهم واهتماماتهم وقيمهم وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار والبيع والشراء والضرب في مناكب الأرض والسعي وراء الأرزاق وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق في الحياة الدنيا ولا في أي مجتمع من البشر^(١).

إنَّه المجتمع الذي تحقق فيه أعلى مستويات المعنى الحقيقي للأمة، فليست الأمة مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض ووحدة المصالح، فتلك هي الروابط التي تربط البشر في الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهي أمة جاهلية، وأما الأمة بمعناها الرباني، فهي الأمة التي تربط بين أفرادها برابطة العقيدة بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون ومصالح الأرض القريبة، فكان المجتمع مرتبطاً برابطة العقيدة على أساس الأخوة الكاملة في الدين، مما ساعد في نشأة الحضارة الإنسانية الثانية على أسس متينة وسليمة^(٢).

(١) كيف نكتب التاريخ، محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ١٠٠ بتصرف. (ومقارنة مع مجتمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومحاولة للفهم).

(٢) كيف نكتب التاريخ؟، محمد قطب، ص ١٠٢؛ أبو بكر الصديق، علي محمد الصلابي، دار الروضة، اسطنبول، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، ص ٢٦٧.

٥- العامل الأخلاقي:

إنَّ الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أتباعه على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة، وقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ مدرسة إنسانية كبرى، كمرجعية أخلاقية رفيعة المستوى، وتمثلت شخصيته بحمله الخصال الحميدة، والصفات العلية التي فاضت على من حوله تربيةً وتعليمًا، وتركياً، فقد اشتهر بالعبودية الخالصة لله، والشكر الجزيل، وكثرة السجود، والبكاء من خشية الله، ودوام الدعاء واستمراره، والتوكل على الله والتجرد له، وتفويض الأمر لله، وكثرة الذكر والتوبة والاستغفار والإحسان والإخلاص والصلاح والعلم والأمانة والعفة والثبات والشجاعة والصبر وبرّ الوالدين، وقد أسهمت تلك الأخلاق على التأثير على من آمن معه.

وليس الأخلاق شيئاً ثانوياً في مجتمع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليست محصورة في نطاق معين من نُطق السلوك البشري إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله، كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة داخل الضمير فحسب، إنما عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل: أين الإيمان إذا؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك؟^(١)

تربي أتباع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق، فكانت أخلاق ذلك المجتمع الجديد ربانية باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته.

إنَّ الأخلاق عند الأنبياء والمرسلين، ومنهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، شيء شامل، يعمُّ كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي: الخشوع، والكلام له

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ١٣٠ بتصرف

أخلاق هي: الإعراض عن اللغو، والمعاشرة الزوجية لها أخلاق وهي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق وهي: التوسط بين التقدير والإسراف، والحياة الاجتماعية لها أخلاق وهي: أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق وهي: العفو والصفح، ووقوع العدوان على الأعداء تستتبعه أخلاق وهي: الانتصار، أي رد العدوان وهكذا لا يوجد شيء في حياة المؤمن ليست له أخلاق تكيّفه، ولا شيء واحد ليست له دلالة واحدة أخلاقية مصاحبة.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ جَعَلَ التَّوْحِيدَ أَي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سورة الإسراء (٢٣-٣٨) مدحاً وذمّاً؛ لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول مثل: الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غروراً وأنفة، والجدال بالباطل مغالبة وتطلعاً للظهور، أو تقليد أو جمود على الإلف والعرف، مع ضلاله وبهتانه، وكلها - وأمثالها - أخلاق سوء تهلك أصحابها وتصدّهم عن الحق بعدما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها^(١).

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية للحضارة الإنسانية الثانية، لقاء الأتباع بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيحدث لهم تحول واهتداء، فيخرج ببركة الوحي المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه وعقيدته وعمارة الأرض وخلافتها لمفهوم العبادة لله رب العالمين.

كانت شخصية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ المحرك الرئيس لأفراد الحضارة الإنسانية الثانية، فشخصيته تملك قوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد اصطفاه الله واختاره لرسالته وقيادة البشرية في دربها الجديد بعد الطوفان العظيم، وألقى الله عليه من المحبة والمهابة والاحترام

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عشر،

والعظمة، فدائماً يُحِبُّ ويحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حوله المعجبون يلتصقون به التصاقاً بدافع الإعجاب والحب، ويضاف إلى ذلك كونه رسول الله، متلقي الوحي من الله ومبلغه إلى الناس، وذلك بُعد آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط كما يحب العظماء من الناس، ولكن أيضاً لتلك النفحة الربانية التي تشملته من عند الله المكرم بالوحي الإلهي، فارتبط به الأفراد والأتباع برباط الله في الله مع السمع والطاعة للرسول الكريم، فكانت تلك نقطة الارتكاز في المشاعر كلها ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها، فكان هذا الحب هو مفتاح التربية السلوكية والأخلاقية، ونقطة ارتكازها ومنطلقاتها التي انطلقت بها الحضارة الإنسانية الثانية^(١).

وكان من عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية عامل الأخلاق، فقد قام المجتمع على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر شريعة الله وتوجيهاته، وهي قاعدة لا تشمل علاقة الجنسين وحدها وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خالٍ من كل ما يחדش الحياء من فعل أو قول أو إشارة، وخالٍ من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهي تمثل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات شريعة الله، وعلاقات الناس في المجتمع قائمة على الصدق والأمانة، والإخلاص والتعاون والحب، فلا غمز ولا لمز ولا نميمة ولا قذف للأعراض^(٢).

ويمكننا أن نثبت دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية الثانية ونبين أن الروح الأخلاقية منحة من الله عَزَّوَجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، فقد ارتبطوا ببعضهم ببعض بروابط الحب في الله، ووشائج عقيدة الوحدة، وألف الله بين قلوبهم، فأحدث بينهم التواد والتحاب ونزع التباغض، ولم يحدث هذا بالقوة وقهر القانون ولكن برضاء وطوعية داخلية، تلك هي الأخلاق الربانية

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ص ٣٤ - ٣٥ بتصرف. وانظر: السيرة النبوية، علي الصلابي، ص ٩٨.

(٢) أبو بكر الصديق، للصلابي، ص ٢٦٨ بتصرف.

يأتي بها الوحي ويغرسها السادة الأنبياء بقدوتهم الأخلاقية ذاتها، ويبرزون دورها في توحيد الشعوب. والاتحاد قوة مادية ومعنوية، والقوة الأخلاقية من أكبر الوسائل في تطوير الأمم، وأشدها أثراً في بناء المجتمعات وقيام الحضارات وتماسكها، وكل القيم الأخلاقية قوة؛ فالصبر قوة وصفة للأبطال الرواد، والضعيف لا يستطيع أن يتحمل، ويجزع وينهزم أمام الأحداث، والشجاعة قوة؛ لأن صاحبها يرفض الجبن والذل، ويقاوم الظلم، والعدل قوة؛ لأنه يمثل غلبة نوازع الحق والخير على نوازع الباطل والشر داخل الإنسان ذاته، والعفة قوة؛ لأنها تقاوم الشهوات والأهواء والإغراءات، وهكذا تقام كل القيم الأخلاقية الحميدة على هذا القياس، وتثبت أنها عناصر بناء للتاريخ الحضاري^(١).

لقد انبثقت القيم الأخلاقية التي أسهمت في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية عن عقيدة صحيحة قائمة على أساس من الوحي.

وقامت الحضارة الإنسانية الثانية على روابط أخلاقية مدعومة بحزمة من التشريعات الربانية، وكان للمنظومة الأخلاقية الدرجة الأولى من السلوك الاجتماعي لدى الحضارات. والدارس لطبيعتها، وسنن قيامها، وازدهارها، يتبين له أن جوهر الحضارة الأخلاق، وإن كان تقرير هذه الحقيقة يدهش الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات المادية، بل قد يثير الاشمئزاز في نفوسهم من الذين يؤمنون بدور الأخلاق في التماسك والازدهار الحضاري، وجوابنا لهم هو أنه شهد شاهد من أهل الذين جعلوهم قدوة لهم في تصورهم الحضاري وسلوكهم الاجتماعي، ولا شك أن هذا حجة بالغة بالنسبة لهم^(٢).

ويتوقف الجوهر الأخلاقي على قدرة الاستعدادات النفسية والعقلية لدى الأفراد والجماعات. والتاريخ الحضاري صريح وواضح عند الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والقضايا الحضارية العامة، فهو يبين بالأمثلة والحقائق الصارخة أن الأسس الأخلاقية ومبادئ النبل والشرف والتضحية وتجنب الإباحية ووجوب الأخذ بملاءات الوجدان

(١) فلسفة القرآن، عباس محمود العقاد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٢٥.

(٢) فلسفة الحضارة، ألبرت إشفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط ١٩٨٣، ص ٣.

الأخلاقي وقواعد الحكمة والاعتدال ونبذ العدوان والاستغلال، وما أشبه ذلك من معانٍ وشمائل كانت دعائم تحضّر عبر التاريخ، وأركان تقدم الفلاح في كل الأمم، وكانت الأخلاق ميزة صفوة الشعوب من الأبطال والعظماء والعلماء، وأي إنسان لا تكون له قيمة حقيقية وشخصية إنسانية إلا إذا كان ذا أخلاق حسنة وخلال طيبة، وتحت تأثير القيم الأخلاقية تكونت العلاقات الإنسانية على مستوى الجامعات والأمم، وما اضمحل المبدأ الأخلاقي في النفوس إلا وتداعت الحضارة^(١).

وهذه سنة من سنن الله تعالى ستظل قائمة وإن كان دور المبدأ الأخلاقي محل احتقار في نظر أهل الحلول المادية لقضايا التحضر، ويكون نظرة غريبة لدى كثير من الدارسين والمثقفين، فإن هذا لا ينفي دوره، ولا يوقف تأثيره في الحياة، والذين تعرضوا للضعف والانحلال وأصيبت مدنيتهم بالانهيار والسقوط إن كان في الماضي القريب أو البعيد، إنما سلكوا خلاف سنن الله وما تقتضيه أبسط قواعد العدالة، ونبذوها وراء ظهورهم، وسخروا منها ومن الداعين إليها، فتلك هي قصة عاد وثمود والرومان والإغريق، منذ انتشرت فيهم الإباحية والنفعية والجرائم وغيرها من سنن السقوط الحضاري، وتلك هي قصة الدول التي أخذت تنحدر في كل من أوروبا وأمريكا، إنها القصة التي تنتهي دوماً بالنتيجة المأساوية المعروفة^(٢).

ويبدو أنه من أكبر منزلقات الحضارات المادية انسلاخها عن المبدأ الأخلاقي، التي لا تكاد تفارقه قليلاً حتى تلقى حتفها.

إنَّ حيوية حضارة الإسلام والسلام والبركات استمدت قوتها من عوامل عديدة: عقدية وصناعية واقتصادية واجتماعية وكذلك أخلاقية.

وقد كان لعامل الأخلاق أثر كبير في نشأة وريادة الإنسانية في حضارتها الثانية، ولا يقوم صرح المجد والنهوض الإنساني المادي والمعنوي إلا على أساس من الأخلاق

(١) المصدر السابق، ص ٤.

(٢) الفكر التاريخي في الإسلام، عبد اللطيف شرارة، دار الأندلس، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣ م، ص ٨٣.

والآداب القويمة، ولذا جاءت الرسائل السماوية أمرة المؤمنين بالتحلي بمكارم الأخلاق، ونبذ كل ما يؤدي إلى تدهور القيم، وتفكيك روابط المجتمع^(١).

إنَّ المجتمع الفاضل الذي أسسه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ له أدب رفيع وقيم نبيلة وأخلاق رفيعة ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس.

وأخيراً.. أودُّ أن أؤكد سنة من سنن الله، وهي أن الإحاطة بقوانين الفلك في أمرٍ كالكسوف والخسوف تنبئ بوقوعه قبل فترة من حدوثه، فلا جدال إذن في معرفة مآل أحداث الأمم ومصائر الدول والحضارات في ضرورة دراسة ومعرفة قوانين وسنن الاجتماع البشري. ومن السنن الثابتة في هذا الموضوع، موضوع مصائر الحضارات، أن تفشي الظلم وسعي الناس في الأرض فساداً، مؤذن ومؤشر بخراب الأمم والدول، وعن طريق المقابلة نعرف أن للاستقامة وللالتزام بموجبات الصلاح والحق والعدل والأخلاق والعمل المخلص، سنناً لازدهار الحضارات وسيادة الأمم^(٢).

٦- العامل السياسي:

تُعرف السياسة بأنها فن قيادة المجتمعات في دفع المفسد وجلب المصالح، وكان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على مستوى عظيم في القيادة الروحية والاجتماعية والسياسية... إلخ، وتوفرت الأسباب التي ساعدته على تنظيم الحياة الجديدة على أسس وقيم ومبادئ العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وفق الشريعة التي أوحاها الله إليه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فالشرائع بدأت بوصايا الله عزَّوَجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قائمة على دفع المفسد وجلب المنافع لبني الإنسان في الحياة.

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ اختار للإنسانية نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لنبوته ورسالته وإقامة الدور الجديد للخلافة في الأرض بعد الطوفان العظيم، ولكي ينظم أمور الحياة للأمم التي معه ويرعى مصالحها ويصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متنوع، ولقد واجه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ التحديات والصعوبات بحكمة ودراية وعمل على حماية حقوق الناس ورفع الظلم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد على مقتضى النظر الشرعي وجمع بين تنفيذ أحكام الشريعة الربانية وسياسة الدنيا وفجر طاقات مجتمعة وجعله جاداً مشغولاً بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وبعث روح الهمة في الناس، وحثهم على النشاط والعمل؛ والحركة ولا يشعرون إلا بالسعادة والحياة الطيبة في أعمالهم الدنيوية والأخروية، تلمس روح العبادة بمفهومها الصحيح في حياة ذلك المجتمع وتصرفاته ليس فقط في أداء الفرائض والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضاة الله عَزَّجَلَّ، ولكن في أداء الأعمال جميعاً فالعمل في حسه عبادة يؤديه بروح العبادة:

- فالحاكم يسوس رعيته بروح العبادة.

- والمعلم يعلم تلاميذه بروح العبادة.

- والتاجر يراعي الله في بيعه وشرائه ويفعل ذلك بروح العبادة.

هذه من أهم سمات الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شك أنها فترة مثالية في تاريخ الإنسانية تحتاج إلى دراسة بعمق وسبر، تساعد البشر في وضع طريقهم على السكة الصحيحة بعدما غابت عنهم المرجعيات الكبرى في العقائد والأفكار والعبادات والأخلاق والمعاملات، وتخطفتهم الشياطين إلى صحاري موهلة في الضلال.

٧- عامل العمال:

كانت دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مهتمة بالتأمل والتفكير والتدبر في الطبيعة وهذا الكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمرسلين، ولم تكن دعوتهم هذه تنصب على الجانب التجريبي العملي من أجل إدراك عظمة الله واكتشاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيه إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري ورفعته إلى مستوى السمو الروحي



والأخلاقي للإنسان باعتبار هذه الدعوة المزدوجة والنظرة الثنائية تحرك في الإنسان كل مكوناته الفطرية، ولقد كان هذا أسلوب القرآن حتى في عرض وبيان القوانين والسنن الاجتماعية، وكل هذا يقود الإنسان إلى تكوين حاسة الإيمان بالله وعدالته ورحمته وجبروته وبطشه، وقد شاء الله سبحانه أن تكون الطبيعة بمكوناتها وقوانينها وأسرارها التي أودعها الله فيها مصدر عطاء لبناء الإنسان، سواء كان عالماً أو فناً، فالعالم يتفحص ويجرب ويكتشف ويبدع من أجل الرقي الاجتماعي، والفنان يتذوق ويتأثر ويحس ويعاني، فيهبز المشاعر حباً وعشقاً، فتحدو العواطف العزائم وتشخذ القدرات، فتنتقل إلى ما وراء الأشياء للتعامل مع خبايا النفس ومكونات الوجود بالحب والتعاون والتعاطف، لا بالصراع والتجارب، كما يصور بعض المذاهب الفكرية^(١).

وعامل الجمال في الحضارة الإنسانية الثانية يظهر جلياً على مستوى صاحب الرسالة ومكونات الطبيعة:

- جمال المنطق واضحاً في دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَام.
- جمال الأخلاق يظهر في تحمله.
- جمال الحرص على قومه.
- جمال أساليب الدعوة والحجج العقلية والمنطقية والوجدانية التي استخدمها.
- جمال عاطفة الأبوة الملتهبة مع ابنه.
- جمال صناعة السفينة وإتقانها.
- جمال التصوير الفني للسفينة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] روعة وهيبة وجلالاً.
- جمال ترتيب الأمور داخل السفينة.

(١) المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (١٤)، ص ١٤٥.

- جمال الاعتذار وطلب المغفرة والرحمة من ربه ﴿وَالَا تَعْفُرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

- جمال نزول المخلوقات من السفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسيح ومراعيه الخصبة وأشجارها المثمرة وغاباتها الكثيفة.

- وجمال انكشاف الغمة والكرب العظيم في المشهد الكوني والنفسي في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فاعمل الجمال له حضوره وشهوده على كل مكونات الحياة في الحضارة الإنسانية الثانية وتعامل معها نوح عَلَيْهِ السَّلَام على أعلى المستويات الذوقية الجمالية الإنسانية الرفيعة.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تعبر عن حقائق علمية وعقدية في صور تفيض بالروعة والجمال، ولنتأمل مركزي الجانب الجمالي لنعرف هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [٥٠] فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٥١] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٥٢] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ [٥٣] وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]

تعرض هذه الآيات بعض مظاهر الحق والخلق في الحياة، فتوجه الأنظار إلى كيفية الخلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، والسمة البارزة المهيمنة على هذه الحقائق هي الجمال فكل المدلولات تدل على حقيقة من الزاوية الجمالية، فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنها تتلألأ، ومما يوحى بالسمت الجمالي الصانع لذلك التوجيه الرباني إدراك دور الجمال في ازدهار الحياة ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ

وَأَلَوَى ﴿[الأنعام: ٩٥]، إنها معجزة الخلق في تزيين الحياة، وهي الظاهرة التي يجب أن تقتدى في صنع الحضارات^(١).

هذه بعض عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، وقد استطاعت أن تحقق:

- الإخاء والمحبة.
 - التعاطف والتراحم.
 - التساند والتعاون.
 - التكافل والتضامن.
 - التواصي والتناصح.
 - التطهر.
 - العدالة والإنصاف.
 - والتقدم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي.
- وحققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها:

• العبادة لله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

• خلافة الله في الأرض:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، فقد استخلفها في الأرض لإعادة تعميرها، وإعادة الحياة فيها لتأدية الدور المنوط بالحضارة الإنسانية الثانية.

(١) سنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٢٠٥.

• عمارة الأرض:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، طلب عمارتكم لها^(١).

لقد استطاع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يؤسس للحضارة الإنسانية الثانية بين العوامل المادية المقيدة بالفترة الزمانية التي عاش فيها، وبين المعاني الإيمانية والروحية والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية من وراء الإبداع الحضاري الثاني في مسيرة البشرية في روعة الإيمان والأخلاق والربانية.

﴿سابعاً: تفسير الآيات التي تحدثت عن الجارية والفلك المشحون﴾

١. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَعَيْنٌ﴾

[الحاقة: ١١، ١٢].

هذا خطاب من الله تعالى موجه إلى البشر من بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحتى قيام الساعة؛ باعتبار أن الذين حُمِلُوا مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في السفينة هم الأصول التي انحدر منها أهل الأرض من بعد نوح إلى يومنا هذا، وذلك لكي يجعلها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى تذكرة {أي: عبرة وعظة} للناس جميعاً، لما كان فيها من نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، ولكي تحفظها كل أذن حافظة لما تسمع من تلك الأخبار من "الوعي" بمعنى الحفظ في الذاكرة.

- ﴿الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] هي سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، التي جرت في ماء الطوفان الذي أغرق المنطقة فيما بين دجلة والفرات بماء المطر وتفجير عيون الأرض بالمياه بعدد هائل من العيون، وقد علا الماء الأرض فأغرق كل من في منطقة ما بين النهرين إلا نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن حملهم معه من البشر والحيوان والنبات في السفينة.

فقد أثبت الأثري الدكتور (تشارلز ويليس Charles Willis) في عام ١٩٨٠م بأن بقايا سفينة نوح قد تم اكتشافها فوق جبل الجودي على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من جبل (أرارات). وجبل الجودي يمثل أعلى قمة في سلسلة جبال جنوب تركيا، إذ يزيد

(١) الإسلام حضارة الغد، القاهرة، مكتبة وهبة، يوسف القرضاوي، ط ١، ١٩٩٥، ص ١٧٦.

ارتفاعه على سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، وقد وجدت بقايا السفينة مطمورة في رسوبيات تواضعت من مياه عذبة تعلو سطح ذلك الجبل^(١).

كذلك، فإن سهول ما بين النهرين دجلة والفرات، والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة سجلت خبر الطوفان الذي وجدت آثاره على هيئة سمك من رسوبيات الماء العذب تغطي المساحة ما بين النهرين، وقد تم الحفر عليها في أربعة مواقع على الأقل هي: "أور"، و"إيريك"، "كيش" أو تل الأحمر، و"شورويك" أو تل العقدة، ويتراوح عمر هذه الرسوبيات بين ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد قام بدراسة هذه المواقع مجموعات متتابعة من العلماء منهم: هول وليونارد ووللي (Leonard Woolley)، في مشروع مشترك بين المتحف البريطاني بلندن وجامعة بنسلفانيا، وقد استمرت هذه البحوث في الفترة من ١٩٢٢م إلى ١٩٣٤م، وكشفت عن بقايا حضارات قديمة على عمق عشرة أقدام تتكون من رواسب الماء العذب، كالغرين والصلصال والرمل التي تمتد أفقياً للآلاف الكيلومترات المربعة، والتي لا يمكن أن تنتج إلا عن طوفان غامر، وقد تأكد ذلك بدراسة تمت في كهف يقع في شمال العراق يعرف باسم "كهف شانيدار العظيم"؛ يحوي قطعاً من الرسوبيات يعود عمرها إلى مائة ألف سنة مضت، ويحوي بقايا إنسية قام بدراستها الدكتور "رالف سونسكي"^(٢).

وقد حملت كل رسالات السماء التي أنزلت من بعد نبي الله نوح على نبينا وعليه من الله السلام أخبار هذا الطوفان حتى تكون فيه العبرة لبني الإنسان، ويكون فيه التحذير من الوقوع في أحوال الشرك دون جدوى^(٣)، ويبقى وصف طوفان نوح كما جاء في القرآن الكريم هو المرجع الحق عن هذه الواقعة الكبرى في تاريخ الإنسانية، وقد لخصها القرآن الكريم في عشرات الآيات، وقد شرحتها في هذا الكتاب:

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م،

١٩٧/١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ١٩٨/١.

- إن في قول الله تعالى: ﴿حَمَلْنَاكَ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، فالضمير في حملناكم يعود إلى البشرية كلها من بعد طوفان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك منه ومن ذرائه أي: إلى البشرية كافة من بعد طوفان نوح إلى اليوم وحتى قيام الساعة؛ وذلك لأن الآية الكريمة تشير إلى حمل أصول تلك البشرية الثانية في صلب نوح ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإنَّ الناجين من الغرق هم أولاد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأناس آخرون كما هو ظاهر القرآن الكريم، وعلى هذا، فمن آمن بدعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أهله، وإن نجا من الغرق إلا أنهم انقرضوا فيما بعد، ولم يبق منهم نسل، وإنما الذي بقي منهم نسل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبهذا صح أن نوحاً هو أبو البشر جميعاً بعد آدم^(١).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: قالوا إنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبقَ لهم عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]^(٢).

وتؤكد المعارف المكتسبة في علم الوراثة أن البشرية كلها من لدن أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى قيام الساعة كانت في صلبه لحظة خلقه، ثم بدأت في التوزع إلى زوجه حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم إلى أبنائهما وأحفادهما الذين مثلوا الموجة الأولى من بني آدم، ولما انحرف الناس عن منهج الله بعد عشرة قرون من خلق آدم أرسل الله تعالى إليهم عبده ورسوله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ واستعصى على غالبية قومه قبول هدايته، فعاقبهم الله بالطوفان الذي قضى عليهم، وبقيت فضلة من مجموع المورثات التي خلقها الله الخالق البارئ المصور في أول الأمر، وأودعها أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى وصل جزء منها إلى أصلاب كل من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والناجين معه؛ ليخلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من تلك الأصلاب موجة البشرية الثانية إلى قيام الساعة.

ومن هنا كان الخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددتها موجهاً إلى تلکم الموجة الثانية من البشرية التي نجت من طوفان نوح، واستمرت في التكاثر إلى اليوم، وستبقى مستمرة في ذلك إلى قيام الساعة بانقسام الشيفرات الوراثية عند تَكُونِ الخلايا التناسلية وتكاملها

(١) قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، عمر إيمان أبو بكر، ص ٢٤.

(٢) تاريخ الطبري المسمى "تاريخ الرسل والملوك"، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٤م،

بالتزاوج. وبالرجوع بعمليات انقسام الخلايا التناسلية إلى الوراء مع الزمن، فإن جميع الشيفرات الوراثية في خلايا السبعة مليارات إنسان الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، وفي خلايا ذرايرهم إلى قيام الساعة، تلتقي مع الشيفرات الوراثية التي كانت في صلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي أصلاب الناجين معه، ومن هنا كان الخطاب لجميع أفراد موجة البشر الثانية، يقول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۖ﴾

[الحاقة: ١١، ١٢]

ولقد كان علم الوراثة من أحدث المعارف المكتسبة؛ لأن قوانين الوراثة لم تتبلور إلا في أوائل القرن العشرين، ولما كان مرسى سفينة نوح لم يجدد إلا في نهاية القرن العشرين، كانت الومضتان المبهرتان في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة الحاقة تمثلان حقيقتين علميتين صحيحتين تشهدان للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وهاتان الآيتان الكريمتان تمثلان كذلك وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي في كتاب الله؛ لأن أحداً من الخلق لم يكن يعلم شيئاً عن تلك الحقائق في زمن الوحي ولا لقرون طويلة من بعده.

كذلك، فإن في الآية الثانية عشرة من هذه السورة المباركة إعلام من الله تعالى بأن كشف سفينة نوح سوف يتم في المستقبل، وقد تم ذلك بالفعل في سنة ١٩٤٨ م، حتى يبقى الحادث الجلل تذكرة للبشر جميعاً تعيه عقولهم، وتستوعبه آذانهم، وهو من أوجه الإعجاز الإنبائي في كتاب الله^(١). وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۖ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وتصوّر الآية الكريمة مشهد الطوفان والسفينة الجارية، حيث يشير هذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا، وممتناً على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها. ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها، وجرس اللفظين (الجارية - واعية)، يتماشى كذلك مع إيقاع القافية، وهذه اللمسة ﴿لَنَجْعَلَهَا

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، ١/ ١٩٩.

لَكُمْ تَذْكِرَةٌ وَبَعِثْنَا آدَنُ وَعِيسَى ﴿[الحاقة: ١٢] تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة، التي تكذب بعد كل ما سبق من النذر، وكل ما سبق من المصائر، وكل ما سبق من الآيات، وكل ما سبق من العظات، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين. وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون، وقد شهدوا مصارع المكذبين، إن الهول في هذه المصارع على ضخامتها -محدود- إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخرة لذلك اليوم المشهود^(١).

ارجع أخي القارئ واقرأ سورة الحاقة من البداية؛ لترى العجب العجائب والأهوال التي عليها البشرية وبني الإنسان قادمة.

٢. قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ آتَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

في مجموعة من الآيات الكونية المبهرة التي ساقتها سورة يس للاستدلال على حقيقة الألوهية وعلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق وشهادة ذلك على إمكانية البعث وحتميته جاءت هذه الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ آتَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجّه إلى الناس كلهم بأن ذريتهم جميعاً من البلائين التي عاشت وماتت من بعد طوفان نوح إلى اليوم، والبلائين التي تملأ جنبات الأرض حالياً، وممن سوف يخلفوننا إلى قيام الساعة، كل هؤلاء وأولئك كانوا محمولين في الفلك المشحون في صلب عبد الله ونبه نوح على نبينا وعليه من الله السلام. فالموجة الثانية من ذرية آدم إلى آخر من يعقب كانت في سفينة نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى ذلك فإن هذا النبي والذين معه في الفلك من صلب نوح يمثلون الأبوة الثانية للبشرية بعد هلاك جميع من كفر من قوم نوح بالطوفان^(٢).

(١) في ظلال القرآن، السيد قطب، ٦/٣٦٧٩.

(٢) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، ١/٢٠٠.

إنَّ البلائين من بني آدم الذين سوف يخلقون من بعدنا إلى قيام الساعة كل هؤلاء كانوا في الأصل من صلب أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لحظة خلقه، فالمعارف المكتسبة من علم الوراثة، تؤكد على حقيقة أن بني آدم جميعاً كانوا في صلب أبيهم آدم لحظة خلقه، أي في شيفرته الوراثة المتخلقة في خلاياه التكاثرية والتي يخلقها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من موضع دقيق في صلب أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، شاركته فيه أمنا حواء التي خلقها الله عَزَّجَلَّ من نفس الأصل الذي خلق منه أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله خلق كل شيء في زوجية واضحة، حتى يبقى - سبحانه - منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ثم جعل بنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من التزاوج بين بني آدم سنة من سنن الحياة وسبباً في تكاثر وعمارة الأرض، ولذلك جعل هذا الخالق العظيم الحكيم العليم الشيفرة الوراثة للإنسان في معظم خلاياه^(١).

ومن المخزون الوراثي الأول الذي كان في صلب أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقل جزء إلى صلب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى أصلاب من آمن به ونجا معه، وهذا الجزء يشكل المخزون الوراثي الثاني الذي خلق منه ولا يزال يخلق منه، وسوف يظل يخلق منه كل البشر من بعد طوفان نوح إلى قيام الساعة، ولذلك قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مخاطباً الناس من بعد نوح:

- ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

- وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

- وقال وهو أصدق القائلين: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

ومن معاني هذه الآيات القرآنية الكريمة الثلاثة، أن جميع أفراد الدورة الثانية للبشرية من لدن نجاة عبد الله ونبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه من نازلة الطوفان إلى قيام الساعة كانوا جميعاً في الفلك المشحون أي: في سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يكن ممكناً تصور هذه الحقيقة إلا بعد التطور الهائل والمذهل في علوم الوراثة مع بداية القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة الضمنية إلى هذه الحقيقة، والتأكيد على أنها من آيات الله في الخلق،

يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، كما يشهد للآية الحادية والأربعين من سورة يس بأنها وجه من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله القائل: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ٥١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٥٢ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ٥٣ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿[يس: ٤١-٤٤].

٣. قال تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٨٢ * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿[الصافات: ٧٨-٨٣]

بعد ذلك العمر الطويل لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والصراع المرير مع قومه، وما تبع ذلك من الأحداث الجسام ختم الله قصة نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الصافات بقوله: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٨٢ * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿[الصافات: ٧٨-٨٣]

- قوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]:

يعني أن الله تعالى أبقى له ذكراً حسناً في الناس الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، وسنة الله في المحسنين أن يخلد لهم بعد ذهابهم من الدنيا الثناء الحسن والذكر الجميل يستمر لهم ذلك إلى يوم القيامة.

- قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]:

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: أمنة من الله لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء^(١)، فقد رفعه الله إلى تلك المكانة العالية جزاءً على ما صبر في ذات الله على أذى قومه طويلاً، وهو أول من أودى في الله، فبذلك يكون نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سنَّ لكل من أودى في الله التضحية بكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله، ولا عجب في ذلك فهو أول الخمسة من الرسل أولي العزم^(٢).

(١) تفسير الطبري، ٦٠/٢١.

(٢) قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، عمر إيمان أبو بكر، ص ٨١.

وقد قدر الله تعالى بأن يجعل من ذرية نوح عُمَراً لهذه الأرض وخلفاء فيها، وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]، وتجلّى في الخافقين سلام الله على نوح جزاء إحسانه، وأيّ جزاء بعد سلام الله، والذكر الباقي مدى الحياة؟^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]:

تدلّ هذه الآية على أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد بلغ الغاية في تحقيق عبوديته لله، حتى وصل منها إلى درجة الإحسان، وهو أي الإحسان كما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

وقد خرج نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الدنيا وهو متوج بتاج الكرامة، فصار بذلك مثلاً للمحسنين في جزائهم على إحسانهم^(٣).

قال الرازي: والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن بقية ذكره الحسن في السنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته^(٤).

- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]:

وهذه الجملة بمثابة التعليل لما قبلها أي أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ حاز على تلك المناقب العالية لاتصافه بالإيمان الذي أهله أن يكون من عباد الله المؤمنين، وكثيراً ما يمدح الله خواص عباده بالإيمان، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حقق الإيمان في نفسه، وأرخص نفسه في سبيل نشره بين الخلائق، فوصل بذلك إلى أرفع المنازل وأعظمها عند الله.

(١) في ظلال القرآن، السيد قطب، ٢٩٩١/٥.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ رقم ٤٨، وفي:

صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، رقم ٩.

(٣) قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، عمر إيمان أبو بكر، ص ٨٢.

(٤) تفسير الرازي، ١٣/١٣٠.

- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِيَّتَ﴾ [الصافات: ٨٢]:

وهذه نعمة أخرى تضاف إلى تلك النعم السابقة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبرنا في هذه الآية أنه أَمَنَّ على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن به بأن أغرق جميع أعدائه الذين آذوه، واعترضوا سبيله وكانوا مدة حياتهم حجر عثرة في طريق دعوته وتحقيق أهدافه، فأراحه الله منهم بإنزال العذاب عليهم بطريقة تشفي صدور المؤمنين بدعوته، حتى صار عدوهم بالأمس القريب عبرة للمعتبرين، وانتهى الصراع المرير بين داعية الحق ودعاة الباطل إلى تلك النتيجة المؤلمة للمعاندین بما لم يكن في حسابهم^(١).

وليس هذا خاصاً بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، بل هو وعد من الله قطعته على نفسه لكل المؤمنين بالنصر الذي لا يتخلف، كما أنه وعيد منه لجميع المكذبين بالعذاب الذي لا يتأخر عن موعده، وتلك هي سنة في عبادته لا تتغير ولا تتبدل في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]^(٢).

- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]:

وختم الله عَزَّوَجَلَّ هذا النص بما يدل على أن العقائد والشرائع التي جاء بها نوح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قد بقيت منها بقايا صحيحة في القرون من بعده حتى أيام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه اطلع عليها رغم انتشار الوثنية في قومه فآمن بها، واتبعها إيماناً بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ واتباعاً له قبل أن يتخذه الله نبياً وبيعه إلى قومه رسولاً فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]، والآية تبين الصلة بين نوح وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في العقيدة والدعوة والطريق، فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين، ولكنه المنهج الإلهي الواحد الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه^(٣)، فقد أكد الله عَزَّوَجَلَّ بـ "إن - واللام المرحلة - والجملة الإسمية" بأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كان من شيعة نوح، أي: من أتباعه عقيدة وشرعية^(٤).

(١) قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أبو بكر، ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) في ظلال القرآن، السيد قطب، ٥/ ٢٩٩٣.

(٤) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، الميداني، ص ١٤٨.

﴿ثامناً: وصية نوح ووفاته:﴾

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءه رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان^(١)، مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمجامع جُبَّتِهِ، وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟ ثم قال إن نبي الله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين:

- آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات والسبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة^(٢) قصمتهن^(٣) لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق.

- وأنهاك عن: الشرك، والكبر. قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حستان؟ قال: لا. قيل: هو أن يكون لأحدنا حلة حسنة؟ قال: لا. قيل: أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قيل: أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمط الناس^(٤). قال ابن كثير: إسناده صحيح^(٥).

(١) السيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر وقيل: هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك، كأن القلانس كانت تعمل منها أو من نوعها ومنهم من يجعل ألفه متقلبة على واو ومنهم من يجعلها على ياء، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٣٢/٢.

(٢) مبهمة: محرمة مغلقة، قالها الألباني في السلسلة الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ١/ ٢٦٠.

(٣) قصمتهن: كسر الشيء وإبانتته.

(٤) غمط الناس: احتقارهم والطعن فيهم.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٠م، بعناية عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ١/ ٢٨٠. وانظر: صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنباء، أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ١/ ٢٢٨١.

وتوفي عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، واختلف المؤرخون في سن وفاته، ولم يتعرض القرآن لذلك، وقيل: إنه دُفن في المسجد الحرام، وقيل: إنه دُفن في بلده البقاع كرك نوح^(١)، ولا دليل على ذلك.

ويُروى أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذا العمر الطويل المديد، سُئل، فقيل له: "كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيت له بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر"^(٢).

وبهذا نكون قد أنهينا هذا المدخل بتوفيق الله وتسديده وترشيده وفضله ومنه ورحمته وإحسانه، إنني أدعو القارئ الكريم أن يقف على هذه المقاصد من قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١. الهدف الأول:

أن يشحذ عقله وفكره، ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فمن هدف القصص القرآني تفكير الناس واتعاظهم؛ لأن الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمعون من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصالحين. والتفكير واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة^(٣).

قال تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

٢. الهدف الثاني:

الاعتبار بما جرى للسابقين، والاستفادة من ذلك ولا يعتبر بهذا إلا أولو الأبواب والأبصار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وهذه الآية

(١) أولو العزم من الرسل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، عبد الله محمد المعتاز، دار السلام، الرياض، السعودية، ص ٤٩.

(٢) فبهذا هم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ٤٩.

(٣) القصص القرآني، الخالدي، ١/ ٣٣.

الأخيرة من سورة يوسف، وهي تعقيب على قصة يوسف في السورة وتبين الهدف من ذكر القصة، وهو ليس التسلية أو المتعة القصصية أو السرد التاريخي، وإنما هو العبرة والعظة^(١). ويكون الاعتبار بقصص القرآن لأولي الألباب، وهم أصحاب العقول الواعية، والبصائر المنيرة الذين يحسنون استخدام عقولهم وحواسهم، ويستفيدون من كل ما يشاهدون أو يسمعون أو يقرؤون ويطالعون، هؤلاء المتيقظون عندما يسمعون أو يقرؤون القصص القرآني وكلامه على الأمم السابقة يعتبرون، حيث يقيسون الأحداث الماضية على حياتهم وواقعهم فيستفيدون من ذلك، ويكون الجانب الإيجابي في القصص القرآني قدوة ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقف الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من الصالحين العاملين ويكون الجانب السلبي منه المتمثل في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السير على طريق أولئك، لئلا يصيبهم ما أصابهم، لكن الغافلين اللاهين لا يعتبرون من القصص القرآني، ويمرون على آياته وهم معرضون؛ لأن عقولهم معطلة وبصائرهم مطموسة^(٢).

٣. الهدف الثالث:

إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ مِنْ إِيرَادِ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيِّ تَثْبِيتَ فُرَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُلُوبِ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَقُلُوبِ أُمَّتِهِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَجَاءَ هَذَا فِي صَرِيحِ قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهذه الآية من أواخر آيات سورة هود، جاءت تعقيباً على ذكر مجموعة من قصص الأنبياء في السورة، والقصص المذكورة في هذه السورة هي: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

وبعد سرد القصص جاء ذكر الهدف من ذلك: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فقصص الأنبياء في القرآن تثبت لقلب النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) القصص القرآني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ١/ ٣٥.

لأنه ليس وحده على طريق الدعوة والرسالة، وإنما سبقه على هذه الطريق إخوة أنبياء كرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام وهو يواجه كما واجهوا، ويسمع كما سمعوا، ويؤذى كما أؤذوا، فعليه أن يصبر كما صبروا، لينتصر كما انتصروا.

وإنَّ قصص الأنبياء يزيد يقين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه على حق، وأن أعداء الكفار على باطل، وأنه سيظهر وسينتصر، وأن دينه سيعلو ويتشر وأن أعداء سيهزمون ويخسرون، والقصص القرآني تثبت لأفئدة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحق وزيادة مواجعتهم وتحديهم وجهادهم لأعدائهم.

ويحقق القصص القرآني - ومنها قصة نوح - هذا الهدف الرائع لكل من سار على طريق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التربية، والدعوة وفي الإصلاح والجهاد والمواجهة، كل الدعاة والمصلحين وأبناء الأمة الغيورين تثبت أفئدتهم وقلوبهم على الحق عندما يقفون مع القصص القرآني ويتدبرونه ويفهمونه، ويقدم لهم هذا القصص الزاد والعدة، ويقدم لهم المعرفة والفائدة ويمنحهم الوعي والبصيرة، ويشحذ همهم ويرفع معنوياتهم ويسمو بنفوسهم ويصوب مسيرتهم وحركتهم^(١).

«تاسعاً: قوم عاد في ضوء التاريخ القديم والبحوث والاكتشافات الحديثة»

يقول العلامة السيّد الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب كتاب تاريخ أرض القرآن: "أنَّ عاد لم تكن قبيلة صغيرة ولا محدودة بل كانت أمة عظيمة أسست أقدم حضارة في العالم القديم، وكانت معظم أجزاء آسيا وأفريقيا ساحاً لقوتها وشوكتها، وكانت القصور الفخمة الرائعة من صناعة أيديها، فلم تكن للعرب أمة غيرها فيها موعظة وعبرة لها. ومن ثمَّ كرَّر القرآن الكريم قصة هذه الأمة العربية العظيمة"^(٢).

١ - أرض الأمم السامية:

الشعوب والأمم التي يتصل بها تاريخ أرض القرآن هي الأمم السامية بصفة عامّة. وقد أجاب العلامة سليمان الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ عن سؤال قيل فيه: ما هي الأمم السامية؟ فقال:

(١) المصدر السابق، ٣٦/١.

(٢) تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم، ٢٠١٦م، ص ١٧٢.

قسّم مختصّو علم السلالات، وعلم الألسنة شعوب العالم -لتشابه أخلاقها، وعوائدها، ومعتقداتها، ولغاتهما، وتماثل أجسامها، وأعضائها، وعقولها- إلى ثلاث أسر مختلفة:

- الأمم الأردية: مثل شعوب الهند وإيران وأوروبا.
 - الأمم التركية والآسيوية: كشعوب تركستان والصين ومنغولية.
 - والأمم السامية: كالعرب والآراميين والفينيقيين^(١).
- ويُقسم بعض العلماء شعوب العالم حسب ألوانهم إلى ثلاثة أنواع:
- البيض؛ كعامة الأمم السامية، والأوروبيين.
 - السود أو الحمر؛ كسكان إفريقيا.
 - الصفرة؛ كشعوب اليابان والصين، وبقية الأمم الطورانية^(٢).

وهناك تقسيم ثالث قامت به الإسرائيليات التي تقسّم العالم بعد طوفان نوح إلى ثلاث أسر، تقول تلك الرواية: إنّ لنوح عَلَيْهِ السَّلَام ثلاثة أبناء: يافث، وحام، وسام. والنّاس كلّهم من ذرية هؤلاء الثلاثة. ولا دليل حقيقي على هذا التقسيم، وقد توسّعت تلك الأساطير. ومن تلك الإسرائيليات، ما ذكره ابن كثير نقلاً عن التّوراة فقال: وقد ذُكر أنّ (حاماً) -ولد نوح- واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوّه خِلقة نطفته، فوُلد له ولد أسود، وهو (كنعان بن حام) جدّ السودان. وقيل: بل رأى أباه نائماً، وقد بدت عورته فلم يسترها، وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن يغيّر نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته^(٣). وغير ذلك من الأخطاء والموضوعات والإسرائيليات المخالفة للمعقول والمنقول، والتي -للأسف- تأثرت بها كتب التواريخ وأيام الناس، وتسرّبت إلى التّفاسير.

(١) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣) صحيح قصص القرآن، القاهرة، حامد البسيوني، دار الحديث، القاهرة، دار البصائر، الجزائر، طبعة ١٤٢٦هـ -

تُسجّت خرافات وأساطير يجب تنقية كُتب التراث منها، والاعتماد على الرؤية الحضاريّة القرآنيّة التي قدّمها القرآن الكريم في قصّة نوح عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

وقد افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَام، فقد زعموا أنّه شرب الخمر، فسكّر فتعرّى في داخل خبائه، فأبصر ولده حام أبو كنعان عورة أبيه، وخرج، وأخبر أخويه بما كان منه، فدخل الولدان على أبيهما، وأخذا الرّداء، ووضعاه على أكتافهما، ومشيا للخلف حتّى لا يريا عورته، فلمّا وصلا إليه سترا عورته، فلمّا استيقظ نوح، وعلم بما فعل ابنه غضب عليه وأخبره أنّ كنعان بن حام وذريّته سيكونون عبيداً لأبناء سام ويافث، وأخبره أنّه سيكون عبداً لإخوته، وبارك ساماً قائلاً: مباركُ الرّبِّ إلهُ سام وليكن كنعان عبداً لهم^(٢).

وعلق الأستاذ عبد الوهاب عبد الرزّاق الرّاوي على رواية: (الطوفان التوراتي في كتاب التكوين) فقال: "وهكذا يتحقّق غرض اليهود الخبيث من هذه الرواية، وهو الطّعن ثم اللعنة ببني كنعان، السّكان الأصليين لأرض كنعان -فلسطين- ورفع شأن بني سام، ومباركتهم، ومنهم بنو إسرائيل، ولكن غفل أولئك الكُتّاب اليهود بأنّ العرب ذريّة عدنان يرجعون إلى سام أيضاً"^(٣).

وقد اهتم مؤرخو اليهود بالمادة التاريخيّة، ونسج بعضهم حولها خيالات، لخدمة معتقداتهم وأفكارهم. وفصّلوا فيما يتعلق برؤيتهم الخاصّة في أبناء نوح -على حد زعمهم- (يافث وحام وسام)، وقالوا إنّ الناس كلّهم من ذريّة هؤلاء الثلاثة. وفصّل العلامة سليمان النّدوي في كتابه تفصيلات كثيرة حول ذلك، ثمّ أجاب على سؤال: إلى أيّ مدى تتوافق تقسيمات التّوراة هذه مع الاكتشافات والبحوث العلميّة؟

وقد ذكر أنّه أجيّب عن ذلك بإجابات متعدّدة، فطائفة من علماء أوربة تراها هذراً، وتري طائفة أخرى أكثر جديّة أنّها ليست نسبيّة ولا لسانیّة وإنّما هي تقسيمات سياسيّة وجغرافيّة^(٤).

(١) نوح والطوفان العظيم، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص ٣٥٠.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح التاسع، ص ٢٦-٢٧.

(٣) قصص التوراة والإنجيل، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص ٥٢.

(٤) تاريخ أرض القرآن، ص ١١٩.

ثم يقول: ولكن الواقع يثبت أن قائمة أنساب سفر التكوين لا تتحدث إلا عن شعوب فلسطين والبلاد المجاورة لها كسورية، وبابل، وكلدان، وميديا، وسيسينيا، ومصر، ودمشق، وليبيا، وإفريقية، وسيناء وبلاد العرب، ويؤيد ذلك أن هذه القائمة تحتوي على أسماء الشعوب، وما فيها من أسماء الأشخاص فهي كذلك أسماء الشعوب، وتتوحد أمكتها إلى الآن حوالي فلسطين، وأسماء هؤلاء الأشخاص وهذه الشعوب ليست أعلاماً وإنما هي أسماء جغرافية كما سنبحث عن ذلك فيما يأتي.

فسواء سلّمنا بتقسيم التّوراة النّسبي (سام، وحام، ويافث) أو بتقسيم علماء الألسنة اللساني (الإيراني، والطوراني، والسامي)، أو تقسيم علماء السلاطات اللوني (الأبيض، الأحمر، والأصفر)^(١)؛ فإنّ هذه التقسيمات كلّها تجعل سكّان بلاد العرب والشام والعراق زمرة واحدة، فالتّوراة تسميهم بني سام، والتقسيم اللساني يجعلهم أمماً سامية، والتقسيم اللوني يجعلهم بيضاً. فالفرق بين بني سام والأمم السامية أن بني سام تطلق على الشعوب التي تنسبها التّوراة إلى سام، والأمم السامية تطلق على جميع الشعوب التي تتكلم باللغات السامية، فبنو عيلام التي سكنت على سواحل خليج فارس سيسينيا، والتي تسمى سيستان^(٢)، واللود التي سكنت في لوديا لا تدخل نطاق الأمم السامية؛ لأنها لا تتكلم باللغات السامية، بينما كنعان^(٣) (الفينيقيين)، وبابل الأول، وكوش (الجيش)، والعموريّون، وغيرهم، تعد من الأمم السامية، لأنها ما زالت، ولا تزال تتلکم باللغة السامية^(٤).

٢- مسكن الأمم السامية الأول:

سكنت الأمم السامية التي تكونت بعد الطوفان العظيم في الأمكنة المتفرقة، ولكنها كانت متجاورة. والسؤال الآن: أين سكنت لما كانت في طورها الأول، ولم يتجاوز عددها الأفراد والأسر؟

(١) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه. سيستان: تقع ما بين إيران وباكستان وتسمى سجستان، أهلها هم البلوش.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

يُجيب عنه المؤرخون العرب بإجابة واحدة، وهي: أن مسكنها الأول كان بلاد العرب. ولعلماء الأجناس والألسنة الأوربيين أربع وجهات نظر في الإجابة عن هذا السؤال:

الأولى: أن مسكنها الأول بلاد إفريقيّا.

والثانية: أن موطن بني سام الأول أرمينيا وكردستان.

والثالثة: على شاطئ الفرات.

والرابعة: بلاد العرب.

وبعدما ذكر الشيخ سليمان الندوي دليل كل فريق، قال: وأقوى النظريات وأصوبها، وأمتنها دليلاً وبرهاناً: أن مسكن الأمم السامية الأول بلاد العرب، وهذه النظرية يُناصرها جماعة كبيرة من علماء أوربا وأمريكا وعلى رأسهم: دي خويه، وشريدنر، وونكلر، وتيل، ومير، وشبرنجر، ونولدكه، ويؤيدها من علماء الإنكليز: كين، وروبرتسن سمث، وصموئيل إنك، ووليم رايت. ومن العلماء الأمريكيان: ساي، وراجرس. وملخص أدلة هؤلاء:

- يشهد التاريخ أن الأمم خرجت من بلاد العرب وانتشرت في العالم.

- اللغة العربية أقرب اللغات السامية كلها إلى اللغة السامية القديمة.

- هيكل العرب الجسديّ هيكل ساميّ صحيح خالص.

- حياتهم الاجتماعيّة مثال حقيقي للحياة السامية البدائيّة الصحيحة^(١).

كما أن بلاد العرب بحدودها الطبيعيّة (شبه جزيرة العرب) يسمونها منذ القديم بهذا الاسم (جزيرة العرب)، ويرونها وسط الأرض المعمورة، والبحوث الحديثة تؤكد ذلك: أنّها تقع في قلب العالم القديم، وأقرب البلاد إليها في الشرق فارس، وفي الجنوب الهند، وفي الغرب الحبشة والسودان ومصر وفي الشمال بلاد الشام والجزيرة والعراق^(٢). ومما قاله علماء الألسنة، ومختصو علم الأجناس في هذا الموضوع:

(١) المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٢.

- الكاتب المعروف ومحقق الألسنة السامية سايس في كتابه (قواعد اللغة الآشورية) مُعرباً عن أفكاره نحو هذه النظرية: تكشف التقاليد السامية من جميع النواحي عن أن بيتها الأصلي هو بلاد العرب، فهذه هي المنطقة الوحيدة من العالم التي لا تزال سامية خالصة، فالخصائص النوعية، والشدّة في التدين، والتوحّش، والابتعاد عن الأجانب، والحياة البدوية، فإنّ كل ذلك يرجّح ما ذكرنا.

- يقول شريد - وهو يُعرب عن أفكاره في مجلة ألمانية -: إن القصص الدينية، والبحوث اللغوية، والتحقيقات الجغرافية والتاريخية كلّها تؤكد أن مسكن جميع الأمم السامية الأول هو بلاد العرب^(١).

- ممّا يَفْصِل أمر هذا النقاش؛ أنّه ليست أمة غير أمة العرب تدّعي منذ القديم أن بلادها مسكن بني سام الأول، ومولد الأمم السامية إلّا العرب، فهم يدّعون ذلك بصفة عامّة، والحقّ أنّه إذا كانت الشواهد والقرائن تؤيّدهم، وليس هناك مدع آخر فالقضاء لهم.

لقد لفتت كتب التاريخ العربية نظر القراء إلى هذه المسألة، يقول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): أمّا سام بن نوح فسكن وسط أرض الحرم وما حوله: اليمن وحضرموت إلى عمان إلى البحرين، إلى عالج وبيرين ووبار، والدو والدهناء^(٢).

ويقول معاصره اليعقوبي (ت ٢٨٠هـ): وصار لولد سام الحجاز واليمن وباقي الأرض^(٣). وزد على هذه المقدمات أن القرآن يضيف على مكة خطاب (أمّ القرى) ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

(١) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٢) كتاب المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص ١٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق اليعقوبي، ١/ ٢٠.

٣- الهجرة من المسكن الأول:

ذكر علماء التاريخ الهجرات القديمة، وهي:

الأولى: قبل الميلاد بألفين وخمسمائة، أو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، إذ تحرّكت القبائل من جزيرة العرب، إلى بابل وآشور ومصر وفينيقيا (كنعان).

والثانية: هجرة قبائل الآدوميّين والموآبيّين؛ والموبانيّين سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، وانتشرت في البلدات المجاورة ولكن نطاقها كان أخف من الأولى.

والثالثة: هجرة قبائل معين وسبأ.

وكانت الهجرة الرابعة المذكورة في القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، أي بعد المسيح بستّة قرون^(١).

وقد ذكر كثير من علماء التاريخ تفاصيل عن الهجرة الأولى، قال المؤرّخ الأمريكي وليم روجرس في (تاريخ بابل): مسكن الأمم السامية هي بلاد العرب، اندفعت منها بحثاً عن أراضٍ خُضر خصبة وانتشرت في بابل والجزيرة المنطقة الغربيّة، البعيدة، أي: أرض كنعان^(٢).

وقد كتب الكاتب الإنكليزي صموئيل إنك في كتابه (أصول البشريّة): نرى الشعوب السامية في غير بلاد العرب أينما دخلوا مهاجرين أو غُزاة فاتحين، وحيثما حلّوا وجدوا شعوباً غيرهم متمكّنين من ذلك المكان قبلهم، أمّا بلاد العرب فسكّانها أصليّون. وتؤكد الروايات الكلدانيّة والآشوريّة القديمة بأنّ الأمم السابقة كانت قادمة من الجنوب، بعضها من سواحل خليج فارس، وأخرى من بادية العرب والشام وتندمج تدريجياً مع السكّان الأصليّين أو تدفعهم وتحلّ محلّهم^(٣).

(١) تاريخ أرض القرآن، ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

إنَّ الأمم السامية تفرّقت بعد اجتماعها مدّة، ونزحت من بلاد العرب، وتفرّقت في الأراضي المجاورة، وحصلت لها قوّة وسلطة، ولم يجهل المؤرّخون العرب هذه الحادثة^(١). حيث يقول المؤرّخ الشّهير ابن قتيبة في المعارف عن انقسام بني سام، وتفرّقتهم: "منهم العمالق، أمم تفرّقوا في البلدان، ومنهم فراغة مصر والجابرة"^(٢).

ويقول ابن خلدون: "وكانت لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب، وامتدّ ملكهم منها إلى الشام ومصر في شعوب منهم"^(٣).

وصرّح بمثل ذلك غيرهما من مؤرّخي العرب، وقام هشام الكلبي -الخبير بتاريخ عرب الجاهليّة، وراويّتهم- بتأليف كتابين على تفرّق هذه الشعوب، وذكر ابن النّديم في (الفهرست) أنّ أحدهما كتاب: (تفرّق عاد). والثاني كتاب: (من انتقل من عاد وثمود والعمالق وجُرهم وبني إسرائيل من بلاد العرب)^(٤).

وذكر العلامة سليمان النّدوي رَحِمَهُ اللهُ أَنْساب الأمم السامية الأولى والثانية، وبني قحطان، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وبيّن أحوالهم، وكشف عن مساكنهم في كتابه تاريخ أرض القرآن^(٥).

٤- الأمم السامية الأولى:

كانت أقدم سكان بلاد العرب، ثمّ خرجت منها، لأسباب مختلفة، وانتشرت في بلاد بابل ومصر، والشام. ويسمّيها المؤرّخون العرب: الأمم البائدة، لأنّها تدفّقت من بلادها، وذهبت أدراج الرّياح، أو أنّ حوادث الدّهر وتطوّرات الزمان قضت عليها. وبعض المؤرّخون يسمّيها العرب العارية، فإنّها كانت هي العرب الخُلص، ولم تحتك بأجناس أخرى، وسمّيت العمالق تبعاً لليهود. ولا يسمّي علماء الآثار الأوربيّون هذه الأمم بأسمائها

(١) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٢) المعارف، أبو محمد بن قتيبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص ١٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، ٢٠٠١م، ٢/ ١٥٩.

(٤) تاريخ أرض القرآن، سيد سليمان النّدوي، ص ١٣٣. وانظر: الفهرست، ابن النّديم، ص ١٥٤.

(٥) تاريخ أرض القرآن، ص ١٣٣.

المختلفة، وإثما يسمونها الساميين، أما العرب فيسمون كل قبيلة منها باسمها الذي عرفت به في عهودها المختلفة، فمنها عاد، وثمود، وجُرهم، ولحيان، وطَّسَم، وجديس، وقبائل أخرى. وكانت عاد أكبر هذه القبائل، وأوسعها نفوذاً، وتفرّدت بالسلطة بين سائر العرب البائدة، وكانت لها - حسب الأخبار العربية - دول قويّة جبّارة في بلاد العرب، ودول في بابل ومصر. ويرى عامّة المؤرّخين العرب بأنّ نسب هذه القبائل البائدة ينتهي إلى إرم بن سام، وفروعه المختلفة، ولكن تضاربت آراؤهم في تعيين الفروع التي تنسب إليها.

ونُتبت فيما يلي أنساب قبائل إرم من كتابين، أحدهما مصدر قديم هو (المعارف) لابن قتيبة^(١)، والثاني كتاب متأخر هو سبائك الذهب للسويدي^(٢).

ابن قتيبة	السويدي
عماليق بن لاوذ بن إرم بن سام	عماليق بن لاوذ بن سام
جديس بن لاوذ بن إرم بن سام	جديس بن إرم بن سام
عاد بن عوص بن إرم بن سام	عاد بن عوص بن عييل بن إرم بن سام
ثمود بن جائر بن إرم بن سام	ثمود بن جائر بن إرم بن سام
طسم	طسم بن لاوذ بن سام

إن من الصّعب تحقيق هذه الأنساب المذكورة، وقد حاول ابن خلدون حل هذه المشاكل، ولكن البحث عن النور في الظلام المطبق لا جدوى منه، فمما لا شك فيه أنّها بنو سام، وتتقدّم خطوة، فنقول: إنّ العصر الآراميّ كان الغالب عليها، وتكثر الكلمات الآرامية في اللغة العربية، أيّ تعرّبت وأصبحت عربيّة، ونقوش ثمود التي تمّ العثور عليها هي بالخطّ الآرامي^(٣).

(١) المعارف، ص ١٠.

(٢) سبائك الذهب، ص ١٣-١٤.

(٣) دائرة المعارف البريطانية، ٢٤/٢٢٦.

وكانت ثمود نفسها تسمى إرم، وأمّا عاد فإنّ جزء لا ينفكّ من اسمها، كان يقول: عاد إرم، فلمّا هلكوا، قيل: ثمود إرم، فلمّا هلكوا، قيل: نمرود إرم^(١).

وإنّ النقوش التي تمّ العثور عليها في بابل وآشور والشام وكنعان وفينيقيا وشمالى بلاد العرب؛ هي باللغة الآرامية، أو تكثّر فيها الكلمات الآرامية^(٢). وحينما تظفر أمة كبيرة بالسلطة، فإنّ جزءاً واحداً منها يتميّز عن سائر أجزائها، وتُعرف الأمة بكاملها أنّها متسلطة قويّة لانتسابها إلى ذلك الجزء، فلا بدّ إذاً أن يمتاز جزء من بين الأمم السامية الكثيرة الأفراد بالقوّة الحاكمة، وتخضع له سائر الأجزاء مهما يكن اسم هذا الجزء، فإنّ العرب تُسمّيه عاداً، ولا مشاحة في الاصطلاحات. حيث يرى بعض الكتاب الأوربيين أنّ عاداً أسطورة من الأساطير، لكنّ ذلك خطأ فاحش، فقد قرّرت البحوث والاكتشافات الحديثة أنّ العرب -أي الأمم السابقة- كانت جماعة كبيرة، أقامت دولاً كبيرة في بابل ومصر والشام، هذا هو الواقع، فإذا كان العرب يسمّون هذه الأمم القديمة (الأمم البائدة)، ويسمّون أفرادها عاداً وثمود وطسماً وجديس بلغتها، فهل وضع الأسماء هذه جريمة تطمس الواقع؟

وأصحّ مصدر عندنا هو القرآن المجيد، وهو يتحدّث عن حقيقة عاد قائلاً: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّكَ إِعَادٌ ۚ﴾ [إرم ذات اليمام: ٦، ٧]. فظهر من هذه الآية أنّ عاداً جزء من إرم، ويقول الله تعالى في مكان آخر: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. فأول دولة قويّة ظهرت في بلاد العرب بعد هلاك قوم نوح، هي عاد في لغة القرآن الكريم، أليست هذه حقيقة الأمم السامية القديمة؟^(٣).

٥- عاد:

يرى الشيخ سيد سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ بأنّ الأمم السامية القديمة، وعاداً اسمان مترادفان، وأن معنى عاد في اللغة العبريّة (الرفيع والشهير) كذلك (إرم) و(شم) و(سام)

(١) تاريخ ابن خلدون، ٧١/٢.

(٢) تاريخ أرض القرآن، ص ١٣٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٩.

كذلك تعنيان الرفيع والمشتهر، وتوجد آثار هذه المعاني في اللغة العربية كذلك، فمعنى إرم الجبل والعلم، والسَّمو ولا يزالان يُستعملان في معنى العلوّ والارتفاع.

ولم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ، فلم يذكروا عهداً للعرب البائدة، ولكن انطلاقاً من أنّ المؤرّخين العرب جعلوا عاداً ابناً حقيقياً لعوص بن إرم بن سام، فإنَّ عهده يرجع إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وحيثما ذكر القرآن عاداً جعلها خلفاء قوم نوح.

ويُعرف من هذا، بأنَّ التطوّر الأول لبني سام بعد عمارة بلاد الشام مرة أخرى يبتدئ من عاد، فهذه الآية لا تعيّن عهدها فحسب، بل تؤيّد نظريّتنا كذلك؛ وهي أنّ الأمم السامية الأولى وعاداً في الغالب اسمان مترادفان، ومن ثمّ سماها القرآن الكريم عاداً الأولى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]^(١).

يقول النّدوي رَحِمَهُ اللهُ: لكن من المسلّم به الآن - كما قدّمت - أنّ عهد تطوّر بني سام الحقيقيّ وازدهارها بدأ سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد إلى ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وهذا هو تاريخ حملة الأمم السامية على مصر وبابل، فيُعلم من ذلك أنّ وجود عاد وإرم يبتدئ من ٢٢٠٠ ق.م. وأمّا تعيين انتهائها فيمكن تقديره بأن نعرف ظهور قوة أخرى في ١٥٠٠ ق.م في اليمن، وقبله بقليل عهد رسول الله ونبيه كليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

كانت عاد قد هلكت قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَام، والقرآن الكريم يقدّم عاداً بصفة دائمة على ذكر موسى وفرعون، بل يقول مؤمن آل فرعون في بلاط فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [مِثْلَ دَابٍ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ] [غافر: ٣٠، ٣١]. فيكون عهد ازدهار عاد من ٢٢٠٠ قبل الميلاد إلى ١٧٠٠ قبل الميلاد، أمّا الصالحون من عاد فقد بقوا إلى بداية عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام، وقد ذكرهم اليونان باسم عاد إرم، وعادٍ سكان حضرموت واليمن، ويفرّق بينهما بعاد الأولى وعاد الثانية^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١.

٦- مساكن عاد:

كانت مساكن عاد المركزية تقع في أفضل أجزاء بلاد العرب، أي: في اليمن وحضرموت، على سواحل بحر الهند إلى ساحل الخليج إلى حدود العراق، ثم من العراق إلى البلاد الأخرى، وهذا هو طريق هجرة الأمم السامية حسب البحوث الحديثة^(١).

كان تفرّق عاد، وارتحالها إلى البلاد النائية معروفاً ومشتهراً عند العرب، حتّى إنّ الشعراء ذكروا ذلك في قصائدهم، إذ يقول الشاعر الجاهلي محرز بن مكعب الضبي:

حتّى انتهى لمياه الجوف ظاهرة مالم تر قبلهم عادٌ ولا إرمُ

٧- دول عاد:

بلد العرب كانت أرضاً قاحلة لا مجال فيها لتقدّم الشعوب والأمم الكبيرة الطامحة. وشبه جزيرة العرب محاطة بالماء من الغرب والجنوب والشرق، فطريقها الطبيعي الميسور هو إلى المناطق الشماليّة الشرقيّة، أي: بابل وسيناء.

وبابل طريق إلى إيران، والشماليّة الغربية أي سيناء طريق إلى الشام، والشام طريق إلى البحر المتوسط ثم إلى أوروبا وإفريقيا^(٢).

٨- العرب الساميون أو عاد في بابل:

قال المؤرخ ابن قتيبة في تاريخه عن الساميين: فمنهم العمالق أمم تفرّقوا في البلدان، ومنهم فراعنة مصر الجبابرة^(٣).

وهناك تحقيق لابن خلدون ذكره في تاريخه، قال: إنّ قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق^(٤)، يُقال: إنّهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام^(٥).

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣) المعارف، أبو محمد بن قتيبة، ص ١٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ٣٥٩/٢.

(٥) المصدر السابق، ١٩/٢.

ويَدَّعي الفرس أنَّهم كانوا مالكين لدولة العراق وبابل القديمة، ويزعمون أنَّ الضَّحَّاك العربي استولى على البلاد بعد جمشيد الذي كان معاصراً لبني سام بن نوح، والعرب يعترفون بذلك، (واليمن تدَّعيه، وتزعم أنَّه من أنفَسِها، وأنَّه الضَّحَّاك بن علوان)^(١).

ولقد "بلغنا، والله أعلم، بأنَّ الضَّحَّاك هو نمروذ، وأنَّ إبراهيم خليل الرحمن ولد في زمانه، وأنَّه هو صاحبه الذي أراد إحراقه"^(٢). وكذلك الفردوسي -الذي يعد ترجماناً لتاريخ إيران- يشرح في ملحمة الكبرى، ذكر الضَّحَّاك العربي، وعهده الممتد إلى ألف سنة^(٣).

وهناك مؤرَّخ كلداني لبابل يسمَّى بروشوس، أصله من بابل وكان كاهناً في معبد لبعل، وكان قبل الميلاد بأربعمائة سنة ألف كتاباً عن تاريخ بابل القديم، وفُقد أصل كتابه، لكنَّ الكُتَّاب اليهود واليونان اقتبسوا منه أشياء ومن النُّصوص التي اقتبسوها منه مسرداً لملوك بابل، يذكر الملوك العرب بعد ذكر الملوك الكلدانيين، ويبلغ عددهم تسعة، وعهد مملكتهم استمرَّ ٢٢٥ سنة.

ويرى بعض العلماء الذي اهتموا بالاكشافات الحديثة في الحفريات في مدينة بابل، فوجدوا صفحات منقوشة على الحجارة في تاريخ بابل وآشور، وتحديث الندوي عن هذه النقوش ببابل القديمة (أي قبل عهد فارس)، وكتابات التي تمَّ العثور عليها باللغة السامية وبغيرها، والتي كشفت النقاب عن أصول شعوب بابل القديمة، وعلى معظم هذه الكتابات تاريخ الملوك والكتابات التي ليس عليها تاريخ تمَّ تعيين عهودها لقرائن أخرى، وأما النقوش والآثار غير السامية فهي أقدم الآثار والتي تقرر أنَّ غير الساميين سكنوها قبل الساميين، ولغتهم السومرية أو الأكادية، فنستنتج من ذلك: أنَّ أولئك السَّكان كانوا آكاديين وسومريين. ويبدو أنَّهم من أصل طوراني كما يدلُّ على ذلك تشابه أسمائهم ولغاتهم.

(١) تاريخ الطبري، ١/١٣٤.

(٢) المصدر السابق، ١/١٦٣.

(٣) تاريخ أرض القرآن، ص ١٤٥.

إنّ وضع جميع كتابات بابل لذلك العهد في ترتيب، يؤكّد أنّه في بداية سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد، تختلط بها الكلمات والخطوط والأفكار إلى السامية، وتظلّ هذه الكتابات والآثار سامية إلى مدّة طويلة.

ثمّ يبدأ عهد جديد للكتابات السومرية ينتهي بلغة طورانية كان موطنها الساحل الفارسي للخليج العربي. ثمّ تعود اللغة السامية بعد فترة في سنة ٢٥٠٠ ق.م، فإذا ما أُنشأ الفراغ ظهرت أمامنا خريطة سلسلة لتاريخ قوميّ وسياسيّ، أولها السومريون والأكاديون، ثمّ بدأ الاختلاط بعنصر العرب السامي الذي نال قوّة سياسيّة تدريجيّاً، وظلّ المُلْك تحت يديه لمدّة ثمّ عاد السومريون إلى القوّة والملك مرّة أخرى، حتّى غلب العيلاميين، ثمّ ازدهرت القوّة العربيّة السامية بعد حكم الغيلاميين، وقضت على الغلاميين، ثمّ تأسست دولة وطنيّة مشتركة في سلسلة دول بابل القديمة، ذكرت القبائل السامية العربيّة مرّتين، مرّة سنة ٤٠٠٠ ق.م، وأخرى ٢٤٠٠ ق.م^(١).

٩- العرب الساميون، أو عاد في مصر:

إنّ لهذه القضية في مصر ثلاثة أجزاء على غرار العراق؛ رواية العرب، وتصريحات المصريين، وتصديق الاكتشافات الحديثة.

أ- يقول ابن قتيبة: فمنهم العمالق؛ وهم أمم تفرّقوا في البلدان، ومنهم فراعنة مصر^(٢).

ويقول المؤرّخ اليعقوبي: فلمّا ملكوا النساء طمع فيهم العمالقة من ملوك الشام، فغزاهم ملك العمالقة، وهو يومئذ الوليد بن ذومع، فوطئ البلاد، فرضوا أن يملّكوه عليهم، فأقام دهرًا طويلاً، ثمّ ملّك بعده ملك آخر من العمالقة يُقال له: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف^(٣).

ويمكن أن تكون الجزئيّات والأسماء غير صحيحة، لكنّ أصل القصّة صحيح، وليس من العجب أن تكون هذه الأسماء العربيّة ترجمة للأسماء الأصليّة، وورد مثل ذلك في معجم

(١) المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٢) المعارف، ص ١٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ١/ ١٦٠.

البلدان لياقوت الحموي، حيث قال: "وقيل إنّ فراعنة مصر كانوا من العماليق، وكان معهم فرعون إبراهيم... وفرعون يوسف... وفرعون موسى" (١).

ويقول الطبري: "وإنّهُ ملّك على مصر أخاه سنان بن علوان، وهو أوّل الفراعنة، وإنّهُ كان ملك مصر حين قدومها إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَام" (٢).

ويقول ابن خلدون: "إنّ بعض ملوك القبط استنصر ملك العمالة... فجاء معه وملك مصر" (٣).

وقد استولى على مصر شعب أجنبيّ قبل الميلاد بألفي سنة، يسمّيه أهل مصر شاشوش (الرعاة)، والهكسوس (الملوك الرعاة)، وهم من العرب. وقد ذكر ذلك مؤرّخ مصر القديم ماثون الإسكندري تاريخ مصر باللغة اليونانيّة قبل الميلاد بمئتين وستين سنة، وأصل الكتاب مفقود، لكنّ المؤلّفين اليونان أحالوا على نصوصه المتفرّقة، وممن استند إليها: المؤرّخ اليهودي يوسفوس (٤).

إنّ الآثار التّاريخيّة تثبت وجود الملوك الرعاة في حكم مصر وكانت إقامة يوسف وبني إسرائيل في عهد هؤلاء الملوك العرب الساميين أو الرعاة كما صرّح بذلك المؤرّخون العرب (٥). وقد فصلتُ في كتابي: (النبيّ الوزير يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين) تلك الفترة التي عاش فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وإخوانه. وتعرّضتُ في كتابي (موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين)، ما حدث لبني إسرائيل بعد وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وانتقال الحكم من الهكسوس (الساميين) إلى الفراعنة.

(١) تاريخ أرض القرآن، ص ١٥٦.

(٢) تاريخ الطبري، ١/ ١٣٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ١٢٠.

(٤) تاريخ أرض القرآن، ص ١٥٧.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٠.

إنّ مدّة حكم العرب الساميين لمصر التي ذكرها التاريخ، وهي المدّة من عهد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى ما قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقليل^(١)، وإن كانت بعض كتب التاريخ غير دقيقة في معلوماتها، وحدثت فيها بعض الأخطاء في أسماء الملوك، وعدم التفريق بين ملوك الهكسوس وفراعنة مصر.

كان للعرب من بين الأمم السامية أقوى علاقة بمصر، فكانت هاجر أم بني إسماعيل العرب من مصر، وكانت قوافل العرب ترحل إلى مصر بصفة دائمة، ولما وقعت المجاعة في عهد سليمان في مصر وما حولها من البلاد، طلبت ملكة اليمن التي كانت موطن عاد والعمالة حسب الرواية العامّة، الطعام من مصر، ويظهر ذلك من النقش الذي وجده علماء الآثار المسلمون في اليمن في القرون الأولى^(٢)، وهذا يُظهر العلاقة بين عرب اليمن والعرب الساميين الذين كانوا يحكمون مصر باسم الملوك الرعاة^(٣).

وقد أكّدت الاكتشافات الحديثة لعلماء الآثار المصريّة، أنّ الهكسوس كانوا عرباً ساميين. ويقول المؤرّخ الألماني هيرن: يظهر من هذه الحادثة أنّ هذه القبائل كانت غازية على مصر من جهات شتّى، لكنّ القبائل القادمة من الشرق -أي: العرب- فكانت أقواها، إنّها غزت مصر السفلى^(٤)، ويستمرّ قائلاً: إنّ لحاهم الطويلة وثيابهم الفضفاضة، كل ذلك يدلّ على أنّهم عرب، والواقع، أنّ الدلائل على أنّ الهكسوس عرب متضافرة، وهي كما يلي:

- تصريح العرب أنّهم حكموا مصر في العهد القديم.
- اعتراف قدماء مصر بأنّ العرب دخلوها غزاة حاكمين.
- التّطابق اللفظي والمعنوي بين الملك الأول للهكسوس وفتح مصر الذي ذكرته العرب.
- الأصل العربي أو السامي لأسماء ملوك الهكسوس.

(١) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) المصدر السابق نفسه.

- الهيئة العربية والزيّ العربي لتمثيلهم الأثرية.

- العلاقات القديمة بين العرب ومصر.

- النعوت التي وُصِفَ بها الهكسوس ووجودها بعينها في العرب.

- قرائن التوراة وإشاراتها.

- تأييد علماء الآثار.

- تصديق معظم مؤرّخي أوربا بعريّتهم بناء على تصريحات يوسفوس وغيره القديمة^(١).

١٠- العرب الساميون أو عاد في البلدان الأخرى (آشور، وإيران، وفينيقيا، وقرطاج،

وكريت، واليونان):

إنّ هجرة العرب الساميين الأولى إلى هذه البلدان وتأسيسهم دولة فيها؛ هو حادث يبعث على العجب ولكنه غير مستحيل، ففي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، قامت دولة آشور خلفاً عن بابل في البلاد نفسها، لم تكن إيران إلى ذلك العهد بلداً مستقلاً، وإنّما كانت جزءاً من بابل وآشور. وكان الفينيقيّون يسكنون في سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشام وفلسطين، وسُمُّوا آراميين في التوراة، ويُعتبرون أقدم شعب تاجر في العالم، ورحلوا من آسيا إلى أوربا، وهذا هو الشعب الذي أضفى على أوربا القديمة ضوء الحضارة وبذر بذور الحضارة في بلاد إفريقية من ناحية، وجاء بإشعاع حضاريّ إلى أوربا من ناحية أخرى^(٢).

أ- آشور:

قد تقرّر أخيراً أنّ الآشوريّين كانوا ساميّين^(٣). ومن المعلوم أنّهم اتّجهوا من سواحل خليج فارس العربية إلى بابل، سالكين الطريق التي سلكتها من قبل عاد أو الأمم السامية الأولى،

(١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٢) تاريخ أرض العرب، ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

فالواقع أنَّ الآشوريين كانوا في أصلهم عرباً وكتب التاريخ الأثرية لآشور حافلة بالدلائل على ذلك.

ب- إيران:

ذُكر في أخبار إيران القديمة أنَّ رجلاً من العرب يسمَّى الضحَّاك (أي: أسرة الضحَّاك) حكم إيران ألف سنة بعد جمشيد^(١).

يقول سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ الأسرة العربية الحاكمة لآشور واليمن إلى سواحل خليج فارس غزت إيران وحكمتها إلى مدّة. إنّه أمر مُسلّم به الآن؛ أنَّ إيران كانت تحت سيطرة بابل وآشور إلى ازدهار وقوّة ميديا، أي: قبل الميلاد بستّة قرون.

عهد وجود آشور سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، وعهد ازدهارها ١٢٠٠ قبل الميلاد إلى ٦٠٠ قبل الميلاد^(٢).

ج- فينيقيا:

سكن الفينيقيّون في سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكانت عاصمتهم تائر^(٣)، وكانوا يملكون أزمنة التّجارة القديمة من آسيا إلى أوربا، وعرفوا في اللغة العبريّة بالآراميين. ذكرنا في فصل سابق أنَّ موطن بني إرم كان بلاد العرب، هذه دعوى العرب. ويُصرّح الآراميون أنفسهم أنَّهم مهاجرون من البحرين من سواحل بلاد العرب، والتي كانت تُسمّى تائر، والآثار تصدّق ذلك، لأنّ لغتهم وديانتهم وتقاليدهم كلّها سامية، فمآثر الفينيقيّين كلّها ترجع إلى العرب^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

د- قرطاج:

إنَّ ما يسمَّى بمدينة تونس، كانت بلدة من بلاد الفينيقيين أو العرب الآراميين، وتسمَّى الآن قرطاج. أسَّس هؤلاء العرب الآراميون هناك دولة عظيمة اهتزَّت لها دولة رومة الكبرى، وكان هناك هنيال وغيره من أبنائها، وقد جرت بينهم وبين الروم معارك عديدة انتهت إلى هلاكهم على أيدي الروم في السنة نفسها.

هـ- اليونان والكريت:

أوَّل بلاد أوربيَّة متحضَّرة هي اليونان. وحضارة اليونان وعلومها وخطُّها، كلُّ ذلك مُستعار من فينيقيا ومن هنا يتبدَّى باب ازدهار اليونان، ويكشف ذلك واقع التلازم واشتراك كثير من الكلمات التجاريَّة بين العرب واليونان، وأغرب من ذلك أنَّ مستعمرة عربية خالصة كانت في بلاد اليونان وكريت من أوربا، يكتب الجغرافيُّ اليونانيُّ بليني في ذكر أهل معين من اليمن: ينسب أهل معين أنفسهم إلى أسرة الملك مينوس.

وكاتب يونانيٍّ آخر يكتب عن السكان القدامى لجزيرة يوبيا (جزيرة يونانيَّة): أوَّل مستعمرة فيها كانت للعرب الساكنين مع قدموس في اليونان^(١). وملخص ما نريد أن نصرِّح به هنا، أنَّ التَّجَّار العرب كانوا قد وصلوا إلى اليونان في العهد القديم، وأقاموا فيها مستعمرة اقتصادية لهم.

وتبيَّن ممَّا قدَّمنا في الصفحات السابقة؛ أنَّ عاداً لم تكن قبيلة صغيرة ولا محدودة، بل كانت أمة عظيمة أسست أقدم حضارة في العالم، بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَام، وكانت معظم أجزاء آسيا وأفريقيا ساحة لقوتها وشوكتها، وكانت القصور الفخمة الرائعة من صناعة أيديها، فلم تكن للعرب أمة غيرها فيها موعظة وعبرة، ومن ثَمَّ كرَّر القرآن الكريم قصَّة هذه الأُمَّة العربيَّة^(٢)، التي تقدَّمت في الحضارة الماديَّة، وانحرفت في قضايا التوحيد، وإفراد العبادة لله،

(١) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وتورّطت في الشرك. هذا، وقد قدّمنا وصفاً لهذه الأمة في ضوء التاريخ القديم والبحوث، والاكتشافات الحديثة، وسيأتي الحديث مفصلاً - بإذن الله - في القرآن الكريم.

١١ - العلامة الندوي رَحِمَهُ اللهُ وربطه بين التاريخ والبحوث والاكتشافات الحديثة وإشارات القرآن الكريم:

تحدّث العلامة سيد سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ، فقال: قدّمنا وصفاً لهذه الأمة في ضوء التاريخ القديم والبحوث والاكتشافات الحديثة؟، ولننظر الآن كيف يصورها القرآن الكريم، ويصفها:

أ- علمنا أنّ عاداً كانوا من ذرية إرم، وهذا الذي يؤكّده القرآن الكريم: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ﴾ [الفجر: ٦-٨].

ب- قد ادّعينا أنّ عاداً تُرادف أو تقارب الأمم السامية، وأنّها كانت أمة حاكمة قاهرة، وهذا يصدّقه القرآن تصديقاً واضحاً: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ۖ﴾ [الأعراف: ٦٩]. ومن المعلوم أنّ بني سام هم الذين ازدهروا بعد قوم نوح في بلاد العرب، وما جاورها من البلدان.

ج- قد ألقينا الضوء تفصيلاً على عظمة عاد، وتفوّقها السياسي، وكانت تقول: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت: ١٥]، فقال رسولهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ۖ﴾ [هود: ٥٧].

د- كانت عاد بانية لقصور ومبانٍ فخمة وكرّر القرآن هذه القصّة، ومن ثمّ وصفها بذات العماد: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ﴾ [الفجر: ٦-٨]، وورد في مكان آخر على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةَ تَعْبَثُونَ ۖ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ۖ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]. ويقول القرآن الكريم وهو يشير إلى قصورهم ومبانيهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَانِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ويقول في مكان آخر: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسْكَانَهُمْ ۖ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وورد مقرّر عاد في الأخبار في اليمن، ولم يكن مقرّ أمة من الأمم السامية، وإنّما اقتصر عاد في مكان: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ

يَ الْأَحْقَافِ ﴿ [الأحقاف: ٢١]. ومعنى الأحقاف صحراء الرمال، وتقع هذه الصحراء في جنوبي بلاد العرب وشمالها، فلا سبب إذًا لتخصيص مكان بعثة رسول عاد إلى اليمن^(١). وإن كان المشهور في جنوب الجزيرة العربية باليمن ما بين حضرموت وعمّان في تلك المناطق، والله أعلم.

١٢ - نبي الله هود عليه السلام:

أول رسول عربيّ، وهو هود عليه السلام، والرسل من العرب أربعة كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه، أنه سأل النبي عن الأنبياء والمرسلين، وذكر حديثاً طويلاً، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشُعيب، ونيّك يا أبا ذر»^(٢).

يرجع نسب هود عليه السلام - كما اتفق أهل الأنساب - إلى سام بن نوح، وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذي هم بين هود وسام بن نوح^(٣).

يقول الشيخ عثمان الخميس: ذكر نبي الله هود في القرآن الكريم سبع مرّات، وذكرت قبيلته وهي عاد سبعاً وعشرين مرّة، وهو من هذه القبيلة التي تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أُنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمال في اليمن، يُقال: إنّها بين عُمان وحضرموت في بلد يُقال لها: السّحر، وهي الآن في اليمن، وهي بلد زراعية^(٤).

وإن عادًا قوم هود من العرب، والعرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما قيل: عرب عاربة بائدة، وعرب عاربة باقية، وعرب مستعربة^(٥). وإنّ هودًا من عاد، وعاد من العرب العاربة البائدة ومثلهم قوم صالح، وهو ثمود، وطسم وجديس، هؤلاء كلّهم من العرب العاربة البائدة التي لم يبق منها أحد^(٦).

(١) تاريخ أرض العرب، ص ١٧٤.

(٢) أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ، رقم ٣٦١، وضعف إسناده جدًّا الأرنؤوط.

(٣) فبهدهام اقتده، عثمان الخميس، ص ٧٧، من قصص القرآن، عصام الدين الهنامي، ص ٦١؛ من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، ص ١٦٢.

(٤) فبهدهام اقتده، عثمان الخميس، ص ٧٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٧، قصص القرآن الكريم، فضل عباس، ص ٢٠٩، القصص القرآني، الخالدي، ١/ ٢١٧.

(٦) فبهدهام اقتده، عثمان الخميس، ص ٧٨.

وإن قوم هود هم أول من عبد الأصنام بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد تناسلت ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصفات: ٧٧]، بعد الطوفان العظيم حتى وصلت إلى قوم عاد وهم من نسل سام بن نوح، فأول من عبد الأصنام من ذرية نوح قوم عاد، وكانت أصنامهم ثلاثة: صَدَى وصمود وهري أو هباء.

وقوم هود ذكروا بعد نوح مباشرة، كما في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن هود أنه قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]. ولذلك، فالمشهور أنه ليس بين نوح وهود نبي، وقيل: بينهم أنبياء. ولكن عندما نقرأ القرآن الكريم، نجد أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يذكر قصة هود مع قومه بعد قصة نوح كما في سورة الشعراء، وسورة المؤمنون وسورة الأعراف، مما يدل على أنه ليس بين قوم عاد وقوم نوح نبي^(١).

- معنى (هود): يُقال: هاد، يهود، هوداً، تاب ورجع إلى الحق، الهادي المبين في كلامه^(٢). والهُود هو: التَّائِي، فكان يدعو قومه بهدوء وتأنٍ ورحمة^(٣). وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "ويقال: إن هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من تكلم العربية، وقيل أول من تكلم بها نوح وقيل آدم، والله أعلم"^(٤).

- دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له:

قال ابن ماجه: باب: إذا دعا فليبدأ بنفسه: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»^(٥).

(١) المصدر السابق، ص ٧٨، قصص القرآن، قراء قرآنية، عمرو الشاعر، ص ١٣٧، الثمين في قصص الأنبياء والمرسلين، زهير علي، ص ٢٣.

(٢) فقه دعوة الأنبياء في القرآن، الأميري، ص ١٠٧.

(٣) قصة دعوة الأنبياء، عمرو خالد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م، ص ١٨٤.

(٤) البداية والنهاية، ١/ ١٣١.

(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ٦.

وكان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبيلة من قبائل عاد يُقال لها: الخلود، وكان من أرفعهم نسباً، وأصبحهم وجهاً^(١).

١٣ - عاد والتوراة:

لم يرد ذكر عاد في التوراة، ولا سيما الإصحاح العاشر الذي يحتوي على قائمة طويلة لشعوب الشرق، وفيما يأتي ذكر آراء المؤرخين في ذلك:

الرأي الأول: قال الطبري: "فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لا ذكر لعاد وثمرود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام، كشهرة إبراهيم وقومه"^(٢).

والرأي الثاني: ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يُقال إن هاتين الأمتين - يقصد عاداً وثمرود - لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم - التوراة - ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخير عنهما، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَّا أَنذَرُكُمْ نَبُوءًا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْم نُّوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٨، ٩]. والظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، إذ ذكر الأقوام التي سبقتهم وهم: قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح، والأقوام الأخرى فهم على معرفة بهم. فقد شاع خبرهم، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب، لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهوراً في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ"^(٣).

والرأي الثالث: ذكره ابن خلدون، حيث قال: "وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عاد ولا ثمود، لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة ولا لثمرود ولا لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل ولا لأحد من العرب العاربة، لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما لمن كان في عمود النسب

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/ ٤٩٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ١/ ١١٨.

(٣) البداية والنهاية، ١/ ١٣٢.

ما بين موسى وآدم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يذكر فيها^(١).

ويبدو أن رأي ابن كثير أكثر دقة من غيره، وليس من المستبعد أن يكون مؤرخو اليهود أهملوا عمداً ذكر عاد وشمود. ومما يؤكد رأي ابن كثير من زاوية أخرى، أن بروكلمان (Broeckelmann) يرى أن العبرانيين قد اعتمدوا إقصاء الكنعانيين والفينيقيين عن سلسلة النسب السامي، لأسباب دينية وسياسية، مع علمهم الأكيد أنهم على اتصال وثيق بهم^(٢).

١٤ - عاد الثانية:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]. فسَمَّى أولئك الهالكين من قوم هود بعاد الأولى فكل من كفر بهود عَلَيْهِ السَّلَامُ نزل عليه العقاب الإلهي ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسْكَنَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِزَزُوا فِي خِلْ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. هؤلاء من كفروا ولم يؤمنوا، أما الذين آمنوا بهود عَلَيْهِ السَّلَامُ فهم عاد الثانية، والذين انطلق بهم هود لعمارة الأرض على التوحيد وإفراد العبادة لله عَزَّجَلَّ، على قول بعض المؤرخين -منهم العلامة سليمان الندوي- واستدل فيما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِثَّيْنَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]^(٣).

وقد ورد في أخبار العرب أنهم خرجوا قبل العذاب من مساكن عاد، ووصلوا إلى الحجاز ونشأ فيهم ملك يسمى لقمان، وذكر أنه عاش عدة قرون. وليس ذلك بغريب، فإن تاريخ معظم الشعوب والأمم القديمة، يتبدى بمثل هؤلاء الملوك المعمرين ويؤول ذلك الآن بأن الملك قد بقي في أسرته عدة قرون وأطلق اسمه مجازاً، فينبغي أن نعني من عُمر لقمان عُمر أسرته^(٤).

(١) تاريخ ابن خلدون، ١/ ٣٧-٣٨.

(٢) آيات عاد قوم هود، علي مجدي علاوي، ديوان الوقف السني، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ١٦.

(٣) تاريخ أرض القرآن، ص ١٨٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٣.

وقد تمّ العثور على نقش لعادٍ عام ١٨٣٤م، ورد فيه "يحكمنا ملوك بعيدون جيّداً عن الأفكار الخبيثة ومعاقبون للظالمين، كانوا خلقوا لنا وفق شريعة هود، وكانت القضايا العادلة تُكتب في صحيفة"^(١). وهذا أوّل نقش عربي اكتشفته أوربا في بلاد العرب، ولغة هذا النّقل وخطّه خطّ العربيّة الجنوبيّة (المسند)، يسمّيها المتأخرون اللغة الحِميريّة خطأً، وتُعرف الآن بهذا الاسم، والنص الحِميري للنقل على صفحة منفصلة، وترجمته كما يلي:

- تمتّعنا في عرض هذا القصر منذ مدّة، وعشنا حياة رخاء من غير ضنك ولا شقاء.
- كانت مياه البحار تفيض في أنهارنا، وكانت البحار تصطدم بأموالها بجدران حصوننا في غضب، وكانت عيوننا تجري بصوت عجيب.
- فوق النّخل الباسقات التي كان مزارعوها يغرسون تمرها في أوديتنا، ويزرعون الأرز.
- كنّا نصطاد النعاج والأرانب الناشئة بالشبكات وكنا نصطاد السمك.
- كنّا نرفل ونخطر في ثياب من الخزّ الملوّنة، وفي القزّ والحلل الخضّر، ويحكمنا ملوك بعيدون عن الخنا، يعاقبون الأشرار- ويطيرون فينا شريعة هود.
- كانت القضايا العادلة تُسجّل في كتاب، وكُنّا نؤمن بالآيات والبعث والنشور.
- الأعداء حلّوا بنا، يريدون قتالنا، فبرزنا بخيلنا وتقدّم فتياننا الكرام بالمتّفة السّمر.
- كان المستكبرون والشجعان من رجالنا ونسائنا يقاتلون على الخيل الشهب، والكُمث والشقر المطهّمة.
- كانت سيوفنا تصيب من أعدائنا، وتنفذ فيهم حتّى أتينا على قلبهم فهزّ مناهم، وقد كانوا شرّ البريّة^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٢) تاريخ أرض القرآن، ص ١٨٦.

إنّ الاكتشافات الأثرية لا زالت مستمرة في هذا العالم الكبير وتوجد في اليمن وحضرموت والحجاز والحجر والعُلا والمدائن وعوران، وتدمر والصفاء والعراق ومصر؛ كثير من آثار العرب الأقدمين وقصورهم وذكرياتهم. وقد وُجدت فيها آلاف الألواح والنقوش، فاستنبط علماء الآثار استنباطات عجيبة من هذه الألواح والنقوش، وهي في غالبها مكتوبة بحروف حميرية وسبئية وآرامية ونبطية. تمّ البحث عن هذه الآثار في عهود الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية حين كان المسلمون قد بلغوا ذروة الاجتهاد في مجال التاريخ، وكان علماء ذلك العهد ملّمين بمعظم هذه الخطوط واللغات، فقد كان ذو النون المصري في القرن الثاني الهجري يقرأ الخط (الهيروغليفي) المصري. وقام المحقق الحميري العلامة الهمداني، بوصف هذه الآثار الشهيرة في كتابه (صفة جزيرة العرب) و(الإكليل)^(١).

وكان عبد الرحمن عامل معاوية بن أبي سفيان عام (٤٠ - ٥٠ هـ) على مصر قد اطلع على نقش في (حصن غراب) المتهدّم ما معناه بالعربية:

غنينا زمانا في عراضة ذا القصر بعيش رخي غير ضنك ولا نز
يفيض علينا البحر بالمدّ زاخرا وأنهارنا بالماء مترعة تجري
خلال نخيل باسقات نواضر تأنق بالقسب المجزّع والتّمر
إلى قوله:

إذا ما عدوّ حلّ أرضا يريدنا برزنا جميعا بالمشقّة السّمر
نحامي على أولادنا ونسائنا على الشّهب والكمث المعانيق والشّقر
نقارح من يبغي علينا ويعتدي بأسيافنا حتى يولّون بالدّبر
هذه الكتابة والآثار لا تلقي الضوء على بعض أحوال عاد الآخرة فحسب، بل إنّها تؤيّد ما جاء به القرآن من نواحٍ شتى:

(١) المصدر السابق، ص ١٨٧.

الأولى: أَنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ شَخْصاً تَارِيخِيّاً.

الثانية: أَنَّ بَقَايَا عَاد لَمْ يَكُونُوا إِلَّا أَتْبَاعَ هود.

الثالثة: أَنَّ عَاداً كَانَتْ ذَاتَ الْعِمَادِ وَالْمَبَانِي الرَفِيعَةِ.

الرابعة: أَنَّهَا كَانَتْ لَهَا جَنَّتٌ وَعُيُونٌ وَبَنُونَ وَأَنْعَامٌ كَثِيرَةٌ كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿مَذَكَّرٌ

بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۚ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ﴾ [الشعراء: ١٣٣، ١٣٤].

ويظهر اسم عاد الآخرة في التاريخ اليوناني والجغرافيا اليونانية في الجهة الشمالية والشرقية من مدين، وسميت (عادات) في النطق اليوناني، وكان المسلمون كذلك على علم بهذا المسكن لعاد، لكن إقامتها في اليمن - كما تُصَرِّح به الرواية العربية العامة - ثابتة كذلك من الجغرافية اليونانية. ذكر بطليموس، أَنَّ من بين القبائل العربية في الجنوب عاد ريميتا وعادات. نترجم الاسم الأول إلى عاد إرم، والثاني إلى عاد. وكان بطليموس من القرن الثاني المسيحي، ووجود عاد إلى ذلك العهد مسلم به^(١).



(١) تاريخ أرض القرآن، ص ١٨٨.

المبحث الثاني

قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف، وفصلت



وردت قصة هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه عاد في ثماني عشرة سورة في القرآن الكريم. وقد وردت في هذه السور على عدة حالات، فأحياناً تُفَصِّل قصة هود مع عاد، وتُعرض بلقطات مفصلة، وأحياناً تُعرض بلقطات أقصر وأوجز، وأحياناً تُعرض بلقطات سريعة وخاطفة، وأحياناً يكتفى بتسجيل إشارات، وأحياناً لا يُذكر إلا اسم عاد، أو اسم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والسُّور المذكورة فيها قصة عاد - ولو بمجرد ذكر الاسم - حسب ترتيب المصحف، هي: الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، ص، غافر، فصلت، الأحقاف، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الفجر.

ولقد ذُكرت كلمة (عاد) في هذه السور أربعاً وعشرين مرة، وأمّا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ذُكر اسمه سبع مرّات في القرآن الكريم^(١).

وفي هذا المبحث سيكون الحديث - بإذن الله - عن قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سورة المؤمنون، وفي سورة الشعراء.

﴿أولاً: قصة هود في سورة الأعراف﴾

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ

(١) القصص القرآني، الخالدي، ٢١٨/١.

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَیْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجِدَلُونِنِي فِيْ اَسْمَاءِ سَمِیْتُمْوهَا اَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْتَظِرُوْا اِنِّیْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِیْنَ ﴿٧١﴾ فَاَنْجِیْنٰهُ وَالَّذِیْنَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِیْنَ كَذَبُوْا بِآیٰتِنَا وَمَا كَانُوْا مُؤْمِنِیْنَ ﴿[الأعراف: ٦٥-٧٢].

سورة الأعراف هي السورة السابعة في العدد، وسادسة السبع الطوال، والسبع الطوال، هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، الأنعام، والأعراف، والتوبة، وهي الثالثة من حيث الطول بعد سورتي البقرة والنساء، وآياتها ست ومائتان، وهي مكيّة بالإجماع. وقد نزلت على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفعة واحدة، وافتتحت آياتها بالحروف المقطّعة (آلمص)، واختتمت بالتأكيد على توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبوديّة متمثلة بالسجدة له في آخر آية منها. والاسم المشهور لها اسم (الأعراف) لذكرها أصحاب الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨].

والأعراف: هو السور؛ أيّ الحجاب الحاجز بين الجنّة والنار، والمانع من وصول أهل النار إلى الجنّة.

ومما ورد في فضلها، حديث واثلة بن الأسقع الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وإسناده صحيح - أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أُعْطِيت مكان التوراة السبع الطوال^(١).

ولأنّ السورة مكيّة، فقد بيّنت أصول التشريع الكليّة، وبعض قواعد الشرع العامّة وتقرير جملة من المقاصد الكليّة، كأصول العقائد، وكليات الدين، وبيان أصول الفضائل الأدبيّة والتشريعيّة الجامعة بأوجز عبارة. والدعوة إلى السماحة، واليسر، بغير تعقيد، والإعراض عن الجاهلين. وتوجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن، وأدب ذكر الله تعالى، مع التنبيه على مداومة هذا الذكر وعدم الغفلة عنه.

(١) مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١، ص ٥٠. والحديث رواه الطبراني: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَانِي رَبِّي السَّبْعَ الطَّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَةِ، وَالْمُؤَيَّنِ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفْصَلِ» المعجم الكبير، رقم ٧٩٢٩. ورواه البيهقي في دلائل النبوة: «أُعْطِيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المثين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل». باب ما جاء في تحدث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنعمة ربه عَزَّ وَجَلَّ، رقم ٢٢٢٠.



وهي السورة الأولى التي استعرضت قصص الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بشيء من التفصيل والإسهاب، لأغراض عدة، منها: تسلية قلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب المثل للمسلمين في صبر مَنْ قبلهم من الأنبياء والمؤمنين، والتطرق إلى الصراع الأزلي بين الحق والباطل من خلال استعراض قصص الأنبياء مع أقوامهم^(١).

واستعرضت تاريخ البشرية منذ أن خلق الله تعالى آدم إلى قيام الساعة، وبدأت ذلك ببيان المنهج، وأهمية اتباعه، ثم ذكرت بداية الصراع بين آدم وإبليس، وقصة الأكل من الشجرة والنزول من الجنة. ثم انتقلت للحديث عن قصة النهاية، وما يجري فيها من خصام بين أهل الجنة وأهل النار، وقصة أصحاب الأعراف. ومن ثم انتقلت بعد ذلك لتاريخ البشرية بدءاً من سيرة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم عقت السورة بحقائق وقواعد مهمة في المنهج والسنن الإلهية، ثم ذكرت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون^(٢).

وهذه الآيات الكريمة المتعلقة بقصة هود عليه السلام في سورة الأعراف، نبدأ على بركة الله عَزَّوَجَلَّ بتفسيرها:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

إن دعوة هود عليه السلام، وهي نفس دعوة نوح والأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام)، إنها نفس الرسالة، ونفس الحوار، ونفس العاقبة، إنها السنة الماضية، والناموس الجاري، والقانون الواحد. وإن قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح عليه السلام، والذين نجوا معه في السفينة، وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام -وهو دين الإسلام- وكانوا يعبدون رب العالمين، وقد قال لهم نوح: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِلِلَّهِ عَمَلِهِمْ﴾ [الأعراف: ٦١]، فلما طال عليهم الأمد، تفرقوا في الأرض، وأغواهم الشيطان،

(١) مقاصد سور القرآن الكريم، ص ٥٠.

(٢) الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاح، ص ٧٥.

وزين لهم الشهوات، وفي أولها شهوة الملك، وشهوات المتاع، وفق الهوى، لا وفق شريعة الله، وعاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد^(١).

أ- ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]:

والمقصود أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، و﴿أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]، هنا موقعها الإعرابي مفعول به. وكلمة ﴿أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ تشعر بأشياء كثيرة، منها أنه من جنسهم، ولغته لغتهم، وأنسهم به، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه، فلم يأت لهم برسول أجنبي عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا: لقد جاء ليضع لنفسه سيادة علينا، بل جاء لهم بواحد منهم، وأرسل إليهم أخاهم سواء كان المقصود أخوة في الأب القريب، أو أخوة في الأب البعيد؛ أي من جنسكم، من آدم^(٢).

وقد صرح القرآن الكريم في شريعة هود أنه الأخ لقومه الكافرين، باعتبار أخوة الإنسانية، وقال المفسرون: أي: ابن أبيهم، وهي أخوة نسب لا أخوة دين، وقيل: هي أخوة المجانسة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: أي واحد منهم، فالأخ يُستعمل في معنى القريب من القبيلة، ومنه قول الحماسية^(٣).

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا والأخوة لغة وشرعاً على درجات وطبقات، وأولها الأخوة الإنسانية، التي وُصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم:

- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١٠.

(٢) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٢٠٦.

(٣) تفسير القرطبي، ١٦/ ٥٠، التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ١٩٨٣م، ١٩/ ١٥٨.

- وقال تعالى: ﴿وَالِ مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

وتكرّر ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، وجاء في حديث الإسراء أن الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مرحباً بالنبّي الصّالح والأخ الصّالح»^(١).

وأعلى درجات الأخوة، أخوة الإيمان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن أخو المؤمن»^(٢)، وهي التي تستحقّ كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكن ذلك دفع بعض المتعصّبين والمتشدّدين إلى حصر الأخوة في هذه الدرجة، وأنكر استعمالها في الدرجات الأخرى، مُخالفًا ذلك القرآن والسنة، واستعمال الأخ حسب النسب والدرجات والقبائل، والأعراف والأديان، وهو ما يجري عادة في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ والمُجاملة في لقاء الآخرين مهما كانت صفاتهم وأحوالهم^(٣).

ب- ﴿قَالَ يَكْفُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ :

هذا أوّل نداء يوجّهه كلّ رسول إلى قومه، وهكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وآخرين، ولأهمّية التوحيد، ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً، كان هو العنصر الأوّل في دعوات الرّسل جميعاً^(٤).

- ﴿قَالَ يَكْفُومُ﴾ تودّد إليهم وتقرب منهم وترقّق بهم. ﴿يَكْفُومُ﴾ ؛ فهو منهم، وأضافهم إلى نفسه وهذا من حرصه عليهم، ورغبته في نجاتهم من عذاب الله والتزام أمره.

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيفُ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ، رقم ٣٣٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتّى يأذن أو يترك، رقم ٢٥٣٦.

(٣) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطفوان العظيم، ص ٢٠٣.

(٤) موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، ١١١ / ٨.

- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]: إِنَّهَا دعوة إلى الله وحده، وأن لا يجعلوا معه إلهاً آخر، قال الطبري: ليس لكم معبود يستحقّ العبادة غيره، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية^(١).

إنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى عبادة الله عَزَّجَلَّ وإفراده بالعبادة وتحقيق التوحيد ونبذ الشرك بكافة أشكاله وأنواعه فعندما انحرفت الإنسانية في عقيدتها بعد الطوفان العظيم شاءت رحمة الله عَزَّجَلَّ أن يرسل هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق وبالعدل في مجال التشريع، وتضعنا النصوص الصحيحة والأخبار أمام هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو رجل صالح ومُكتمل أرسله الله لهداية قومه، ومن سنن الله أن يختار أنبياءه ورُسله من أشرف الأسر، ولقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً: كيف هو فيكم؟ فردّ أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حسب، فقال هرقل: وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها^(٢).

ويُعَلِّل ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ سُنَّةَ اللَّهِ في بعث الرسل في أحساب قومهم، بأنّ ذلك إنّما لأجل أن يكون للرسل أسرة ذات شوكة ومنعة تحميه من أذى الكفار والمستكبرين، حتّى يبلغ رسالة ربّه، ويُتِمَّ مراد الله في إكمال دينه وملّته، ورسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما بعث الله نبياً إلّا في منعة من قومه»^(٣).

ومن هذه السنّة الإلهية نؤمن أنّ هوداً كان من أسرة ذات مكانة وشرف ومنعة، وأمّا من ناحية الإعداد التربوي، فإنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن بدعاً من الرسل الذين اختارهم الله لرسالته، وتعهّد بتربيتهم وإعانتهم على تبليغ رسالة ربّهم، فقد توقّرت فيه صفات الأنبياء وعلامتهم

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى حسن، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، ص ٤٦.

(٢) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم، ص ١٠٧.

(٣) قصص الأنبياء في رحاب الكون، الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، دار الرشد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ٦٥.

من خُلِقَ كريم، وحبّ الخير، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وكانوا مفطورين على التنزه عن المذمومات، والمنافرة لها، كأنّها منافية لفطرته، وكان هود على خُلُق كريم ما في ذلك من شك، فلمّا انتهى إعداد الله له إلى غايته، فاجأه الوحي. وتلك أيضاً سنة الله في أنبيائه، فإنّه حينما تصبح نفوسهم - بتربية الله وعنايته - أهلاً للتلقّي عنه يفاجئها الوحي وهذا ما حدث لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بعث الله هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما عمّ الفساد ليُبشّر بالخير والحق والعدل، وبدأ سيّدنا هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهذا الذي قاله سيّدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو التبشير بالتوحيد وهو جوهر الرسالات السماوية جميعاً، والله سُبحانه وتعالى يؤكّد لسيّدنا محمد خاتم النبيّين ذلك قائلاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وإن التوحيد الذي جاءت به الرُّسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة، هذا العنوان هو كلمة (لا إله إلا الله) التي تسمّى، (كلمة التوحيد) و (كلمة الإخلاص)، أو (كلمة التقوى). وهذه الكلمة العظيمة تتضمّن نفي الإلهيّة عن كلّ ما سوى الله، وإثباتها لله وحده فهو وحده الإله الحق، ومما عداه ممّا عبد الناس في مُختلف العصور، فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة، والأوهام كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وإن الإله هو المعبود بحق - أي المحبوب المطاع، والذي يستحقّ أن يُعبد - وذلك لما اتّصف به من صفات الكمال، التي تقتضي أن يُخصّ بنهاية الحب ونهاية الخضوع، وهما بمعنى العبادة فإنّ الإله كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: هو الذي تأله القلوب بحبّها، وتخضع له، وتذلّ له، وتخافه وترجوه، وتنب إليه في شدائدّها، وتدعوه في مُهمّاتها، وتتوكّل عليه في مصالحتها، وتلجأ إليه وتطمئنّ بذكره، وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلا لله وحده^(١).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م، ٢/ ٣٨٧.

ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام وأفضله، وكانت رأس الأمر، وأحسن الحسنات. جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»^(١).

وإن المعنى الحقيقي للتوحيد هو: علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرد الرب بكل صفة كمال واعتقاد أنه لا شريك له، ولا مثيل له في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين^(٢).

فالله لا يكون له شريك في ذاته ولا صفاته، وكذا في عبادته ومعاملته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا التعريف مستند على الدلالة الواضحة لمعنى (لا إله إلا الله)؛ إذ إنها تدل بالمطابقة على تفرد في الألوهية فلا تُصرف العبادة إلا له، وبالاتزام على تفرد في الربوبية، كما تدل على اتصافه عَزَّ وَجَلَّ بكافة صفات الكمال والجلال بالتَّضَمُّن^(٣). فهي الكلمة المفسرة للتوحيد من ناحية العلم، ومن ناحية العمل^(٤).

وإن المعنى الحقيقي للتوحيد: هو الاعتقاد اليقيني بأن كل ما في الكون من خلقٍ ورزقٍ، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وقوة وضعف، وعزّ وذلّ، مرده إلى الله سبحانه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متفرد بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وسائر أنواع التصريف، والتدبير لملكوت السماوات والأرض، ويجب إفراده بالحكم والتشريع، فهو الذي أرسل الرُّسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) مالك بن أنس، الموطأ، كتاب النداء للصلاة، باب ما جاء في الدُّعاء، رقم ٤٤٩.

(٢) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

(٣) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٢٧.

(٤) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الحادي عشر، ١٤٢١هـ، ص ١٠٤.



وهود عليه السلام كان يدعو إلى إفرا د الله وحده بالعبادة ولا يُعبد غيره، ولا يُدعى سواه، ولا يُستعان ولا يُستغاث إلا به، ولا يُنذر ولا يُذبح إلا له، قال تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وفي قصة هود عليه السلام الدعوة إلى أن أعظم ما يحتاجه العبد، معرفة أسماء الله، ليحمده ويُمجّده ويُشني عليه، ويسأله المغفرة والرحمة ويتوب إليه، وهذا ما سنقف عليه في محله عند الحديث عن هود في محله عليه السلام.

إنّ الإنسان إذا آمن بالتوحيد لن ينظر إلى غير الله، فيكون خوفه منه، ورجاؤه فيه، وثقته به، واتّكاله عليه فقط، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مُسخّر لله، وإذا اعتقد التوحيد تحرّر من ذلّ العبوديّة لغير الله، لأنّ كل مخلوق مُسخّر لله، وتكتاف آيات وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على دعوة الإنسانية إلى التوحيد حتّى تحرّر من رقّ العبوديّة^(١).

ولقد بشر سيّدنا هود عليه السلام بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرّسل، وإذا فهم التوحيد حقيقته، واتّخذته الإنسانية شعاراً لها، يكون علاجاً لكثير من ألوان العنف في المجتمعات، فالإنسانية في مختلف أزمّتها، وأمكنتها تخاف الموت، وتخشاها فتتقاد إلى استعباد الأقوياء، والذّلة أمام الطغاة، ولكن هذا الوضع لا يتماشى قطّ مع عقيدة التوحيد، فإنّ مالك الملك إنّما هو وحده الذي يملك الموت والحياة؛ إنّهُ يملك إمّاة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذي قدر الآجال وحدّها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون^(٢).

إنّ المتأمل في قصة هود عليه السلام، ودعوته لقومه يرى عِظَم هذا النبي عليه السلام في قيامه بأداء مهمّة التبليغ لقومه، ودعوته إيّاهم لعبادة الله تعالى وحده، إذ مكث في قومه متحملاً للأذى والعناد والجحود، لعلّهم يستجيبون إلى دعوته.

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، ص ٦٨.

(٢) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ص ١١٠.

وكانت دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

ج- ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]:

اهتم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوة قومه إلى توحيد الله عَزَّجَلَّ وإفراده بالعبودية والحث على تقواه، لأن تقوى الله عَزَّجَلَّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التفلت منه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه والالتواء في تنفيذه، كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا ممارسة^(١).

- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ وقد لخصت هذه الآية:

عناصر رسالته، وهي ثلاثة:

- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

- ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

- ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ أي: إذا لم تؤمنون بالله، وتعبده وحده لا

شريك له، نزل بكم عقابه وعذابه، فالرشد والعقل يقتضيان منكم أن تتقوا ذلك، ومن أجل هذا فإنني أعرض عليكم -عرض حثٍّ وحضٍّ- أن تتقوا الله وعذابه الذي أنذركم به في عاجل حياتكم وآجلها. ودلّ على كلّ هذا باللزم الذهني عبارة أَفَلَا تَتَّقُونَ؛ والاستفهام في هذه العبارة يحمل معاني التعجب والاستغراب والاستنكار من كونهم لا يتقون، وهي تتضمن معنى الحثّ والحضّ على أن يتقوا، والفاء عاطفة على ما سبق في مقول قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ المصرّح به أو المطوي الذي يفهم باللزم الذهني، وقدم حرف الاستفهام عليها، لأن الاستفهام في اللغة العربية له الصدارة.

ونلاحظ أنّ هذه الجمل الثلاث، قد لخصت كليّات عناصر الدين:

- الإيمان بتوحيد الله عَزَّجَلَّ.

(١) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، ص ١٨.



- طاعة الله وعبادته في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والتقرب إليه بمراضيه ومحابه.
- الحذر من عقابه العاجل والآجل، واتخاذ ما بقي منه وهو يستلزم الطمع بثوابه، واتخاذ ما يظفر به بالنسبة إلى من آمن وأسلم^(١).
- إنَّ المتدبِّر لكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجد أنَّ التقوى هي من أكثر الأمور التي وجَّه القرآن لها العناية، وحمل النفوس على الاهتمام بها. وأصل التقوى من الوقاية:
- أوَّل مراحل التقوى: اجتناب الشُّرك.
- المرحلة الثانية: اجتناب الكبائر.
- أمَّا المرحلة الثالثة التي تكتمل بها التقوى فهي: الابتعاد عن الصغائر.
- ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»^(٢).
- تعريفات التقوى:
- ذكروا للتقوى تعريفات كثيرة وتعدّدت في ذلك كلماتهم وأقوالهم، وسأذكر بعض التعريفات لكي تكون نبراساً نهتدي بنوره ومنها:
- قيل: إنَّ التقوى أن يُطاع الله فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر.
- وقيل: التقوى: هي ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة، فالمتّق لا يُصرُّ على معصية وإن كانت صغيرة ولا يَغترُّ بطاعة وإن كانت عظيمة.
- وقيل: إنَّ التقوى ألا تختار على الله سوى الله، وأن تعلم أنَّ الأمور كلّها بيد الله.
- ومن تعريفات التقوى: ألا يراك مولاك حيث نهاك.
- ويجمع هذه التعريفات جميعاً أمور ثلاثة:

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٤.

(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، رقم ٢٤٥١.

أولاً: أن تجتنب الذنوب صغيرها وكبيرها، فإن الإصرار على الصغائر قد يؤدي إلى الكبائر.

ثانياً: أن تحذر من كل ما تقدّم عليه من قول وعمل، كالذي يسير في طريق مليء بالأشواك يكون حذراً من كل خطوة يخطوها، وهذا ما جعله علامة التقوى بعض الصحابة (رضوان الله عليهم)، فقد قيل: إن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً أشواك؟ فقال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذاك التقوى. ثالثاً: ألا تحقر شيئاً من صغائر الأمور، فلقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه مرّ بتمرّة مسقوطة فقال: لولا أن تكون صدقة لأكلتها^(١).

وقد رُوي في الأثر: من أحبّ أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحبّ أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحبّ أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يده^(٢).

• الفرق بين العبادة والتقوى:

مما تقدّم ندرك أهمية التقوى، وعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، وندرك أنّ التقوى ثمرة يانعة لا بدّ لتحقيقها من خمسة أمور وهي: الإيمان، والطاعة، وترك المعصية، والتوبة، والإخلاص، فإذا انتفى واحد من هذه الأمور الخمسة انتفت التقوى.

ومن هنا نعلم أنّ التقوى ليست العبادة، كما يظن كثير من الناس، فربّ عابد كثرت عبادته ولكن لا ترفعه عبادته لدرجة التقوى، وفي الكتاب والسنة أدلة كثيرة، وبراهين ساطعة على ما بيّنته لك، قال تعالى: ﴿وَابْرْهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، رقم ٩٥٠.

(٢) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ -



- ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]: عبادة الله وحده بلا شريك، وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة، يشمل تصوّر الإنسان لحقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة بين الخلق والخالق، وحقيقة القوى والقيم في الكون، وفي حياة الناس... ومن ثمّ ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصرّور، فيقوم منهج للحياة خاصّ، منهج ربّانيّ مرجعه إلى حقيقة الصّلة بين العبودية والألوهية، وإلى القيم التي يُقرّرها الله للأحياء والأشياء^(١).

والعبادة: هي اسم جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفّار، والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمساكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله^(٢).

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضّة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طُبِعَ الإنسان على فعلها^(٣).

إنّ الدين كلّه داخل في العبادة، والدين منهج الله جاء ليسع الحياة كلّها، وينظّم جميع أمورها من أدب الأكل، والشرب، وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدوليّة في السلم والحرب.

(١) في ظلال القرآن، ٦/٣٧١١.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ، ١٠/١٥٠.

(٣) الوسطية في القرآن، علي محمد محمد الصلابي، مكتبة الصحابة مكتبة التابعين، ٢٠٠٨م، ص ٣٦٠.

إنَّ الشَّعَائِرَ التَّعَبُّدِيَّةَ من صلاة وصوم، وزكاة لها أهميَّتها ومكانتها، ولكنَّها ليست العبادة كلّها، بل هي جزء من العبادة التي يريدُها الله تعالى، وإنَّ مُقتضى العبادة المطالب بها المسلم أن يجعل أقواله، وأفعاله، وتصرفاته، وسلوكه، وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاء بها الشريعة الإسلاميَّة بفعل ذلك طاعة لله، واستسلاماً لأمره^(١).

وإنَّ الدليل على المفهوم الشامل للعبادة من الكتاب والسنة، وفعل الصحابة (رضوان الله عليهم) ما يلي: فأما من القرآن الكريم، فقولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ سُلَامَى من الناس عليه صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو ترفع له متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة، وكلَّ خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٢).

وأما الاستلال على عموم العبادة، وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف، وفهمهم ففيما رواه البخاري في صحيحه، عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى، ومعاذ إلى اليمن، قال أبو موسى لمعاذ: «فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أوَّل الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما احتسب قومتي»^(٣).

وفي كلام معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دليل على أنَّ المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية^(٤).

- ﴿وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام: ٧٢]: تقوى الله هي الضمانة الحقيقيَّة لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التلَفَّت عنه هنا أو هناك، وعدم التلَفَّت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه

(١) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين، عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص ٤٦-٤٧.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب مَنْ أَخَذَ بِالرَّكَابِ وَنَحْوِهِ، رقم ٢٧٦٧.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣٤٢.

(٤) الوسطية في القرآن الكريم، ص ٣٦٣.



أو الالتواء في تنفيذه، كما أنّها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا ممارسة^(١).

إنّ الأنبياء جميعاً دعوا إلى عبادة الله، وتقوى الله، ومنهم هود عليه السلام، حيث بينت الآيات الكريمة أنّ هناك فرقا بين العبادة والتقوى، فكم من عبّادٍ لا تصل بهم عبادتهم ولا ترفعهم إلى مرتبة التقوى، وبالتالي، هذه الخطوط العريضة التي دعا إليها هود عليه السلام، وهي خلاصة دعوة الله تعالى في كلّ جيل، قال تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]؛ فعبادة بدون تقوى لا تُقبل؛ لأنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

أ- ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ [الأعراف: ٦٦]:

هو لاء الملاء الذين لم ينظروا فيما قال هود عليه السلام ولم يتدبّروا ولم يتعلّقوا ولم يتفكّروا، بل أجابوا على الفور حتّى يقطعوا الطريق على باقي القوم.

والملاء هم أصحاب المراكز، والقيادات، والممثلون بالثروة، وأصحاب النفوذ، والمالئون المقاعد القياديّة المهمة في أي بلد، وهي كلمة تلفت النظر بقوة، فإن تظهر هذه الفئة في فجر التاريخ من عهد نوح عليه السلام، ثمّ هود عليه السلام، فهو أمر ينبغي أن يلفت اهتمام أصحاب الدراسات الاجتماعيّة والنفسية، والسيكولوجيّة، والإنثروبولوجيّة، والسياسيّة، وهو أمر لافت، فهذه الكلمة في هذا المشهد في هذه القصّة، والوقت المبكر من تاريخ البشريّة، وفجر تاريخها؛ تلفت عنايتنا بقوة، فأخطر الظواهر اليوم، نشأت مبكراً في تاريخ الإنسانيّة كأنّه لا جديد على البشريّة إلّا بمقدار الهيمنة، ولكن صور النفوذ والسيطرة والأدوات قد اختلفت، والمبدأ واحد^(٢).

(١) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ص ١٣٩.

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ١١٤.

ولتسميتهم باسم (الملاء) ملحظ ذو دلالة، قال الراغب في معناها: (الملاء): "جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رؤاء ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً. يقال: فلان ملء العين، أي: معظم عند من رآه كأنه ملأ عينه من رؤيته"^(١).

وكان لقوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ملأ، وكل كفار لهم ملأ، وهم يقودونهم في مواجهة الحق، وهؤلاء (الملاء) كانوا يجتمعون على كفرهم، ويلتقون في جلساتهم على التآمر والمكر ضد سيدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ورسالته التوحيدية، ويتفقون على أساليب حربه، ومواجهته، ويصنعون خطة إعلامية، وينفذونها على أتباعهم، وجنودهم، وأعوانهم.

وسُمِّي هؤلاء (الملاء)؛ لأنهم كانوا يملؤون عيون جماهيرهم، وأتباعهم مهابةً، وخوفاً، ويملؤون نفوس جنودهم رهبة وإجلالاً. أي: كانوا ملء عيون أتباعهم ونفوسهم وقلوبهم وعقولهم، ولهذا كانوا يخافون منهم، ويرهبونهم، ومن ثم كانوا يتبعونهم وينفذون ما يطلبون منهم، ويجندون لهم أعواناً في رفض الحق ومواجهة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن هذه هي الآثار الخطيرة لظاهرة الملاء التي نلاحظها في قصص الأنبياء في القرآن، والتي كانت تمثل القيادة الشيطانية الجاهلية لحزب الشيطان في مواجهة الحق وجنوده، وتُخبرنا آيات القرآن في قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن هؤلاء (الملاء) هم الذين قادوا قومهم في مواجهته، وهم الذين أثاروا الشبهات ضده، وضد أصحابه، وقدموا طلباتهم، ووجهوا تهديداتهم إليه. وقد واجه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ هؤلاء الملاء وفند شبهاتهم، ولم يستجب لطلباتهم، ولم يرضخ لتهديداتهم، وإنما تحداهم، وحاربهم، واستعلى عليهم بإيمانه، متوكلاً على الله ربّه^(٢).

ب- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]:

يؤتى بالاسم الموصول دائماً لاستحضار ما في حيزه من الصلة، إذ لا يتم تشخيصه -أي الموصول- إلا بصلته. وإن الصلة هنا هي: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: ٦٦]. ويبدو أن القوم

(١) القصص القرآني، الخالدي، ١/ ١٧٠.

(٢) القصص القرآني، ١/ ١٧١.

كلّهم على هذه الصلة، ولكن يبدو أنّ هؤلاء مُنظرّو الكفر، ومُرتّبوه، ومروّجوه، والمستفيدون منه، وهم مستثمروه، وقادته، وطليعته، وحُراسه^(١). و﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]؛ أي: قوم هود عليه السلام.

ج- ﴿إِنَّا لَنَرِكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]:

هكذا جزافاً بلا تروٍّ، ولا تدبّر، ولا دليل^(٢). واتّهموا هوداً عليه السلام بالطّيش والخفّة وسخافة العقل^(٣). وإن قصدهم رميه بالجهالة والضلالة، بسبب تركه دينهم^(٤)، ورّموه بالسفاهة؛ لأنّه دعاهم إلى التوحيد، وتصدّى لعبادة الأوثان. وأكّدوا مقولتهم ب (إنّا)، والجملة الاسميّة، ولا م الابتداء أي: إنّنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنّك في سفاهة؛ أي ناقص العقل غير رشيد^(٥).

د- ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]:

وأكّدوا هنا بمثل ما أكّدوا في قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرِكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]. واختلف العلماء في المراد من هذا الظنّ، فقليل: المراد القطع والجزم، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَٰهٌ رَبِّعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

وقال الزجاج: كان تكذيبهم إيّاه ظناً لا يقيناً^(٦)، وهذا يدلّ على أنّ الشكّ وتجويز ذلك في أصول الدين يوجب الكفر^(٧). وإن الراجح - والله أعلم -، أنّهم كما أكّدوا اتّهامهم لهود عليه السلام بالسفاهة، وأكّدوا ظنّهم الآثم^(٨)، وفي ذلك مبالغة في الإساءة له عليه الصلاة والسلام.

(١) تفسير سورة هود، ص ١١٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١٠.

(٣) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٢٠٩.

(٤) البيان القرآني في آيات قصة هود، بلسم فارس سليمان، رسالة دكتوراة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، ٢٠١٢م، ص ٣٢.

(٥) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ٢/ ١٧٠٩.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ٢/ ٣٤٧.

(٧) البيان القرآني في آيات قصة هود، ص ٣٣.

(٨) المصدر السابق نفسه.

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

فردّ عليهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في هدوء وورصانة، ونفى السفاهة عن نفسه، وقد فُتد افتراءات قومه عليه بردّ هادئ. وقابل إساءتهم بالإحسان^(١)، وهذا مع الشفقة على قومه. قال: ﴿يَقَوْمُ﴾ [الأعراف: ٦٧]؛ فنسبهم إلى نفسه، ليستميل قلوبهم إليه. ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، إجابة فيها رقة وبساطة وصدق وأدب^(٢).

- ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]؛ قليلة أو كثيرة، صغيرة أو كبيرة، فأنا خالٍ من أيّ سفاهة. وهو جواب مُشبع بالتهذيب الذي يتجلّى به الدعاة إلى الله المحاطون بتوفيق الله وعناية ممّن أعطاهم الله الحكمة والخير الكثير.

أ- ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]:

جاء النفي القاطع على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنّه لم يأت بالدعوة من عنده، وإنّما جاء بها من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وما دام هود هو الرسول المبلّغ، والله هو الذي أوحى إليه، وما دام المنهج من عند الله، فلا يمكن أن تكون فيه سفاهة واحدة، ولا شبهة نقص عقل، ولا خفة رأي.

دفع هود عَلَيْهِ السَّلَامُ الاتّهام بالنفي، مع أدب الدعوة إلى الله الرفيع، وأخلاق الأنبياء الأخيار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وبعد أن نفى عن نفسه ما اتّهموه به، أبان لهم أنّه لم يدعهم إلى ما دعاهم إليه من تلقاء نفسه، ولكنّه مبعوث مُرسل من ربّ العالمين، مُكلّف بتبليغ رسالاته، ومأمور بأن ينصح لقومه، فقال لهم:

ب- ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]:

فهو مبعوث مُرسل من رب العالمين، وفي إجابة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ تعليم لنا لخلق الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا له مع علمه أنّ خصومه أضلّ الناس وأسفه الناس.

(١) معالم الصراع الإيماني في قصة هود، أحمد محمد.

(٢) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٤٧.

وفي إخبار الله لنا في كتابه عن هذه الأخلاق تعليم لنا كيف نخاطب السفهاء ونغضّ عنهم^(١)، والافتداء بسيرة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في جداله لقومه.

- ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]: هو استدراك لرفع ما توهموه، من أنه في سفاهة حيث خالف دينهم؛ أي عبد الله، مع ما تقتضي الرسالة من التبليغ والنصح. ويبيّن لهم أنه في الغاية القصوى من الرشد والأناة، لأنه:

- ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]: يبيّن لهم الحقيقة التي تلزمهم طاعته على جميع الناس، وتعريضاً لقومه في عصيانه له.

-: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]: أثبت هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الربوبية المطلقة لله وحده، ودحضاً للأصنام التي عبدوها من دون الله، وهي لا تنفع ولا تضر.

٤- قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

أ- ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٨]:

يفهم من صيغة الجمع في: ﴿رِسَالَاتِ﴾ [الأعراف: ٦٨] أن تنزيل البيانات الربانية عليه قد كان على وفق سنة الله في التدرّج في تنزيل بياناته، فما كان ينزل به الوحي على هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ليبلّغه لقومه، فقد كان بيانات منجمة في أزمنة متعدّدة، وإن كلّ بيان منها بمثابة رسالة، وبعد أن تجتمع الرسائل كلّها، ويكمل الله الدين لعباده، تكون جميعاً منضمة في رسالة واحدة، فالتعدّد باعتبار تنجيم التنزيل في أزمان، والإفراد هو باعتبار جمع النجوم المنزلة في رسائل مفرّقة، وضمّها متكاملة في كتاب واحد هو الرسالة التي بعث بها رسوله^(٢).

فتبليغ رسائل الله هي الوظيفة الأولى لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي الوظيفة الأولى لكل المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(١) تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، الإمام النسفي دار الكتاب العربي، بيروت، ١/ ٥٧٨.

(٢) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في القرآن، الميداني، ص ٤٩.

ب- ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]:

هذه الوظيفة الثانية التي بيّنها هود لقومه، وهي النصيحة لهم، ويشمل هذا استخدام كل الوسائل الإقناعية والتربوية على اختلاف صورها وأشكالها. والنصح مظهر من مظاهر الرحمة والشفقة وحرص الناصح على خير المنصوح دون ملاحظة ثواب منه. فقال هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]؛ فالمرسلون كلّهم ناصحون لأقوامهم، وكذلك يجب أن يكون الدعاة إلى الله ولرسوله، ولقيادة أئمة المسلمين، وعامّتهم.

وقد قال هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢]؛ لأنّ في نوح الفعل الدائم يدلّ على التجدّد، ولأنّه كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً، وإعلاناً وإسراراً، لذلك جاء الحقّ سبحانه بالفعل ﴿وَأَنصَحُ﴾ [الأعراف: ٦٢]؛ في الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النصيحة لهم، وأنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم^(١).

وفي قول هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال ما يدلّ على أنّ نصيحة لهم وصف ثابت فيه متمكّن منه، وأنّ ما زعموه (سفاهة) هو نصيح^(٢).

والنصح والنصيحة كلمة جامعة يُعبّر بها عن حسن النية، وإرادة الخير من قول أو عمل، ويكثر إطلاق النصيحة على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه، ويدفع عنه الضرر^(٣).

- ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]: وأتبع ﴿نَاصِحٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] بـ ﴿أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]؛ هو الموصوف بالأمانة لردّ قولهم له ﴿لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]؛ لأنّ الأمين هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه. وضدّها الخيانة. وإنّ الأمانة من أعزّ

(١) تفسير النسفي، ٢٨٦/١.

(٢) المصدر السابق، ٢٩٢/١.

(٣) المصدر السابق، ٢٨٥/١.

أوصاف البشر، وهي من أخلاق المسلمين^(١)، ولهذا كان أنبياء الله (صلوات الله وسلامه عليهم) أئمة وقدوات صالحة في أداء الأمانة، وحفظها^(٢).

وجاء في الحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(٣). وفي الحديث: «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة. ثم قال: ينأى الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، إلى أن قال: فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلدته، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»^(٤).

فذكر الإيمان والصدق في موضع الأمانة، والكذب من الخيانة. فقوله في الآية ﴿أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، هو وصف يجمع الصفات التي تجعله يحمل الثقة من قومه، ومن ذلك إبطال كونه من الكاذبين^(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وهذه إجابات هود عليه السلام لقومه لكي يُفنعهم بالتي هي أحسن.

أ- ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

أي: كيف تعجبون من أمر لا يُتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، ويذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه نفعكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين^(٦)، أي: أكرهتم ترك ما أنتم عليه، واتباع ما جئكم به، وعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، وأما المتعجب منه فقضيتان:

(١) المصدر السابق، ١/ ٢٩٢.

(٢) أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، محمد درويش، ص ٢٧٦.

(٣) مسند أحمد، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم ١١٩٣٥.

(٤) البخاري، رقم ٦٤٩٧، مسلم، رقم ١٤٣.

(٥) تفسير النسفي، ١/ ٢٩٣.

(٦) تفسير السعدي، ص ٣٥٨.

- القضية الأولى: أن يأتيهم ذكر من ربهم.

- القضية الثانية: أن ينزل هذا الذكر على بشر منهم، ويكون هذا الرجل رسولاً لله، يبلغ قومه الذكر الذي أنزله الله عليه ليبلغه لقومه.

وإننا نلاحظ أن هوداً عليه السلام طرح قضية هذا الذكر الذي جاء به من ربهم، ليكون ساحة فكرية معروضة للمناظرة، والمجادلة حول عناصرها، لأن الذكر الذي يبعث الله به رسله مشتمل على قضايا تحتاج إلى إثبات حتى تُقام الأدلة البرهانية والإقناعية، فتحوّل إلى حقائق يقينية مطلقة، فكان البدء بطرحه هو الأسلوب الأفضل للإقناع أو للالزام الإفحام، فالربوبية، وتوحيدها، والإلهية، وتوحيدها، وصفات الله التي منها علمه، وحكمته، وقضاؤه، وقدره، وقدرته على كل شيء، وخلق كل شيء، وعنايته بعباده، وعدله؛ كلها أمور معها أدلتها العقلية البرهانية، وتشهد لها ظواهر الكون، ومُجريات الأحداث^(١).

ومتى ظهر لهم أن ما يدعوههم إليه حق لا ريب فيه، ولا شائبة تشوبه، كان أمر إثبات نبوته ورسالته، وإثبات أنه يُبلغ هذا الذكر عن ربه، وإثبات أن الله يُوحى به إليه؛ أمراً ممهداً سهلاً، ونستفيد من هذا، أن البدء بالإقناع حول مضمون الرسالة بالنسبة إلى قوم ليس لهم عهد قريب بالأنبياء والمرسلين؛ هو الأمر الحكيم، وهو ما اتخذه هود عليه السلام في مجادلة قومه. وقد جاءت تسمية مضمون الرسالة ذكراً لأمرين:

الأمر الأول: أن بعض عناصر رسالات المرسلين هي من الحقائق المغروزة في عقول الناس ونفوسهم، وضمائرهم، فهي لا تحتاج أكثر من كشف لها وتذكير بها.

الأمر الثاني: أن كل عناصر رسالات المرسلين حقائق، وتعاليم ربّانية، إذ ينبغي تعلّمها، وتفهمها أولاً، ثم تعهدها بالتذكير حيناً بعد حين، وذلك على مدى الأيام والسنين، وعند كل عمل يقتضي شيئاً منها، وعند كل عارضة لتكون عناصرها الإيمانية حاضرة في الذاكرة، ووصاياها برامج مذكورة، ونوراً مُبيناً، يهتدي به السالكون في ظلمات الأهواء والشهوات، ووساوس الشياطين، وتسويلاتهم، وتضليلات المضللين، ويسترشد بها مقتحمو عقبات

(١) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٥٢.

النفوس والأهواء ومصاعب الحياة، وما فيها من صنوف ابتلاء بالبشر والخير، والنفع والضرر وكل ما فيه من فتنة لاختيار الصبر واختيار الشكر. وتضمن البيان في هذا النص عناصر المجادلة الإقناعية والإلزامية والإفحامية حول القضيتين المتعجب منهما ﴿أَوْحِبُّنَّ أَنْ جَاءَكُمُ﴾ [الأعراف: ٦٩] وهما:

- ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]: أي: مُوحى به من ربكم.

- ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]: منزل على رجل منكم.

ب- فالعنصر الأول:

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]: لينذركم بعقاب الله المعجل والمؤجل إذا لم تؤمنوا. ولا يكون الإنذار إلا بعد البيان التعليمي واتخاذ الوسائل الإقناعية، ولا يكون أيضاً إلا مصحوباً بالبشرى إلا لمن آمن وأطاع، وهذه الغاية لوحظ فيها المذكر.

ج- والعنصر الثاني:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]: اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوح في تعمير الأرض، والهيمنة على الأمم، فإن عاداً كانوا ذوي قوة ونعمة وعظمة، فالخلفاء جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره في شيء، أي: يتولى عمل ما كان يعملها الآخر، فالمراد جعلكم خلفاء في تعمير الأرض.

ولما قال: ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، علم أن المقصود أنهم خلفاء قوم نوح، فعاد هي أول أمة أقامت حضارة بعد الطوفان، وكان بنو نوح قد تكاثروا وانتشروا في الأرض، في أرمينية والموصل، والعراق وبلاد العرب، وكانوا أمماً كثيرة، وكانت عاد أعظم تلك الأمم، وأصحاب السيادة على سائر الأمم، وليس المراد أنهم خلفوا قوم نوح عند المؤرخين، وهذا التذكير تصريح بالنعمة، وتعريض بالندارة والوعيد بأن قوم نوح إنما استأصلهم، وأبادهم عذاب من الله على شركهم، فمن اتبعهم في صنعهم يوشك أن يحلّ به عذاب أيضاً^(١).

د- ﴿وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]:

أي: أن الله زاد أجسامهم نشرًا وسعة، فكانوا في أجسامهم أضخم وأكبر من غيرهم وكان لبسطة أجسامهم أثر مباشر في قوتهم وتقدمهم المادي.

ولا يعنينا (قياس) أجسامهم التي زادها الله بسطة من الطول والعرض والوزن والارتفاع، ولا يهمنّا تحديد أطوالهم، وأوزانهم بالأرطال، وتسجيل (العماليق) فيهم، لأنّ الخوض في هذا من الذهاب للأساطير والإسرائيليات^(١).

كل ما نقوله: إنّ الله زادهم في الخلق بسطة في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش^(٢)، وكانوا متقدمين على غيرهم، فقد كان قوم عادٍ من أقوى الأمم في عصرهم، وأغنى المجتمعات، وأعظمها حضارة، وأكثرها مدنية. وقد بينت قصة نبي الله سيدنا هود عليه السلام أسباب هلاكها وسقوطها وسنوضح ذلك لاحقاً بإذن الله^(٣).

هـ- ﴿فَاذْكُرُواْ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

فالفاء في قوله ﴿فَاذْكُرُواْ﴾ [الأعراف: ٦٩]؛ فاء الفصيحة: أي إن ذكرتُم وقت جعلكم الله خلفاء في الأرض، ووقت زادكم بسطة؛ فاذكروا نعمه الكثيرة تفضيلاً. والآء جمع (إلى)، وهي: النعم^(٤).

أي اذكروا نعم الله عليكم، لتعرفوا فضله، وإحسانه، فتشكروه، وتعبدوه وحده. وقد ذكر الله في سورة الشعراء تفصيلاً لبعض آلاء الله تعالى عليهم على لسان هود عليه السلام: ﴿اتَّبِنُوا كُلَّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَتُونَ ﴿١٧٢﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٧٣﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشُكُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٧٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٥﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٢].

(١) القصص القرآني، ١/ ٢٣٧.

(٢) تفسير السعدي، ص ٣٥٨.

(٣) التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ٣/ ٩١.

(٤) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، (ألي) ١/ ١٧٩.

وإن هذا يدل على أن بلادهم كانت خصبة، وأهله بالسكان والعمران؛ جناتها كثيرة، ومياهها غزيرة، وخيراتها وفيرة، وكان لهم حضارة قوية ما عرفت المجتمعات البشرية مثلاً لها في عصرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكَفَ قَعْلَ رَبِّكَ بَعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ﴾ [الفجر: ٦-٨].

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]: أي: لأجل أن تحظوا بحياة طيبة في الدنيا، وسعادة عظيمة خالدة في الآخرة. وفي هذه النصائح التي يقدمها هود عليه السلام لقومه ترغيب لهم بأنهم إذا عملوا بما جاءهم في الذكر الذي بلغهم إياه عن ربّه بأمانة وعملوا بنصائحه التي وجهها لهم، وذكروا نعم الله عليهم فحمدوه، وشكروه، وعبدوه، ولم يشركوا بعبادته شيئاً أفلحوا، فماذا كان ردّهم؟^(١).

٦- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أ- قال ابن جرير رحمه الله: في معنى قول الله تعالى: قالت عاد لهود: أجئنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصاً، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آبائنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك ولا متبعيك على ما تدعوننا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد^(٢).

ب- قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مُخْبِراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مَرِّ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِثْلَ مَا أَنْزِلْتَ﴾ [الأنفال: ٣٢]^(٣).

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٥٠.

(٢) تفسير الطبري، ٨/ ٢٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بدوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ٣/ ٤٣٥.

وإن الواضح من الآيات الكريمة، بأن قوم هود لم ينتفعوا بنصائح هود عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهكذا حين تنحرف الفطرة لا تُفَكِّر ولا تتدبَّر، ولا تتذكَّر، وهكذا أخذت الملائكة العزَّة بالإثم، واختصروا الجدل، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصيح، ويهزأ بالإنذار، وقد تمكَّن منهم إبليس في الغواية حتَّى وصلوا إلى درجة لا يُطيقون الاستماع إلى التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وترك عبادة الأصنام. وهذا مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول.

وإن هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسانية الأصلية من حرية التدبُّر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقاليد وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواء العبيد أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور^(١). وإن التمسك بالتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد، من أكبر المعوقات التي تقوم في وجه دعوة الأنبياء والمرسلين، وتمنع كل إصلاح وتقدم^(٢).

وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق، بل فراراً من تدبُّر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد، وقالوا لنبيهم الناصح الأمين: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا عَدَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، ومن ثمَّ كان الجواب حاسماً وسريعاً في ردِّ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣):

٧- قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

أ- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]:

- ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ [الأعراف: ٧١]: أي وجب، وثبت.

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١١.

(٢) التفسير الموضوعي، ٣/ ٩٢.

(٣) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١١.



- ﴿رَجَسٌ﴾ [الأعراف: ٧١]: إسم لكل مستقذر، ومن ثم استخدم في الأفعال القبيحة^(١). ويرجع معنى الرّجس إلى النجاسة التي تجتنبها الطباع، وقيل: عني بالرجس: الرين على القلب بزيادة الكفر^(٢). والمعنى: أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم فلا يقبلوا الخير ولا يصيرون إليه. وعن ابن عباس أنّه فسّر الرّجس بالسخط، وفسّر الغضب بالعذاب^(٣).

- ﴿وَعَصَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]: الغضب السخط، وقيل هو إرادة الانتقام، وقيل: هو إحلال العقوبة بمن يستحقّها^(٤). وفسّر الجمهور الرّجس بالعذاب^(٥). وقيل ﴿رَجَسٌ وَعَصَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]: عذاب وسُخْط^(٦).

ب- ﴿أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]:

ولقد أردف هود عليه السلام بيّن لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها، فقال: ﴿أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ [الأعراف: ٧١]، فهي ليست سوى أسماء، غاربة عن المسمّى بسبب ضعفها وعجزها، إن هي إلا رموز وأسماء مُخترعة^(٧).

أي: إنّ ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة، إنّها مجرد أسماء أطلقتوها أنتم وآباؤكم، من عند أنفسكم لم يشرّعها الله ولم يأذن بها، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان^(٨).

والتعبير المتكرّر في القرآن: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]؛ هو تعبير موح عن حقيقة أصلية إن كل كلمة أو شرع أو عُرف أو تصوّر لم ينزّله الله؛ خفيف الوزن قليل الأثر،

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ١١/٣٢٠.

(٢) التيسير في القرآن، أبو نصر القشيري، ٣/٢١٧.

(٣) التحرير والتنوير، ٤/٢٩٧.

(٤) التيسير في القرآن، أبو نصر القشيري، ٣/٣٩٦.

(٥) التحرير والتنوير، ٤/٢٩٧.

(٦) التفسير الموضوعي، ٣/٩٢.

(٧) المصدر السابق، ٣/٩٢.

(٨) في ظلال القرآن، ١/١٣١٢.

سريع الزوال. إِنَّ الفطرة تتلقّى هذا كلّ في استخفاف، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرّت ونفذت إلى الأعماق، بما فيها من سلطان يودعها إياه.

وكم من كلمات برّاقة، وكم من مذاهب ونظريات وكم من تصوّرات مزوّقة، وكم من أوضاع حُشرت لها كلّ قوى التزيين والتمكين، ولكنّها تتهاوى أمام كلمة من الله سبحانه، فيها من سلطانه سلطان، وفي ثقة المطمئن، وقوّة المتمكّن، يواجهه قومه بالتحدي^(١):

ج- ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]:

إنّ هذه الثقة هي مناط القوّة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله، وإنّه على يقين من هزل الباطل وضعفه وخفّة وزنه مهما انتفش، ومهما استطال، كما أنّه على يقين من سلطان الحق الذي معه، وقوّته بما فيه من سلطان الله^(٢).

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ [الأعراف: ٧١] ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ؛ وفرّق بيت الانتظارين؛ انتظار من يخشى وقوع العقاب ومن يرجو من الله النصر والثواب^(٣)، ولا يطول الانتظار في السياق^(٤):

٨- قال تعالى: ﴿فَاجْنِبْنَاهُ وَلِذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]

أ- ﴿فَاجْنِبْنَاهُ وَلِذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٧٢]:

من العذاب الذي أنزله الله على الأمة كلّها، لأنّهم آمنوا، وخرجوا على ضلال المجتمع الذين كانوا يعيشون فيه، ولم يسيروا مع تيّار الضلال الغالب عليه، ولم يرضوا به^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير السعدي، ص ٣٥٨.

(٤) في ظلال القرآن، ١/ ١٣١٢.

(٥) التفسير الموضوعي، ٣/ ٩٣.

ب- ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]:

قال الإمام أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ يحتمل أن يكون المعنى: برحمة منا هديناهم. ويحتمل: أنه كان لهم ذنوب، لكن برحمتنا أنجيناهم. ولأن النجاة لا تكون إلا برحمة الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ»^(١).

ج- ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾ [الأعراف: ٧٢]:

أي: أهلكناهم إهلاكاً كلياً، ودمرناهم عن آخرهم، ولم يبق منهم نسلًا، ولا عقبًا ولا ذكرًا حسنًا في الناس^(٢)؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وركبوا العناد وتمكّن منهم الكبر والفساد.

د- ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]:

بآيات الله، فلم يكونوا مصدّقين بها ولا مُدعّنين لها^(٣).

ولقد حبس الله عنهم المطر، حتّى أجذبت بلادهم، وبيست زروعهم، وهلكت أنعامهم، ثم أرسل عليهم الريح العقيم والأعاصير المدمّرة في أيام نجسات حاسمة، قال تعالى: ﴿سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً يَأْتِيهِمْ حُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتِخَزَوا فِي خَاوِيَةٍ ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مَنًّا ۖ بَاقِيَةً﴾ [الحاقة: ٧، ٨]؛ وهكذا أهلك الله أمة كانت أقوى الأمم في زمانها، ودمّر حضارة كانت أغنى الحضارات وأنصرها في عصرها، لأنهم أعرضوا عن دعوته؛ دعوة الرحمن، واتّبعوا وساوس الشيطان^(٤).

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب الْقَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ رقم ٥٩٨٢، تأويلات أهل السنة، ٤/ ٤٧٧، التيسير في

التفسير، ٦/ ٣٩٧.

(٢) قصص الأنبياء، العدوي، ١/ ٣٨٨.

(٣) التفسير الموضوعي، ٣/ ٩٣.

(٤) المصدر السابق نفسه.

﴿ثانياً: قصة هود في سورة هود﴾

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنشُرُ إِلَا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَخْرَجْتُ إِلَا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَا فُوتِيَكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَافُكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَيَكْذِبُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ءَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب السور في المصحف الكريم، وهي مكية بالإجماع، ابتدأت السورة ببيان إحكام آيات الله، وكانت السورة السابقة (سورة يونس) قد افتتحت أيضاً بالحكمة. والفرق بينهما أن سورة يونس ركزت على حكمة الله في قضائه وقدره، وأمّا سورة هود، فتحدثت عن حكمة الله في كتابه وآياته، لتركز على حكمة المؤمن في التعامل مع (الواقع) بالاستعانة بآيات الله الحكيم.

إن هدف السورة هو التوازن في مواجهة الأزمات، بالاستقامة على الحق، والاستمرار في طريق الدعوة والإصلاح، دون طغيان وتهوّر، ودون الركون لأهل الباطل بتقليدهم والارتواء في أحضانهم والاستسلام لهم وتقليدهم.

ولأن الأمر بالتوازن صعب على النفس، مُتأصل في الجبلّة الإنسانيّة، كان التقوي بالصحبة الصالحة مطلباً رئيسياً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].



قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: سبحانه الذي جعل اعتدال الدين بين (لائين)؛ وهي: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢] ولا ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ [هود: ١١٣]^(١).

وقد نزلت سورة هود في أجواء عصيبة تحيط بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتولّت تثبيته على المنهج من خلال وضع أسس ومقومات ذلك الثبات وعرض سير الأنبياء، وما واجهوا مع تلك الأمم، وتقديم نماذج للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعه من خلال بيان منهج الرسل في مواجهة الباطل والكفر والعناد.

وقد ذكرت سورة هود قصصاً مختلفة لأنبيااء الله؛ نوح وهود وصالح وشعيب وموسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والتركيز في القصة على تطبيق النبي المرسل للأوامر الثلاثة:

- الاستمرار ﴿فَاسْتَقِمَّ﴾ [هود: ١١٢].

- عدم الطغيان ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢].

- وعدم الركون إلى الباطل ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ [هود: ١١٣].

وسُمّيت السورة باسم (هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيّنت السورة الكريمة للمؤمنين بأن الآخرة هي التي تحقّق العدل الإلهي، وأن ممّا يعين على الاستقامة: العبادة (الصلاة)، والصبر، والعمل، والإصلاح، والدعوة إلى الله^(٢)، وغير ذلك من الأمور.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْنَ غَيُّوهُ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ مَعْزَوَاتِهِمْ كِبَارَهُمْ فَسَخَّ اللَّهُ الْبِلَادَ الْغَايَةَ ذَوَاتِ الْأَنْسَاءِ شَذَاوَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [هود: ٥٠].

عادت الجاهليّة مرّة أخرى كما عادت من قبل، بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من ذريّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا بد أن أجيالاً من ذريته بعد استخلافه، وميلاد الحضارة الإنسانيّة الثانية عاشت بالإسلام، وعلى التوحيد وإفراد العبادة لله من بعده، حتّى اجتالتهم الشياطين

(١) مقاصد سور القرآن، ص ٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

مرّة أخرى، فانحرفوا واختاروا الوثنيّة على التوحيد، والدينونة للعبيد، على الدينونة لله، فأرسل الله لهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أ- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]:

والواو لعطف قصّة على قصّة أو استئناف.

- ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]: لأنّه منهم، فهو أخوهم أخوة قوم وقبيلة، لا أخوة دين.

ب- ﴿قَالَ يَاقَوْمَ﴾ [هود: ٥٠]:

وهو نداء مقصود منه بيان القربى والرابطة والتودّد، استجلاباً لسماعهم وانتباههم واستجابتهم.

ج - ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠]:

هذه الكلمات هي ملخص الدين كلّ منذ آدم إلى خاتم المرسلين، فلا يعدو الدين هذه الكلمات، أمّا العبادة فهي كلمة جامعة شاملة تشمل العبادات بمعنى الشعائر وكلّ نشاط الحياة من بعد، ولا تقتصر على هاته الشعائر. وقصرها على ذلك من تقصير الفهم، فالشعائر مهمّة قطعاً، وهي أركان لكنّ الدين أشمل منها والعبادة أشمل بطبيعة الحال كما بيّنا.

وكلّ إنسان عابد بالضرورة وبالفطرة فهو لا ينفكّ عن عبادة وعن طاعة معبود، فإن استكبر عن عبادة الله فقد وقع تلقائياً في عبادة سواء بما لا يستحقّ العبادة، كالشيطان، أو المعبودات التي عبّدت في الأرض من شجر وحجر وبشر وشمس وقمر ومخلوقات ورموز، أو عادات وتقاليد، أو قوى متنفّذة، فقد تعدّدت المعبودات وجاء الدين ليُرَدّ الناس إلى العبادة الحقّ، وجاء الرسل ليردّوا الناس إلى الله المعبود الحقّ، والمعبود بحق سبحانه، إلّا هو.

ولذا لم يقتصر قول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٥٠] وإنّما أردفه ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠]؛ فلا يُعبد معه أحد ولا يُعبد من دونه أحد كائناً ما كان هذا^(١).

وقد قال المصطفى عليه السلام: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم»^(١)، وعدد وأضاف غيرها، وسمّى كل ذلك معبودات. وتوسّعت الآن دائرة المعبودات في قضايا المادّة والأهواء والتقاليد والأبطال المزعومون من نجوم يُعظّمون ويُتبعون ويُطاعون، أي يُعبّدون من دون الله ومهمّتنا تحرير الإنسانّيّة من كلّ صور العبادة الزائفة إلى العبادة الحق، فمهمّتنا أن نُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد^(٢).

إنّ قوم عاد انحرفوا عن التوحيد وإفراد العبادة لله عزّ وجلّ نتيجة للطغيان المادّي على حساب قيم الروح ومناهج الأنبياء، فقد انشغلوا بالتصنيع، وإنشاء القصور والقلاع والأبنية الباهرة ونسوا عبادة الله في خضمّ زهوهم بحضارتهم المادّيّة التي اشغلتهم عن الحقائق الكبرى من التوحيد والمصير، وحقيقة الدنيا ومآل الآخرة، فذكّرهم هود عليه السلام بضرورة التوجّه لعبادة الله تعالى وحده. فالله قادر على سحق حضارتهم التي كانوا يعترفون بها^(٣)، وكان للملأ الدور الكبير في إضلال قوم عاد.

د- ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]:

أي: بعبادتكم غيره سبحانه، ما أنتم في هذا إلّا كاذبون على الحقّ مفترّون مدّعون زوراً وبهتاناً أنّ هناك من يعبد سوى الله.

واستخدام صيغة الحصر والقصر بأن النافية بمعنى (ما). وأداة الاستثناء إلّا وهو قصر حقيقي إذ لا معبود إلّا الله^(٤).

- قال الزمخشري رحمه الله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]: تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان شركاء. وما من رسول إلّا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحّصها إلّا حسم المطامع^(٥).

(١) المعجم الأوسط للطبراني، باب من اسمه إبراهيم، رقم ٢٦٩٦.

(٢) تفسير سورة هود، ص ١٩٨.

(٣) أحسن القصص، زاهية الدجاني، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص ١٨٤.

(٤) تفسير سورة هود، ص ١٩٩.

(٥) تفسير الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٠١٣م، ٤/ ١٥٣.

- وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] توبيخ وإنكار، فهي بيان لجملته ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠]؛ أي ما أنتم إِلَّا كاذبون في ادعاء إلهية غير الله تعالى^(١).

- وقال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]؛ يعني أنكم كاذبون في قولكم: إِنَّ هذه الأصنام تحسن عبادتها أو في قولكم: إنها تستحق العبادة. وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراءً وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك؟

والإنسان هو الذي ركبها وصورها! فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعيدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها^(٢).

وبعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده بين لهم أنه لا يريد على دعوتهم وتعليمهم وتعريفهم أجراً، فالأنبياء حملة رسالة لإنقاذ الناس وإعطائهم، لا ليأخذوا منهم^(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿يَقَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

أ- ﴿يَقَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١]:

يا قوم للمرة الثانية لمزيد من التقرب والتحبب.

- ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ [هود: ٥١]: لا أطلب منكم. وعبر بالسؤال لصريح الدلالة.

- ﴿عَلَيْهِ﴾ [هود: ٥١]: على هذا الدين، أو على هذا التعليم، أو على هذا الوعظ والتذكير والبلاغ.

- ﴿أَجْرًا﴾ [هود: ٥١]: أعم من أن يقول مالا، فالأجر قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً، وقد يكون منفعة أو ما شابه، وهو لا يريد شيئاً مطلقاً من جميع هذا^(٤).

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٥٥.

(٢) التفسير الكبير، ١٨/ ١٠-١١.

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه.



ب- ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]: بصيغة الحصر والقصر عبر النبي الكريم هود، فما أجري إِلَّا على الذي خلقتني على فطرة الدين والتوحيد وعبادته سبحانه، فهو من يتولّى هذا، أمّا أنتم فأنا بفضل الله غني عن سؤالكم بمولاي الغني، ومستغن عن أن أطلب من أحد شيئاً لمنفعة شخصية^(١).

وهذه ركيزة مهمّة في دعوة هود عليه السلام في عدم طلب أجر من قومه في مقابل دعوته الإيمانية، فأجره عند الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)^(٢).

فهود عليه السلام كان عمله لله لا يريد من أحد أجراً ولا ثناء ولا فائدة ولا منفعة إِلَّا من الله عزّ وجلّ.

ج- ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]: أي خلقتني وأبدعني، قال الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: خلقتني مُعَدّاً لهذه الرسالة، لأنّ الفطرة تعني التكوين الأساسي للإنسان^(٣).

- ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]: خلقتني على الفطرة السليمة؛ فطرة التوحيد لله^(٤).

إنّ هوداً عليه السلام خاطبهم بأنّه يريد بدعوته إلى التوحيد رضا الخالق الكريم الذي فطره على التوحيد، واستدلّ بدليل الفطرة المغروس في كلّ إنسان. فالفطرة السليمة تشهد بوجود الله (جَلَّ جَلَالُهُ) والاستدلال على الله بالفطرة يُعَدُّ من أوّل الأدلّة على وجود الله، وباقي الأدلّة تأتي مؤكّدة ومُرسّخة لما فطر الله عليه الخلق، لأنّ الفطرة نابعة من كيان الإنسان ومن أمر مستقرّ في ذاته، قد أودعه الله في النفوس الإنسانية وفطر العباد على الإقرار بوجود خالق قادر مدبّر يستحقّ العبادة والتأليه، فالله فطر عباده على التوحيد والقلوب مفطورة

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٢) حوارات القرآنية قراءة حجاجية، محمد عبد المطلب، دار النابعة، ٢٠٢١م، ص ١٠٧.

(٣) تفسير الشعراوي، ١١/٦٤٩٤.

(٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ٦/٤٠٣.

على حبّ إلهها وفاطرها وتألّفه^(١)، وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكّر قومه بدليل الفطرة الذي لا ينكروه إلّا الجاحدون والمعاندون.

إنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ يبيّن لقومه بأنّ معرفة الرب سبحانه ووجوب عبادته وحده مركوز في الفطرة بغير استدلال عليه، فهي معرفة فطريّة ضروريّة بديهية أوليّة، وليست معرفة الربوبية وحدها فقط الراسخة في أعماق الفطرة فحسب بل كل من وحدانيّة الربوبية والألوهية معلومة فيها على حد سواء.

فكما أنّ أصل العلم بالربوبية فطري، فكذا أيضاً أصل العلم بالألوهية فطريّ ضروريّ فإذا كانت الفِطْر بلا فساد كان القلب ضرورة عارفاً بفاطره، مُحبّاً له، عابداً له، وحده دون سواه. وكثيراً ما يطرأ التغيير والتبديل على العديد من الفِطر من قِبَل القائمين على تنشئة أصحابها فيعتريها الجهل بوحدانية الله في ألوهيته وقد يتجاوز ذلك إلى الجهل أيضاً بوحدانيته في ربوبيته، بل قد يتعدّى ذلك لدي الفِطر المنتكسة بالكلية، إلى الجهل بأصل الألوهية والربوبية. ومع هذا البون الشاسع والهوة السحيقة بين حال الفِطر المبدّلة، وحال ما جُبلت عليه، فإنّ الأدلّة العقلية الفطرية والمقاييس الضرورية لا تزال تلحّ على أصحاب تلك الفِطر المنحرفة من أجل أن تفيء إلى الحق، وتلتزم به، وتستقيم عليه.

تلك الأدلّة اليقينية التي لو عاد الكفار إلى تأملها بأدنى نظر فيها لقطعوا جميعاً بوجوب عبادة فاطر السماوات والأرض وحده دون ما سواه. وعلى ضوء ما سبق، نعلم حاجة البشر الماسة لضرورة إرسال الرسل (صلى الله عليهم)، فلقد بعثهم لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها، لتذكير الخلق بموجب فطرتهم ومقتضى جبلتهم، فكمال الدين التام بالفطرة المكّملة بالشرعية المنزّلة^(٢).

(١) منهج القرآن الكريم في دحض شبهات الملحدين، أفنان حمد محمد الغماس، مركز دلائل، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٥٠.

(٢) دليل الفطرة والميثاق، أبو يوسف مدحت فراج، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٦م، ص ٤٢.

إن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا.

وستظلّ الفطرة الإنسانية تحسّ بالتوتر، والجوع والظمأ حتى تجد الله وتؤمن به وتتوجه إليه^(١).

- ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١] كلام هود عليه السلام يدلّ على أنّه في استراحة وأمن وهداية، واستقرار واطمئنان وأنّه قريب من ربّه وأنّه وجد السعادة والسكينة- وأنّه مقبل على الله وعلى دعوة الناس إلى توحيد سبحانه ومحبّته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له^(٢).

د- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]: أن الله واحد وأنّه ربّ كلّ شيء^(٣).

وهذه دعوة من هود عليه السلام لإعمال العقل والتدبّر إلى ما هم فيه لأنّ ما هم فيه غير معقول في ذاته إذ كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ وهو حجر ولا ينطق ولا يعقل^(٤).

إنّ العقل ملكة ربانيّة ناضجة أودعها الله تعالى في الإنسان وخلقها عليها متهيئاً بسببها لقبول العلم وهذا هو محلّ التكليف ومناط الأمر والنهي، وبه يكون التمييز والتدبير^(٥).

ويُراد به العلوم الضرورة والمسلّمات العقلية التي يستفيد بها الإنسان بتلك القوة الفطرية، وهذا العقل المستفاد وإليه الإشارة في القرآن الكريم في كلّ موضع ذمّ الله تعالى في الكفّار بعدم العقل^(٦). كقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْرٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

إنّ هوداً عليه السلام ذكرّ قومه بنعمة العقل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، وحثّهم على استخدامها الصحيح، يقول ابن القيم رحمه الله: فإنّ الله سبحانه ربّ العقول في عباده ليعرفوا

(١) موسوعة القرضاوي، ١٣٨/٧.

(٢) المصدر السابق، ١٣٩/٧.

(٣) التيسير في التفسير، ٢١٧/٨.

(٤) زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٣٧١٧/٧.

(٥) الشرح في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م،

١٤٠٧/٢.

(٦) أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٩-٢٤.

بها: صدقه وصدق رسله، ويعرفوه بها، ويعرفوا كماله وصفاته، وعظمته، وجلاله، وربوبيته، وتوحيده، وأنه الإله الحق وما سواه باطل، فهذا هو الذي أعطاهم العقل لأجله بالذات والقصد الأول، وهداهم به إلى مصالح معاشهم التي تكون عوناً لهم على ما خلّقوا لأجله، وأعطوا العقول له، فأعظم ثمرة للعقل: معرفته لخالقه وفاطره، ومعرفة صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وصدق رسله، والخضوع والذلّ والتعبد له^(١).

إنّ العقل من الأدلة القاطعة على معرفة الله وتوحيده، وكذا بطلان الشرك وقبحه وجاءت دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤيدة بالوحي الربّاني على توحيد الله وإفراده بالعبادة والابتعاد عن الشرك بكافة أشكاله وألوانه. ونلاحظ أنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكّرهم بدليل الفطرة وحثّهم على استخدام العقل في المناط الصحيح، فلا شيء أوجب في العقول الراجحة النيرة، والفطر السليمة المستقيمة من عبادة الخالق الكريم ربّ العالمين.

ولذلك قال الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لقومه: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، فقد نبّه ذاك العبد الذي جاء ذكره في سورة (يس) أنّ عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، وقبيح الإخلال بها، فإنّ خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلّها بعدّ تابعة لإيجاده وخلقها، وقد جبّل الله العقول والفكر على شكر المنعم أو محبة المحسن^(٢).

إنّ القرآن الكريم بيّن الأدلة العقلية الدالة على التوحيد، والعدل والمعاد وقبح الشرك والظلم والكذب، فالقرآن الكريم بيّن الأدلة العقلية الدالة على ذلك، وأنكر على من لم يستدل بها، وبيّن أنّه بالعقل يعرف المعاد، وحسن عبادته وحده، وحسن شكره، وقبح الشرك وكفر نعمه وقد بسط ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الْكَلَامَ على ذلك في مواضع عديدة^(٣).

(١) الصواعق المرسلّة، ابن القيم، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٢٣٦/٤.

(٢) بدائع التفسير، ابن القيم الجوزية، دار ابن الجوزي، الرياض، ٢٠٠٧م، ٣/٤٧٧.

(٣) مجموع الفتاوى، ٢٥٢/١٦-٢٥٣.



فمسألة التوحيد، وعدم جواز الشرك؛ من أثبت الثواب وأركز المرتكزات في الفطر والعقول، فالعقل قاطع بوجوب عبادة الفاطر الخالق، المربي المنعم، المالك لجلب النفع، ولدفع الضرر، وكذلك يقطع بحرمة عبادة كل مخلوق مربوب محدث.

وقد هيأ الله العقول للقيام بالبراهين الباهرة والحجج الدامغة^(١)، وبهذا كانت الفطر والعقول؛ من أقوى مستندات هود عليه السلام في دعوته وإقامة الحجج والبراهين على مشركي قومه، ويا لها من أدلة وحجج دامغة وضحها هود عليه السلام ﴿يَقَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وبعد أن طلب هود عليه السلام من قومه العبادة لله، وأنه لا يطلب منهم شيئاً لنفسه؛ طلب منهم الاستغفار من ذنوبهم والتوبة إلى الله، ليسقوا الغيث والأمطار ويزدادوا قوة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها مناسبة لطيفة، فإنه نفى إرادة مصلحة نفسه في الآية السابقة، ودعاهم إلى مصلحتهم في هذه الآية، فقد قال إنه لا يطلب أجراً لنفسه، ولكن إن هم أجابوه آتاهم الله المال والقوة^(٢).

أ- ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]:

قدّم الله تعالى الاستغفار على التوبة؛ لأنّ الاستغفار إنّما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأمّا التوبة فتالية له، ومن شروطها عدم العودة على ما أسلف من المعصية.

(١) الشرك في القديم والحديث، ١٤١٧/٢، من أراد التوسع فليراجع الجريمة والعقاب، د. محمد المجذوب، ص ١٨ إلى ٣٥، أسلوب الإثارة الوجدانية في الدعوة في سورة هود، مروة الدهماني، رسالة جامعية، جامعة السلطان قابوس، عمان، ٢٠١٥م، ص ٩٠ إلى ٩٥، مباحث التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، ص ٩٥-١٤٣-١٥٠، أصول الاعتقاد في سورة يونس، د. قذلة بنت محمد القحطاني، رسالة ماجستير- كلية أصول الدين، الرياض، ٢٠١٦م، ص ٥٦.

(٢) على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة ٢٠١٠م، ص ٢١٢.

وجاء في (البحر المحيط): أَمَرَ بالاستغفار من الذنوب ثمَّ بالتوبة، وهما معنيان متباينان، لأنَّ الاستغفار: طلب المغفرة، وهي الستر والمعنى لا يبقى لها تبعة. والتوبة: الانسلاخ من المعاصي والندم على ما طلب منه، على عدم العودة إليها^(١).

وجاء في تفسير الرازي رَحِمَهُ اللهُ: في فائدة هذا الترتيب أنَّ المراد استغفروا من سالف الذنوب ثمَّ توبوا إليه في المستأنف.

وإنَّ الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدَّم الاستغفار ليدل على أنَّ المرء يجب ألاَّ يطلب الشيء إلاَّ من مولاه، فإنَّه هو الذي يقدر على تحصيله، ثمَّ بعد الاستغفار، ذكر التوبة لأنَّه عمل يأتي به الإنسان ويتوسَّل به إلى دفع المكروه. والاستعانة بفضل الله مقدَّمة على الاستعانة بسعي النفس^(٢).

ولقد قال عبد الحميد محمود طهماز: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أي: اسألوه مغفرة ما مضى من ذنوبكم ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] أي: ثمَّ توبوا إلى الله في المستقبل بالندم على ما فات والإقلاع في الحال، والعزم على عدم العودة في المستقبل، فلا يُقال: إنَّ الاستغفار هو التوبة، بل بينهما تغاير^(٣).

وإنَّ أصل معنى الاستغفار هو طلب الغفر، أي: الستر. ومعنى التوبة: الرجوع، ويُطلق الأول على طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه، والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم الرجوع إليه، والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة، والاستمرار عليها^(٤).

(١) البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٢٠١٥ م.

(٢) تفسير الرازي، ٣١٥/١٨.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين، الصاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦ م، ١٩٣/٢.

(٤) التفسير الموضوعي، ١٣/٤.

وقد قال الطاهر بن عاشور رَحْمَةُ اللَّهِ: والاستغفار طلب المغفرة من للذنوب، أي: طلب عدم المؤاخذه بما مضى منهم من الشرك، وهو هنا مكّنّى له عن ترك عقيدة الشرك، لأنّ استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفر بذنوبه في جانبه، ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم غير ذنب الإشراك، إذ لم يكن لهم شرع من قبل، وأمّا ذنب الإشراك، فهو متقرّر من الشرائع السابقة جميعها، فكان معلوماً بالضرورة، إذ كان الأمر بالاستغفار جامعاً لجميع هذه المعاني تصريحاً وكتابةً.

وفي التوبة: الإقلاع على الذنب في المستقبل، والندم على ما سلف منه، وفي ماهية التوبة العزم على عدم العودة إلى الذنب، فيؤول إلى الأمر بالدوام على التوحيد، ونفي الإشراك^(١). وقد قال عبد الرحمن العوفي: وكثيراً ما يقرن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذ عن طلب المغفرة باللسان والتوبة: عبارة الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح لأنّ دواء الذنوب الاستغفار^(٢).

- ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢]؛ طلب هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه الاستغفار من الذنوب، والرجوع إلى الله تعالى لإرسال السماء بالمطر المدرار، وزيادة القوة إلى قوتهم^(٣).

وإنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ على معرفة عميقة بمن يغفر الذنوب، ولذلك دعاهم إلى طلب المغفرة من ﴿رَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٢] من الخالق المالك المتعرّف الذي من أسمائه الحسنی الغفور والغفار وغافر الذنوب.

وإنّ الغفار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هو الذي أظهر الجميل، وستر القبيح. والذنوب من جملة القبائح التي سترها الله بإسبال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة. إن الاستغفار من طلب الغفران، والغفران: يكون بتغطية الذنب بالعفو عنه^(٤).

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٥٥.

(٢) الدعوة إلى الله في سورة هود، العوفي، ١٩٩٢ م.

(٣) شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، ص ١٠٤.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد

ملوح، دار الوسيلة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م، ٢/ ٢٥٢.

وعلم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته لقومه بأن الله الغفور، يغفر الذنوب، ويتوب على كل من يتوب ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، والتوبة مأخوذة من تَوَبَ أي: رجع، وترك الذنب. فقد قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه بتدارك من الأعمال بالإعادة، ويتبع ذلك التوبة النصوح، وهي توثيق العزم على ألا يعود المذنب بمثل الذنب الذي اقترفه، لتورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

إِنَّ قَوْمَ عادِ عَالُوا فِي الْأَرْضِ، واستكبروا، وغرَّتْهم قُوَّتُهُمْ، فطلب هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه الاستغفار، والتوبة لسلامتهم في الدنيا والآخرة.

إِنَّ التَّوْبَةَ ملازمة للإنسان المفطور على الخير والشر، فقد يرتكب المعاصي والمخالفات، مع وسوسة الشيطان له بذلك، فيأتي باب التوبة مفتوحاً للإنسان رحمة من الله تعالى ليغفر له الذنوب والمعاصي، ويرجع إلى الله.

إِنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى التوبة، والله عَزَّجَلَّ من أسمائه (التواب)، والتوبة من شرعة الله الخالدة، وهي من الأحكام الشرعية للإنسان طول الأزمان والعصور، ودعا إليها الأنبياء والرسل.

إِنَّ الاستغفار والتوبة إلى الله، حثَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الالتزام بهما، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة للأمة، فالتزم الاستغفار آناء الليل والنهار، وبيّن فضل الاستغفار، ودعا المسلمين إلى طلبه قولاً وفعلاً، لمنافعه الكثيرة في الدنيا والآخرة^(١).

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر: «يستغفر كل يوم مئة مرة»^(٢). وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(٣).

(١) شرعة الله للأنبياء، ص ١٠٤.

(٢) الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» رواه، مسلم، كِتَابُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، رقم ٤٨٧٠.

(٣) سنن أبي داود، باب في الاستغفار، رقم ١٢٩٧.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر الله، ويتوب إليه يومياً، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

- ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]: أي: بعد استغفاركم توبوا إليه، واستخدم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حرف الجر (إلى) وبعده الضمير العائد إلى الرب الذي يريكم ويزكيكم ويرزقكم سبحانه. (وإلى) تشعر برحلة الإياب بعد الغياب عن الرب التَّوَاب.

فهود عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى الغفار والتَّوَاب والرب الجليل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]؛ أي: توبوا إلى التَّوَاب، فَإِنَّ الله عَزَّجَلَّ هو التَّوَاب على من تاب إليه من عباده المذنبين، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه، وتوبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه^(٢).

فالله عَزَّجَلَّ: هو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لهم، وعفواً عن خطاياهم^(٣). ووصف الله سبحانه نفسه بالتَّوَاب لكثرة من يتوب عليه من خلقه^(٤).

- تعريف التوبة:

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: في تعريفه للتوبة: هي الندم من القلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله^(٥).

- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: التوبة النصوح: هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رَدَّه إليه بطريقه^(٦).

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم والليلة، رقم ٥٨٣٢.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٠٣.

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٠٣.

(٤) تفسير السعدي، ٣٠٠/٥.

(٥) والله الأسماء الحسنی، ص ٥٨٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٣٩٢/٢.

- قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: التوبة ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة^(١).

- وقد عرّفها الإمام ابن القيم الجوزية، فقال: لا يكون -الإنسان- بمجرّد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتّى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، وهذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين... ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فكلّ تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلّا من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، قال تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحذور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنّما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين^(٢).

فالإمام ابن القيم يرى أنّ التوبة لا يكفي فيها ترك المنهي عنه، بل لا بد من العزم الأكيد على فعل المأمورات والإتيان بها^(٣).

- وعرّفها الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: بأنّها عبارة عن معنى يتنظم في ثلاثة أمور مرتّبة: علمٌ وحال وعمل، فالعلم هو معرفة الذنوب، وعظم خطرها، والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر، وهو ما يسمّى بالندم. والعمل هو ترك الذنب، وتدارك ما يمكن تداركه في المستقبل^(٤).

مما سبق نستنتج أنّ التوبة هي معرفة العبد لقبح الذنوب، وضررها عليه، فيقلع عنها مخلصاً في إقلاعه عن الذنب لله تعالى، نادماً على ما بدر منه في الماضي من المعاصي

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة تزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م، ص ٧٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح، ص ٢١.

(٤) إحياء علوم الدين، ٤/ ٣ بتصرف.

قصداً وجهلاً، عازماً أكيداً على عدم العودة إليها في المستقبل، والقيام بفعل الطاعات والحسنات، متحلاً من حقوق العباد بردها إليهم أو محصلاً البراءة منهم^(١).

ب- ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]:

سكت النص عن قبول توبتهم، وغسيل حوبتهم، وانتقل إلى الجائزة الإضافية، فكأنك ضمنت لهم الأولى، وانتقلت إلى ما بعدها، وما فوقها، فتلك أساس الخير.

- ﴿يُرْسِلِ﴾ [هود: ٥٢]: تستخدم لما كان ممسكاً، أي يُرسلها بعد انحباس. والإرسال يُفيد الوفرة، والكثرة والغزارة، والمقصود: السحاب فهو سماء، بمعنى كل ما علاك فهو سماء، فهو هنا حقيقة^(٢).

- ﴿مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]: متتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه، فتحيا به بلادكم^(٣). أي: غزيراً.

ج- ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]:

لا يزيد الإيمان بالله الناس ومجتمعاتهم إلا قوة ومنعة وتحصناً، ومسكين من يظن الإيمان بعكس ذلك، أي: تخديراً وضعفاً. ولا أدري من أين تسلل مثل هذا الوهم، ووهن التفكير إلى العقول. وقد وصف ربنا تعالى عاداً بأنها ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨]. وقد نقل القرآن قولهم معتدين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَتَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فلو آمنوا، وأسلموا لامتنع عدوانهم عن الخلق، وشرهم، ويبدو أنهم لا يتصورون القوة إلا عدواناً وأما القوة التي يريدونها الدين، فقوة الروح والفكر، وقوة المبدأ، وقوة التجمع، وغيرها^(٤).

(١) التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢١.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٠٤.

(٣) الدعوة إلى الله في سورة هود، ص ٦٠٩.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢٠٤.

ولقد بينت الآية الكريمة بأن من أسباب الرزق الاستغفار والتوبة، فهما من أسباب حصول الأرزاق الوفيرة والخيرات الكثيرة من مطر متواصل مدرار نافع غير ضار^(١).

إن الاستغفار والتوبة ينفعان في الدنيا والآخرة. ويظن كثير من الناس أن فائدة الاستغفار والتوبة الغاية منهما قضية أخروية فحسب، وهذا ظن لا بد من تصحيحه، فإن للاستغفار والتوبة هدفاً آخر وفائدة أخرى؛ وهو أنّهما يورثان أصحابهما المنعة والقوة والسعة والرخاء فلا يستغفار والتوبة فيهما خير الدنيا والآخرة، ولقد أكدت آيات الكتاب العزيز والأحاديث النبوية الشريفة هذه القضية، ولا نكاد نجد نبياً من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلا ويأمر قومه بالاستغفار والتوبة^(٢).

د- ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]:

حذّر هود عليه السلام قومه من التماذي في شركهم بالله تعالى، وعدم الانتهاء عن عبادة الأوثان، لأن من أشرك بالله تعالى وعصى رسله فقد أجرم، فحذّره عليه السلام من بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين. ومن إجرام قوم هود عليه السلام أنّهم كانوا يعملون في الأرض بأعمال المخلّدين ويبطشون بالخلق بطش الجبارين^(٣).

ولقد دعاهم هود عليه السلام إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وتقواه، والابتعاد عن الإجرام والكبائر والذنوب والمعاصي؛ من الكفر والشرك والظلم والإجرام والمعاندة، وجحدوا الحجة، وأنكروا البينات الواضحة، والأدلة التي أقامها نبيهم، والبراهين التي نصّبها دلالة على صدق رسالته، وأحقية دعوته^(٤). وقابلوا دعوة هود عليه السلام الرشيدة الحبيبة، الرقيقة القويّة العميقة بالرفض القاطع، وعاندوا وكابروا^(٥).

(١) الرزق في القرآن الكريم، سليمان البيرة، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص ١٠٠.

(٢) قصص القرآن، د. فضل حسن عباس، ص ٢٢٦.

(٣) الدعوة إلى الله تعالى في سورة هود، ص ٢٦٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٥) تفسير أبو زهرة، ٧/ ٣٧١٨.

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَيْثَنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

كانت الآيات السابقة لهذه الآية تتضمن دعوة هود عليه السلام لقومه، وقد جاء فيها إفراد الله بالعبادة، وأن هوداً لم يطلب من قومه أجراً، ثم طلب منهم الاستغفار والتوبة لتزداد الأرزاق ويزدادوا قوة، وفي هذه الآية ردّ قوم هود بالعناد والإصرار^(١).

أ- ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]:

محاورة منهم لهود عليه السلام بجواب عن دعوته، ولذلك جُرّدت الجملة عن العاطف، وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنه جدير أن يتنبه له، لأنهم نزلوه منزلة البعيد لغفلته فناده، فهو مستعجل في معناه الكنائي أيضاً، وقد يكون مراداً منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية، أو استعمال النداء في حقيقته ومجازه^(٢).

- وقولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]: أي: ما جئتنا بحجة تدلّ على صحة دعوتك، ومعجزة تُبين صدق رسالتك، قالوا ذلك عناداً وتغافلاً عن البيّنات والحجج التي أيده الله تعالى بها، فما نبيّ بعثه الله تعالى إلّا وأيده بالبيّنات الدالة على صدقه، وصحة نبوته، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا إِمَّا أَزْسَلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وفي الحديث الشريف: أنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيّاً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٠٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٥٨.

(٣) مسند أحمد، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم ٩٤٥٢.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "وقولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، بهتان لأنه أتاهاهم بمعجزات لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَآدٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩]، وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ" (١).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: "فالبينة التي جاء بها هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر، وهو تحدي القادرين عليه، لأنهم أهل طغيان، وأهل بطش ومع ذلك لم يقدرُوا عليه، مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن نعلم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جاء ومعه المعجزة العامة الشاملة وهي القرآن الكريم، وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة" (٢).

- ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] لم تأتنا ببرهان ولا بدليل واضح على ما تقول من دعوة للعبادة والتوبة، وما أبعد كلمتهم عن الحق والواقع، فالرسل هم من يقدم البينة، وواقعهم هو الخالي من البينة، والمتخلى عن الدليل، والعمري عن البرهان، فيا لله، كيف تتقلب الصور، وتتكس المفاهيم والقضايا (٣).

ب- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]:

خدعوا أنفسهم بتسميتهم تلك الأصنام (آلهة)، لأن الإله هو من ينزل منهجاً يحدد من خلاله كيف يُعبد، ولم تقل الأصنام لهم شيئاً، ولم تبلغهم منهجاً. إذن: فالقياس المنطقي يلغي تصوّر تلك الأصنام كآلهة، فلماذا عبدوها؟

لقد عبدوها لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوّة مألوه لها، والقوّة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدّد من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهٍ فهذه آلهة مريخة لمن يخدع نفسه بها، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر (٤).

(١) التحرير والتنوير، ٥٥٧/٥.

(٢) تفسير الشعراوي، ١١/٦٥٠٤.

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٠٦.

(٤) تفسير الشعراوي، ١١/٦٥٠٤.

- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]: تَضَمَّنَت الآية ثلاث مرّات (ما النافية)، وهذه ثانيتهما، والثالثة هي الثالثة، وتكرارها يدلّ على شدة تجمدهم عند باطلهم^(١)، أي: وما نحن الذين نترك عبادة آلِهتنا ونتبع قولك.

- ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] أي: لا نتركها تركاً صادراً عن قولك^(٢).

ج- ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]:

وخلاصة القول كما يقال: إنهم لن يؤمنوا له ولن يصدّقوا^(٣)، وما يصحّ من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطاً له من الإجابة^(٤)، فكلامهم يدلّ على تكبرهم وتجبرهم، وأنهم مصرّون على كفرهم وشركهم، ومتمسّكون بأوثانهم وأصنامهم، وقد قابلوأ نبيهم هوداً بهذه المقابلة الجافية الغليظة، التي أظهر الله جفوتها في الآيات الكريمة، ثم ازدادوا جفوة وغلظة وسوء أدب معه فقالوا:

٥- قال تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۚ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۚ مِنْ دُونِهِ ۚ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

أ- ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]:

أي: أصابك بعض أصنامنا بجنون لسبب إيّاها^(٥). والاعتراء: النزول والإصابة، والباء للملابسة، أي: أصابك بسوء، ولاشكّ أنّهم يعنون أنّ آلِهتهم أصابته بمسّ من قبل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر، وهو كلام غير جارٍ على انتظام الحجّة، لأنّه كلام ملقّق من نوع ما يصدر عن السفسطائيين، فجعلوه مجنوناً، وجعلوا سبب جنونه مسّاً من آلِهتهم،

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٠٧.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٥٧.

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٠٨.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١٠.

ولم يتفطنوا إلى دَخل كلامهم وهو أنَّ الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة نائر عليها^(١). ولاحظ في كلامهم صيغة الحصر والقصر، ولاحظ ثانياً تعبيرهم ﴿بَعْضُ إِلَهَتِنَا﴾ [هود: ٥٤]، دون تحديد لتعمية الأمر، وعدم ضبطه، ولاحظ أنَّهم آلهة كُثُر، فكيف صدر من هؤلاء المتعديدين نظام كوني واحد؟

ولاحظ تعمية، وتعميم السوء في قولهم ﴿بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، وهكذا الإشاعات تُعمي وتُعمم، ويترك للذهن أن يتصورها كما يشاء. وهل السوء في العقل أم في البدن أم في النفس أم في ماذا؟

- ﴿بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]؛ ما يسوء الإنسان من مرض وفقر ونحوهما، والسوء ما يعم أعمال الشر والفساد^(٢).

ب- ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]:

لقد أعلن هود عليه السلام براءته من الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، وأشركوها معه في العبادة من غير أن ينزل بها سلطاناً، ووثق البراءة بما جرت به عادة الإنس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد^(٣)، فقال ما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا﴾ [هود: ٥٤]: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ أولاً، ثُمَّ أَشْهَدُوا أنتم بعد.

- ﴿أَنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]: أَنَّنِي بَرِيٌّ مِّمَّا تَقُولُونَ، وَإِنِّي فِي عَافِيَةٍ لَمْ يَمْسَنِي شَيْءٌ مِّمَّا تَقُولُونَ^(٤). وهود عليه السلام يشهد الله الذي يثق أنَّه أرسله، ويحمي ذاته، ويحمي عقله، لأنَّ عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله، وكذلك يشهد قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة، ويحكموا: أهو مجنون أم لا، ويشهدهم أيضاً أنَّه بريء من تلك الآلهة التي يشركون بعبادتها من دون الله تعالى^(٥).

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٥٧.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢١٠.

(٣) الدعوة إلى الله في سورة هود، ص ٦١٥.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢١٠.

(٥) تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٥٠٧.

ج- ﴿مِنْ دُونِهِ ۖ فَيُكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]:

- ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ [هود: ٥٥]: من دون الله.

وهذه الآية من أقصر آيات سورة هود، وهي مرتبطة كل الارتباط بسابقتها، فالآية أشد ارتباطاً أن نبحث لها عن رابط، فهود عليه السلام بريء مما يشرك قومه من دون الله^(١).

- ﴿فَيُكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]: هذا دليل صدقه وإظهار لمعجزته عليه السلام، إذ كيف يواجه رجل واحد أمة من الناس ويطلب منهم العمل على الكيد له، وهم القوم الذين عرفوا بالقوة التي افتخروا بها، وتسلبوا بسببها على العباد وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ ولا يكتفون بقواهم فقط، بل يدعون تلك الآلهة التي يؤملون خيرها، ويخافون ضررها، ويعتقدون قدرتها على إنزال الضرر بمن ينال منها، ويصد عن عبادتها، ونهاهم عن الإنظار والإمهال، واستحثهم على المعاجلة وصنع ما بدا لهم^(٢).

قال الشوكاني رحمه الله: "وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصبك مسامعهم، ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء"^(٣).

قال الزجاج رحمه الله: "وهذا من أعظم آيات الرسل؛ أن يكون الرسول وحده وأمته متعاونة عليه، ويقول لهم كيدون فلا يستطيع أحد منهم ضربه"^(٤).

- قال القرطبي رحمه الله: "وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى، وهو من أعلام النبوة أن يقول الرسول لقومه: ﴿فَيُكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥]، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش، وقال نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]"^(٥).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢١٢.

(٢) الدعوة إلى الله في سورة هود، ص ٦٦٦.

(٣) فتح القدير في الجمع بين فني التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة، ٥٥٨/٤.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١١٨٠٤.

(٥) تفسير القرطبي، ٥٢/٩.

وقال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ: ومثله قول نوح لقومه: ﴿ثُمَّ أَفْضُوا إِلَىٰ وَلَا تُظِرُّونَ﴾ [يونس: ٧١]^(١).

- وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ثُمَّ﴾ ؛ للتراخي الرتبي، إذ تحدّاهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار، فنهاهم عن التأخير بكيدهم إيّاه، وذلك هو نهاية الاستخفاف بأصنامهم، وبهم، وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك^(٢).

إن هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقل من براءته من شركهم، إلى مجابهتم بثقة وإطمئنان، فيقول: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُظِرُّونَ﴾ [هود: ٥٥]؛ أي: لقد أعلنت أمامكم بقوة، ووضوح أنني بريء من شرككم، وها أنا ذا في مواجهةكم، فانضمّوا إلى آلهتكم، وحاربوني بما شئتم من ألوان المحاربة، والأذى بدون تريث أو إمهال، فإنّي لن أكفّ عن الجهر بدعوتي، ولن أراجع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه^(٣).

﴿ثُمَّ لَا تُظِرُّونَ﴾ [هود: ٥٥]؛ أي: لا تمهلوني، ولو طرفة عين، وقد ظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً، فكيف لا، وقد التجأ إلى ركن منيع، واعتصم بحبل الله المتين^(٤)، حيث قال:

٦- قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]

كان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدّاهم في الآية السابقة، وفي هذه الآيات بين مصدر قوّته، وهو توكله على الله، وبين عدل الإله العظيم، وقدرته، وهيمته على كونه، وخلقته، وقد حذرهم من رفضهم دعوته، وإصرارهم على عنادهم، واستكبارهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسَبِّدَ الْكَافِرِينَ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ، ولا يعجزه ذلك، وهم لا يُعْجِزُونَهُ، ولكنّه حليم عليهم، ولا يستطيع الخلق أن يضرّوا الخالق، وكفرهم يضرهم هم، والله حافظ لكل شيء، وحفيظ على كلّ شيء^(٥).

(١) البحر المحيط، ٢٣٣/٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٥٥٨/٥.

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢١٣.

(٤) التفسير الموضوعي، ٦٦/٤.

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢١٨.

أ- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]:

إنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أقوى الناس في زمانه؛ لأنَّه كان متوكِّلاً على الله، والتوكَّل على الله معيار الإيمان، ويتجلى في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]^(١).

- وفي قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٥٦]؛ اعتمدت في شأني كلَّه على الله، والتوكَّل من أعظم ثمرات الإيمان، ومطالب الإيمان في ذات الوقت^(٢).

والتوكَّل عبادة من أفضل العبادات القلبية، وخُلِق من أعظم الأخلاق الإيمانية، وهو منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين^(٣)، بل هو من معالي درجات المقربين: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦].

والتوكَّل هو علم القلب بكفاية الربِّ للعبد، والانقطاع بالكلية عن الخلق، والتوجَّه إلى الحقِّ سبحانه، حتَّى لا يرجو سواه، ولا يقصد إلَّا إيَّاه، ولا يلوذ إلَّا بجانبه، وإذا طلب لا يطلب إلَّا منه، وإذا رغب لا يرغب إلَّا إليه، ويعلم أنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله على صراط مستقيم، وأنَّه هو المتصرِّف في الملك وحده لا شريك، ولا معقَّب لحكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: "التوكَّل على الله جماع الإيمان"^(٤).

- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]: جمع بين الاسمين الجليلين: الله والربِّ.

الله الذي له الأمر والطاعة والعبادة.

والربِّ الذي يتعهَّد خلقه إيجاداً وإمداداً ورزقاً وتربية^(٥).

(١) رقائق القرآن، إبراهيم عمر السكران، دار الحضارة، ٢٠١٤م، ص ١٣٧.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢١٣.

(٣) السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، جمال نصار، ص ٧٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢١٤.

ب- ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]:

ليس من دابة. والدابة هنا: كل ما يدب على الأرض بما فيها البشر، إلا هو أي: الله عز وجل، آخذ بناصيتها أي: مقتدر عليها مسيطر على كل أمورها^(١).

- ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]: ذليلة له، خاضعة لا تفوته ولا تقدر أن تمتنع منه.

- والناصية: مقدمة الرأس، وتطلق على الشعر النابت عليها^(٢). والأخذ بالناصية دليل على القدرة والقهر، جاء في (البحر المحيط): وصف قدرة الله، وعظيم ملكه من كون كل دابة في قبضته، وملكه، وتحت قهره، وسلطانه، فأنتم من جملة أولئك المقهورين.

- وفي قوله تعالى: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]؛ تمثيل، إذ كان القادر المالك يقود المقدور عليه بناصيته، كما يُقاد الأسير والفرس بناصيته، حتى صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجر ناصية الأسير الممنون عليه علامة على أنه قد قدر عليه وقُبض على ناصيته^(٣).

وقد خصّ الخالق تعالى الناصية؛ لأنّ العرب إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع، قالت: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أيّ إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء.

وقد جاء بـ ﴿مِنْ الاستغراقية، ولم يقيّد مكاناً أو زماناً لذلك، فكل دابة من إنسان أو غيره، أيّاً كان وأينما كان مأخوذ بناصيته من ربّه، خاضع له، مقهور لسلطانه، ذليل لسطوته. وهذا تهديد لربّ العزة، وتهديد لهم عظيم.

ج- ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]:

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) روح المعاني، ١٢/٨٣، تفسير الرازي، ٦/٣١٥.

(٣) على طريق التفسير البياني، ص ٢١٧.



ومع هذا الاقتدار العظيم، فرَّبني على صراط مستقيم، لا يجور، ولا يظلم، وهو ينصر من يتوكل عليه، ويعتصم به، ويُذلل ويُخزي من بغى واعتدى، فهو بالمرصاد لكل ظالم باغ، وهو يهدي إلى الصراط المستقيم ويدلّ عليه.

ومن سار على الصراط المستقيم وصل إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

فعلى الله بيان السبيل المستقيمة، والسبيل القاصدة إليه، فهذا التعبير يجمع عدة معان، منها:

- أنه لا يظلم ولا يجور.
- أنه يعاقب الظالم الجائر.
- أنه يدلّ على الصراط المستقيم.
- أن الصراط المستقيم يوصل إليه^(١).

قال الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، وفي شرعه، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يُحمد ويُثنى عليه بها^(٢).

إن كلمات هود عَلَيْهِ السَّلَامُ المتدفقة من قلبه السليم تُظهر تعظيمه، وتمجيده لله تعالى، بإثبات مهابته، وهيمته، أمام قومه المعاندين لإظهار مدى قوّة وبطش الله عَزَّجَلَّ الذي يؤمن به، ولا شعارهم بالضعف والعجز أمام ربهم، وخالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو المسيطر عليهم، والمتصرّف بجميع أفعالهم، وهو الوحيد القادر على منعهم عن رسوله، وإنزال العقاب بهم^(٣).

(١) على طريق التفسير البياني، ص ٢١٨.

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٨٥.

(٣) أسلوب الإشارة الوجدانية، مروءة الدهماني، ص ١٤٦.

ولقد ردَّ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاوى قومه، وبيَّن توكله على الله، وبيَّن عدل الإله العظيم، وقدرته، وهيمته على كونه، وخلقته، ومن ثمَّ بيَّن لهم موقفه منهم إن رفضوا دعوته، وأصروا على استكبارهم وعنادهم^(١)، فقال لهم:

٧- قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [هود: ٥٧].

تفسير الآية الكريمة:

أ- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧]:

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود: ٥٧]: الفاء تفريع على ما سبق، وإن شرطية، (تَوَلَّوْا) أصلها (تَوَلَّوْا)، فالمضارع حذفت تاؤه الأولى تخفيفاً^(٢)، وفي اللّغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصر على تاء واحدة^(٣). والتولي: الإعراض والترك والردّ.

- ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [هود: ٥٧]: الفاء واقعة في جواب الشرط وما بعدها جواب الشرط.

- ﴿فَقَدْ﴾ [هود: ٥٧]: للتحقيق، والماضي: أبلغتكم بمعنى أوصلت لكم البلاغ الذي أراد الله عَزَّجَلَّ أَنْ يوصلكم، وقد فعلت بكلّ أمانة.

- ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧]: أوصلت لكم ما حملته، وما أمرت أَنْ أبلغه لكم^(٤)، فلم يبق عليّ تبعه من شأنكم^(٥).

ب- ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]:

(١) تفسير سورة هود، ص ٢١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٥١١.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢١٧.

(٥) تفسير السعدي، ص ٤٨٥.

يأتي بقوم سواكم يخلفونكم إن أصررتم على الكفر، وهذا إمّا قياساً على قوم نوح الذين أهلكهم الله، واستبدل قوم هود بدلهم، وإمّا بلاغاً من الله لا قياساً^(١).

- ﴿وَيَسْتَخْلِفْ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]: يقومون بعبادته، ولا يشركون به شيئاً^(٢).

- ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]: إنّما ضرركم إنّما يعود إليكم، فالله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة الطائعين، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]^(٣).

ج- ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [هود: ٥٧]:

في الآية السابقة تكرر لفظ ربّي مرتين، وهنا كذلك. وأضاف ذاته عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى لفظ الربّ اعترازاً وتشريفاً، وربّي الذي يحفظني، ويكلؤني، ويجيبني، ويرزقني جملةً وتفصيلاً، وفي الجليل والقليل، فكل شيء بفضلله ومنه.

- ﴿عَلَىٰ﴾ [هود: ٥٧]: حرف جرّ يفيد في اللغة العلوّ، وهنا يفيد التمكن.

- ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ [هود: ٥٧]: مطلق؛ أي لا يخرج عنه أو منه شيء.

- ﴿حَفِظٌ﴾ [هود: ٥٧]: هذه الصيغة في اللغة صيغة فعيل، وضعت أصلاً للمبالغة في الشيء أو صفته، وفي أسماء الله تعالى لا مبالغة فهو الحفيظ المطلق الذي لا يغيب عنه شيء، ويحفظ كل شيء، ويحفظ الإنسان: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي بأمر الله. ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ويحفظ أعمال العباد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ويحفظ السماوات ﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]، ويحفظ الكتاب الذي أنزله وهو القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]^(٤).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢١٧.

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٨٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢١٧.

- ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]: إِنَّ هذا التعبير الربّاني يدلّ على ثقة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ المطلقة بحفظ الله له، وهذا ما دفعه إلى صدق التوكّل على الله وحده، والأخذ بالأسباب العقلية والدعوية والممكنة في دعوة قومه إلى عبادة الله، وإفراده بالعبادة. والحفيظ هو الصائن عبده من أسباب التهلكة في أمور دينه ودنياه^(١).

- قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]: أي رقيب، وسيجزي كلّاً بما كسب بعدله ورحمته^(٢).

- قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: حفظ لأعمال العباد حتّى يجازيهم عليها.

الثاني: يحفظني من شرّكم ومكركم.

الثالث: حفيظ على كلّ شيء بحفظه من الهلاك إذا شاء، وبهلكه إذا شاء"^(٣).

إِنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ واجه الباطل وجنوده وقوى الشرّ والطغيان، فلم يضعف، ولم يستكن، فقد استمدّ قوّته من الله عَزَّجَلَّ^(٤)، وفي الحديث الصحيح: «إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تُجاهك»^(٥).

- ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]: قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أيّ رقيب محيط بالأشياء علماً، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي، أي أنّه سبحانه حافظ مستول على كلّ شيء، ومن شأنه ذلك كيف يضُرُّه شيء؟"^(٦)

(١) الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ٦٩، يوسف الصديق، ص ٣٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٥٥٤.

(٣) التفسير الكبير، ١٨/ ١٥.

(٤) السنن الاجتماعية في القرآن، أمحزون ٣/ ٢٦٠.

(٥) سنن الترمذي، كتاب القيامة، رقم ٥٩.

(٦) روح المعاني، ١٢/ ٨٥.

إِنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَصْحَابَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ كَيْفِيَّةَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَمُرَاقِبَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]؛ أي: رقيب مهيم، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، فهو شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرَ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرَّ، وَمَنْ كَانَ رَقِيبًا عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، حَافِظًا لَهَا، كَانَتْ الْأَشْيَاءُ مُفْتَقِرَةً إِلَى حِفْظِهِ مِنَ الْمَضَارِّ، وَلَا يَضُرُّ مِثْلَكُمْ مِثْلُهُ^(١).

إِنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا وَجَدَ مِنْ قَوْمِهِ التَّعَنُّتَ، وَالْإِصْرَارَ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِ دَعْوَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لَمْ يَغْضَبْ، وَلَمْ يَسْتَكْنِ، بَلِ اسْتَعْمَلَ أَفْضَلَ أُسَالِيبِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا أَنْتُمْ تَوَلَّيْتُمْ وَلَمْ تَوَّامُوا بِرَبِّكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوْفَ يَهْلِكُكُمْ وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ وَلَا يَشْرَكُونَ بِهِ شَيْئًا^(٢).

وبعدما أقام هود عليه السلام الحجة الدامغة بالبراهين الساطعة، وبالخطاب الفكري والعقلاني والوجداني وحذَّره، وأنذرهم ورفض قومه ما دعاهم إليه بل وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وطال أمد تكذيبهم وإمهالهم وإنظارهم، وبعد أن استخفُّوا بوعيد الله لهم على لسان هود عليه السلام نزل بهم أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

٨- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]

تفسير الآية الكريمة:

أ- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨].

- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨]:

- الواء للاستئناف أو العطف.

(١) الأساليب والوسائل الدعوية في سورة هود، زينب محمد أمين، رسائل جامعية، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، ٢٠٠٥م، ص ١٢١.

(٢) مظاهر الحكم والموعظة، ص ٣٠.

- ﴿وَلَمَّا﴾ [هود: ٥٨]: ظرف زمان يتضمّن معنى الشرط، والفعل بعده فعل الشرط و(نجينا) جوابه.
- ﴿جَاءَ﴾ [هود: ٥٨]: المجيء يستخدم للقرب أو للقريب، أي للقدوم من مسافة قريبة، فكأنّه كان يقترب كلّ لحظة، جاء الأمر من أقرب نقطة.
- ﴿أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨]: وعدنا وقدرنا، أو أمرنا الكوني للوجود أن يعصف بهم، أو للريح أن تهلكهم، وأضاف الأمر إلى نون العظمة لتعظيم الأمر بعظمة من أضيف إليه.
- ﴿نَجَّيْنَا﴾ [هود: ٥٨]: وعبر هنا بنون العظمة أيضاً: (نجينا)، ليكسب النجاة تقديرًا وعظمة بما أضيفت إليه.
- والمنن الجليلة تضاف إلى نون العظمة^(١). وقال ههنا: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، بتضعيف عين الفعل، وقال في الأعراف في القصّة نفسها: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٧٢].
- وقد ذكر الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الفرق بين استعمال هاتين المفردتين في القرآن الكريم، فقال: "فقد ذكرنا أنّ الملاحظ أنّ القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبّث والتمهّل، ويستعمل (أنجى) للإسراع في النجاة، فإنّ (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدّة والكرّ^(٢)".
- فاستعمل في الأعراف (أنجى) واستعمل في هود (نجّى)، ذلك أن القصّة في هود كأنّها استكمال لما ورد في الأعراف، ومعنى ذلك أنّ اللبث في هود أطول ممّا في الأعراف، لأنّ ذلك كان بعد الأعراف فشمّل الزمانين فحسن ذلك استعمال (نجّى) في هود.
- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المذكور من القصّة في هود يدلّ على مكث أطول في قومه ممّا في الأعراف، فكان الجدال بينهما أطول والمحاورة أكثر، فناسب ذلك أيضاً استعمال (نجّى) في هود و(أنجى) في الأعراف^(٣).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢١٩

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك لصناعة الكتاب، ٢٠٠٨م، ص ٧٤.

(٣) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٤.



- ﴿هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨]: هذه النجاة كانت وقدّرت لهود والذين آمنوا معه، ولم يكتف بالمحبّة وحدها والذين معه، وإنّما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨]، فالمحبّة بلا إيمان لا تنفع أحداً، أعني من النجاة إن وقع الوعد وحلّ الموعد موعد العذاب^(١).

في سورة الأعراف ذكر المولى عزّ وجلّ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

- فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٧٢]، ولم يذكر صفة الإيمان، ذلك أنّه قال في الأعراف: ﴿وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، فذكر أنّه أهلك الذين كذبوا وما كانوا مؤمنين. ومعنى ذلك: أنّه أنجى الذين آمنوا، ولم يقل مثل ذلك في هود، فناسب ذكر الذين آمنوا^(٢).

- ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾: بآء السببية، فكانت رحمة الله بهم سبباً في نجاتهم، والمراد فضل الله عليهم لو لم يرحمهم لشملمهم الاستئصال^(٣)، وعبر بنون العظمة مرّة أخرى لعظمة أمر النجاة وعظمة الرحمة الإلهية التي بها نجى هوداً والذين آمنوا معه.

ب- ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]: أعاد ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ [هود: ٥٨] مرّة ثانية بنون العظمة مع شدّة قرب العهد لكي نستشعر رحمة الله بهود، والذين آمنوا معه ولو وصف العذاب الذي نجوا منه بأنّه غليظ^(٤).

- ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]: وقد وُصف العذاب في القرآن بأنّه أليم، ووصف بأنّه غليظ، ووصف بأنّه مهين، وعظيم وشديد، ومقيم، وبأنّه كبير وبأنّه عذاب يومٍ محيط^(٥).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٢٠.

(٢) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢١.

(٣) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٦١.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢٢٠.

(٥) المصدر السابق نفسه.

- ﴿غَلِيظٌ﴾ [هود: ٥٨]؛ شديدٌ قوي، كأنَّه الجبل الغليظ لا ينقطع^(١).

- قال الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وجملة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، معطوفة على جملة ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨].

والتقدير: وأيضاً نَجَّيْنَاهُمْ من عذابٍ شديدٍ، وهو الإنجاء من عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ، ففي هذا مَنَّةٌ ثانيةٌ على إنجاء ثانٍ، أي: نَجَّيْنَاهُمْ من عذاب الدنيا برحمةٍ مِنَّا ونَجَّيْنَاهُمْ من عذابٍ غليظٍ في الآخرة، ولذلك عطف فعل: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ [هود: ٥٨]، على ﴿نَجَّيْنَا﴾ [هود: ٥٨]، وهذان الإنجاءان يقابلان جمع العذابين لعاد في قوله: ﴿وَأَنْبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [هود: ٦٠].

والغليظ حقيقته: الخشن، وهو خلاف الرقيق، وهو مستعار للشديد، واستعمل الماضي في ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ [هود: ٥٨] في معنى المستقبل لتحقيق الوعد بوقوعه^(٢).

- وقال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "لم يبيِّن هنا أمره الذي جاء، الذي نَجَّى منه هوداً والذين آمنوا معه عند مجيئه، ولكنه بيَّن في مواضع أُخر: أَنَّهُ الإهلاك المستأصل بالريح العقيم، التي أهلكتهم الله بها فقطع دابرهم"^(٣).

إِنَّ الآيةَ الكريمةَ فيها دروسٌ وعبرٌ منها:

- إذا حَلَّ الأجل الذي حدَّده الله فلا رادَّ له ولا دافع.

- المؤمنون ينَجِّيهم الله فلا يمَسُّهم ما يصيب قومهم من عذاب.

- الإيمان دائماً سفينة النجاة والراكب في مركب الإيمان آمنٌ من الغرق والعذاب الذي يصيب أهل الكفران.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٦١.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ٢٠١٣م،

- وصف العذاب في القرآن بحوالي عشرة أوصاف، ولكل وصف ما يناسبه من جرم، ومن سياق سورة.

- وصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير يتناسب مع الجو ومع القوم الغلاظ العتاة^(١).
فقد تحدثت الآية الكريمة عن نهاية عادٍ، ونجاة المؤمنين، وجاءت الآية التي بعدها تعقب على تلك النهاية المأساوية لعاد، فيشير إليها بإشارة البعد أن أبعدوا عن الوجود والشهود^(٢).
٩- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

أ- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ [هود: ٥٩]:

الواو للاستئناف، أو للعطف. وتلك اسم إشارة للبعيد، لأنهم بالفعل أصبحوا في دائرة البعد، فيشار إليهم بالإشارة المستخدمة للبعيد^(٣).
- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ [هود: ٥٩]: إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سبحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا^(٤).

- ﴿عَادٌ﴾ [هود: ٥٩]؛ ذكر اسم عاد في أول آية من القصة وفي آخر آية عقت على القصة لاستحضارهم في البدء والختام^(٥).

ب- ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩]:

الجحد هو الإنكار، وبمعنى الكفر كذلك^(٦). والجحد: أن يُقَرَّ المرءُ بقلبه ولا يُقَرَّ بلسانه، أو إنكار ما تعلم من الحق، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٤.

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢٢٣.

(٦) المصدر السابق نفسه.

وقال في سيدنا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُؤَيِّتُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وعاد كذلك جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أَنَّها حقٌ وهو ظلمٌ وعناد^(١).

﴿يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩]

- : الباء متعلّقة بجحدوا. وجمع الآيات، هل لأنَّ المقصود منها الجمع معنى لأنَّه من جحد آيةً فقد جحد كلَّ الآيات، أم المقصود الآيات الحسيّة الماديّة التي بعث بها الرسل والآيات بمعنى الكتاب؟

وأضاف الآيات إلى الربِّ لتعظيمها وأضاف الربَّ إلى ضميرهم لبيان المفارقة في سلوكهم، فهم يكفرون به وهو يرييهم، وعجباً لهذا الإنسان وعجباً لهذه الأمم والأقوام.

ج- ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]:

أي خالفوا أمر رسله، وأضاف الرسل إلى ضمير العائد إلى ربهم لتعظيم شأن الرسل، وتعظيم مخالفة الكافرين للرسل العظام^(٢).

- قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيبٍ لجنس الرسل، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩].

ومعصية من كَذَّبَ وتولَّى قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْآشَقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥، ١٦] أي: كَذَّبَ بالخبر، وتولَّى عن طاعة الأمر وإنَّما على الخلق أن يصدّقوا الرسل فيما أخبروا، ويطيعوهم فيما أمروا، وكذلك قال فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات: ٢١]، وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

(١) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٤.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٢٣.



فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر، بينما في الإيمان: تصديق الرسل فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] ^(١).

- ﴿وَعَصَوْا رَسُولَهُ﴾ [هود: ٥٩]؛ حيث أطلق معصيتهم، فهم عصوا كل ما أمرتهم به رسلهم وهذه مرتبة أخرى بعد الجحود، فالجحود أمر قلبي وقولي، وهذا أمر سلوكي وعملي، وهي مخالفة الأوامر على العموم ^(٢).

- ﴿وَعَصَوْا رَسُولَهُ﴾ [هود: ٥٩]، فعصيان رسولهم هود عليه السلام عصيان لجميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة ^(٣)، كما أن تكذيبهم لهود لم يكن خاصاً بشخصه فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهو مكذب به ^(٤) بالنسبة لهم.

د- ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]:

أي: اتبع سفلتهم زعماءهم الجبابرة، والجبار: المتعظم المتكبر على العباد المترفع عن قبول الحق. والعنيد: المعاند الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه، يقال: عند عنوداً، إذا خالفه وردّه عارفاً به، فهو عنيد وعاند ^(٥).

إن قوم هود عليه السلام تركوا نبيهم رمز الرحمة، والإنسانية، والرأفة، والحلم، وكرم الأخلاق، وسلامة التوحيد لله رب العالمين، واتبعوا أمر كل جبار متكبر، قاس، غليظ القلب، مكابر، معاند للحق، وفاقد الإحساس، والشعور، والإنسانية ^(٦).

(١) مجموع الفتاوى، ٥٩/٧.

(٢) على طريق التفسير، البياني، ص ٣٢٥.

(٣) التفسير الموضوعي، ٦٩/٤.

(٤) التحرير والتنوير، ٥٦٢/٥.

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢٢٤.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

﴿وَاتَّبِعُوا﴾ [هود: ٥٩]، ولم يقل (تَبِعُوا)، وذلك للمبالغة في اتباع الجبابرة، وإطاعة أوامرهم^(١).

- قال: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ﴾ [هود: ٥٩]: لم يقتصرُوا على اتباع جَبَّارٍ واحد، بل ولا مجموعة من الجبابرة، بل اتَّبِعُوا كُلَّ جَبَّارٍ على سبيل العموم والاستغراق.

- قال: ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]، ولم يقل: (مُعَانِدٍ)، فجاء بصيغة المبالغة ليدل على المبالغة في عناده، وذلك يدل على زيادة عتوهم وظلمهم^(٢). وجزاء قوم هود يبدأ من الدنيا، ويمتد إلى الآخرة، ولهذا قال تعالى:

١٠ - ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

اللعنة: الطرد، والإبعاد من الله^(٣)، ومن رحمته؛ أي أَنَّ اللعنة أرسلت عليهم، فهي تطاردهم، وتتبعهم حيثما يكونون في هذه الدنيا، ويوم القيامة، أي تلازمهم، فلا تُرجى لهم رحمةٌ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، والجزاء من جنس العمل. فهذا الطرد من رحمة الله جزاءً لهم على عنادهم ومعصيتهم. وبالغوا في اتباع كُلِّ جَبَّارٍ عنيد، فنزلت عليهم لعنة الله عَزَّجَلَّ، التي لا تنفك عنهم في الدنيا ولا في الآخرة^(٤).

أ- ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [هود: ٦٠]:

أي إبعاداً لهم عن الرحمة، وعن كُلِّ خير؛ أي جُعِلَت اللعنة لازمةً لهم، وعَبَّرَ عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كل مذهب، بل تدور معهم حيثما داروا^(٥).

(١) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٤.

(٢) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٦.

(٣) نصوص اللعن في القرآن وأثرها في الأحكام الشرعية، عمر شاطر الكيسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٣هـ، ص ١٤.

(٤) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٢٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢٧.



- ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ [هود: ٦٠]: في هذه الحياة الدنيا، وحذف (الحياة) واكتفى بوصفها، فهما لكثرة اقترانهما لا تكادان تنفكان، فبمجرد أن تذكر الحياة يستحضر الذهن قرينتها (الدنيا) وإذا ذكرت الدنيا حضر في الذهن والوعي والعقل قرينتها ويجمعهما القرآن أحياناً كما هنا، ويفصل بينهما كما في مواضع كثيرة اكتفاءً مرةً بذكر (الحياة)، ومرةً بذكر (الدنيا) كما هنا. والدنيا إمّا من الدنوّ لقربها من البشر لأنّهم يعيشونها أو يعيشون فيها، أو لدناءتها بالنسبة إلى الآخرة.

- ﴿لَعْنَةً﴾ [هود: ٦٠]؛ أي دعاءً باللعن، أي بالطرد من رحمة الله والإبعاد، أو ألحقوا باللعنة والطرد نفسه^(١) من قبل الله سبحانه لهؤلاء الكافرين به وبكتبه وبرسله.

ب- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [هود: ٦٠]:

أي تلاحقهم اللعنة كذلك يوم القيامة، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقومون للحساب والجزاء والثواب والعقاب^(٢). وعبرَ بيوم القيامة بدل الآخرة للتهويل الذي يقتضيه المقام^(٣).

ج- ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠]:

ألا: أداة استفتاح شهيرة في استعمال العرب، فمهمتها تنبيه الذهن السامع.

إنّ: أداة توكيد. و(عاداً) اسمها. وما بعده خبرها.

- ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠]؛ عبرَ بالجحد في الآية السابقة، والمقصود: إنكار الآيات. وهنا عبرَ بالكفر في حقّ ربّهم؛ إمّا بمعنى كفر نعمه وبطرها، أو كفره إنكاره وعصيانه والتمرد على أمره كما فعل إمامهم إبليس^(٤).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

قال الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: أي برَّبِّهم. أو كفروا نعمته ولم يشكروها بالإيمان أو جحدوه^(١).

د- ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]:

افتتحت هذه الجملة أيضاً بأداة الاستفتاح (ألا) مرّة أخرى، للتشبيه لأهميّة الموضوع، وأهميّة أن تكون العقول حاضرةً بكامل لباقتها وطاقاتها على الاستيعاب من ختام القصّة، فهذا الذي سيشكل الانطباع الأخير منها وعنّها، فلتنبه العقول. و(بُعْدًا) معناها طرداً من الرحمة وهلاكاً لازماً وملازماً لهذا الطرد.

- ﴿بُعْدًا﴾ [هود: ٦٠]؛ أي: أبعدهم الله عن رحمته، وهو تأكيدٌ لمعنى الطرد من رحمة الله المتضمّن في ﴿لَعَنَةً﴾ [هود: ٦٠]^(٢).

- ﴿لِعَادٍ﴾ [هود: ٦٠]: اللام متعلّقة ب(بعداً). وقوله بعداً إمّا دعاءٌ عليهم من المؤمنين أو كلّ من يسمع القصّة، أو تقرير من الله بأنّه قد حصل لهم الإبعاد من الحضور والذكر والوجود، وإبعاداً آخر أخطر هو إبعادٌ من رحمة الله فلا تقربهم ولا تغشاهم ولا يذوقونها.

- ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]: حصل تحديدهم بذكر عادٍ، وزاد تأكيدهم بذكر رسولهم إذ قال: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] لمزيد تحديد، ومزيد تعيين، ولاستحضار اسم الرسول الذي عاندوه في آخر كلمةٍ من قصّتهم؛ ليظّل اسم رسولهم آخر ما يعلق بالذهن، ويتعلّق بالأفئدة، أو تتعلّق به الذاكرة^(٣).

- ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]: عطف بيانٍ لعادٍ، أو بدّل منه، ذكر زيادةً في التوضيح والتعيين^(٤)، وإنّما ذكر ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] زيادةً في المبالغة والتأكيد. وكرّر حرف التشبيه (ألا) مرّتين زيادةً في ذمّهم والتنبيه على سوء حالهم^(٥).

(١) روح المعاني، ١٢/ ٨٧.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٤) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٣١.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٢٣٦.



ومن الطريف في هذه الآية أنه كرّر اللعنة مرتين ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [هود: ٦٠]، وذكر الدنيا مرتين: مرّةً باسم الإشارة ﴿هَذِهِ﴾ [هود: ٦٠]، ومرّةً بالاسم الصريح، وكرّر عاداً مرتين، وكرّر (ألا) مرتين، ودلّ على عادٍ مرتين: مرّةً باسمهم ومرّةً بذكر أنّهم قوم هود، وهو من لطيف التعبير^(١).

وفسّر الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ الآية بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ﴾ [هود: ٦٠]: فما يمر وقت وجيل إلّا ولأنبائهم القبيحة، وأخبارهم الشنيعة ذكرٌ يذكرون به، وذمٌ يلحقهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [هود: ٦٠] أيضاً لهم لعنة. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠] أي: أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر^(٢).

ومن أراد التوسّع في استخراج الأهداف من هذه القصة في سورة هود، فليراجع كتاب (استنباط الأهداف من القرآن الكريم في سورتي يونس وهود، للأستاذ بسّام عبد الملك عبد الحميد).

إن التفاصيل التي جاءت في قصة هود عليه السلام، تدلّ على أنّ هذه القصص من الله عزّ وجلّ، فقد كان معلوماً من حال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنّه كان أمياً، وكان معروفاً من حاله قبل البعثة أنّه لم يكن يعرف أيّ شيء عن قصص وأنباء الأقسام الماضية، ولم يكن يعرف شيئاً عن كتب المتقدمين، وسيرهم، غير أنّه أتى بعد البعثة بجملة ما وقع وحدث للأمم الغابرة، ولمّا كانوا يتخبّطون في الضلالة، وعبادة الأوثان، ولمّا أرسل لهم تعالى نبياً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، ولما اعترض منهم عن نبيّهم وصدّوا عن رسالته، وكيف عاقبتهم ثمّ مصرعهم. أتى الرسول بشتّى القصص من فقه آدم وقوم نوح وعادٍ وثمودٍ ومدين وأهل الكهف وإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَام مع أمم آخرين، أتى بكلّ ذلك بمنتهى الدقّة، والنسق، والوضوح من البلاغة، والبيان، والبدیع، ممّا يدلّ على الإعجاز التاريخي والحضاري في القرآن الكريم، وهذا يدلّ على أنّه علم لا يصل إليه محمّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلّا عن طريق الوحي؛ ولذلك يشهد

(١) على طريق التفسير، البياني، ص ٢٣٢.

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٨٦.

القرآن ذاته بمخاطبة الرسول في هذا المقام^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا الْأَرْتَابُ الْمُبِطُ لَوَتْ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فعندما تقرأ تتابع سلسلة الأحداث التي يقصّها القرآن بمتهى الدقة والإمعان، تحسّ كأنّ محمّداً صلى الله عليه وسلّم، كان شاهداً، ومراقباً لتلك الأحداث كما هو في قصّة هود عليه السلام.

﴿ثالثاً: قصّة هود في سورة المؤمنون﴾

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآتَوْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِرُون (٣٤) أَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) * هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤٢]

سورة المؤمنون، هي السورة الثالثة والعشرون، بحسب ترتيب المصحف الشريف، والسادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن الكريم، وآياتها (١١٨) آية، وهي مكّيّة بالاتفاق، وسميت هذه السورة بسورة (المؤمنون) لافتتاحها بفلاح المؤمنين، واشتمالها على أوصافهم وجزائهم في الآخرة^(٢).

وإن السورة من مقاصدها، بيان حقيقة الإيمان بالله تعالى وآثاره، وعواقب مخالفته، وذمّ الكافرين المعرضين، وعرضت حال رسل الله تعالى مع أقوامهم^(٣)، وذلك من خلال نموذج

(١) حديث القرآن العظيم، عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي، دار العلوم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٨.

(٢) مقاصد سورة القرآن الكريم، ص ١٤٢.

(٣) الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاح، ص ١٦٢.

نوح وهود وموسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ تَبَيَّنَ حال الكافرين، وتقدير مُلْك الله تعالى للكون، وعاقبة الكافرين الضالِّين في النهايات^(١).

وإن هذه الآيات الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها، لم تذكر اسم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع عادٍ، فقد كان الكلام من قبل عن قصَّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، حيث جاءت قصَّة نوح في ثماني آيات [٢٣-٣٠].

وبعد قصَّة نوح مباشرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وفي الآيات إخبارٌ عن طلب هودٍ منهم عبادة الله وحده، ورفض الملائ من قومه لدعوته، والإشارة إلى ترفهم في الدنيا، وتُسَجِّل الآيات أهمَّ شبهاتهم ضدَّ هود، فهو بشرٌ مثلهم، يأكل ويشرب مثلهم، وهو يعدهم البعث بعد الموت والبلى، لذلك يرونه كاذباً في ذلك - حاشاه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا لن يؤمنوا به، وقد دعا هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عليهم، فأهلكهم الله بالصيحة^(٢).

تفسير الآية الكريمة:

١ - قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١، ٣٢] إِيَّاهُ عِبَادُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ [المؤمنون: ٣١، ٣٢]

هذه القصَّة الثانية في سورة المؤمنون، وهي قصَّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكثر المفسِّرين لقوله تعالى في سورة الأعراف حكايةً لقول هود: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ومجيء قصَّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ عقيب قصَّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء. وقال بعضهم: المراد بهم صالح وحمود، لأنَّ قومه الذين كذَّبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، والعقاب المذكور هنا هو الصيحة، فالقصَّة هي قصَّة صالح^(٣) عَلَيْهِ السَّلَامُ. والراجح عندي من خلال البحث هي قصَّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعقوبة التي ذكرت في هذه الآيات وهي الصيحة يمكن الجمع بينها وبين العقوبات

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) القصص القرآني، الخالدي، ١/ ٢٢٠.

(٣) تفسير المنير، ٩/ ٣٦٤.

التي ذكرت في سور أخرى بأنه صاح بهم جبريلٌ صيحةً واحدةً مع الريح التي أهلكهم الله تعالى، فماتوا عن آخرهم^(١).

أ- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]:

وهم قوم هودٍ و(القرن) هنا الأمة^(٢)، وهؤلاء القوم انحرفوا عن طريق التوحيد والفلاح، إلى طريق الشرك والكفر، وبقيت رسالات الأنبياء تتوالى على الناس مع توالي أجيالهم وقرونهم، وتبين لهم أسباب الهداية، وتوضح لهم طريق النجاح والفلاح، حتى تمت وختمت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم^(٣)، فهنا أرسل لهم هوداً عليه السلام فقال:

ب- ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢]:

كعادته سبحانه وتعالى في رسله أن يكونوا من القوم أنفسهم، وأن يكونوا معروفين لديهم بكريم الصفات وطيب الأخلاق وحسن السيرة والسلوك، ليس فيهم ما ينفر طبعاً أو عقلاً ليكونوا أقدر على إقامة أحسن العلائق بمن يدعونهم ويبلغونهم رسالات الله جلّ شأنه، فالرسول منهم معروفٌ بالحرص عليهم، والرغبة في النصح لهم، والرسالة سهلة^(٤) تتألف من توحيد الله وإفراده بالعبادة، وامثال أوامره واجتناب نواهيه.

ج- ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]:

هذه دعوة هودٍ عليه السلام لقومه بأن يعبدوا الله دون الآلهة التي استصنعوها والأصنام، فإنَّ العبادة لا تنبغي إلّا له، مالكم من معبود يصلح أن تعبدوه سواء^(٥).

(١) العقوبات الإلهية، عبد الهادي الشمراني، ص ٨٠.

(٢) تفسير القرآن بالقرآن، طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص ٦٣٩.

(٣) التفسير الموضوعي، ٥/ ٥٣٠.

(٤) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٣٩.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٩.



والعبادة في الشرع: خضوعٌ وحبٌّ^(١) والعبادة المأمور بها العبد تتضمن الذلَّ والخضوع لله، ومعنى الحبِّ، فهي تتضمن غاية الذلَّ لله بغاية المحبة له^(٢). قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والإله هو المعبود الذي يستحقُّ غاية الحبِّ والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء^(٣).

وينصُّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على أنَّ: العبادة تجمع أصليين؛ غاية الحبِّ بغاية الذلَّ والخضوع^(٤). ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها - القلبية والعملية الفردية والجماعية -: المحبة والخوف والرجاء. وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيّد الطيران، ومتى قُطِعَ الرأس مات الطائر، ومتى فقد أحد الجناحين، فهو عرضة لكلِّ صائد وكاسر^(٥). وبهذا يتضح مفهوم العبادة التي دعا لها هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تحويه من أخبارٍ وأوامر، ونواهٍ ووعدٍ ووعدٍ، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وعبودية الإنسان له^(٦).

إنَّ دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة واسعة: إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً وتستغرق كافةً مناشطه وأعماله^(٧).

إنَّ مقتضى العبادة التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها

(١) العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٩٩٥م، ص ٣١.

(٢) مجموع الفتاوى، ١/٢٠٧.

(٣) المصدر السابق، ٢٨/٣٥.

(٤) مدارج السالكين، ١/٧٤.

(٥) المصدر السابق، ١/٥١٧.

(٦) فقه النصر والتمكين، الصلابي، ص ١٨٤.

(٧) العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص ٥٣.

شريعة الله عَزَّجَلَّ، بفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره^(١). وإنَّ من استوعب دعوة هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوانه من الأنبياء والمرسلين حَقَّقَ مفهوم العبادة الصحيح. وإنَّ قضية العبادة ليست قضية شعائر فقط، وإنما هي قضية دينونة واتباع، وإنَّها لذلك استحقَّت كل هذه الرسل والرسالات، وكلَّ هذا الاهتمام^(٢).

وإنَّ أفراد الله تعالى بالعبادة بمفهومها الشامل من الحقائق العليا للرسالات الإلهية التي عمل هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لتربية من آمن به عليها، ودعوة الناس للالتزام بها.

د- ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]:

أي أفلا تتقون عقاب الله تعالى بعبادتكم شيئاً دونه؛ وهو الإله الذي لا إله لكم سواه^(٣). ومفهوم التقوى، أن يأخذ العبد وقايته من سخط الله عَزَّجَلَّ وعذابه، وذلك بامتنال الأمور واجتناب المحظور^(٤). وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه. وتارةً تضاف التقوى إلى اسم الله عَزَّجَلَّ كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]. فإذا أضيفت إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يُتَّقَى. وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي^(٥).

وإن الله عَزَّجَلَّ أهلُّ أن يُخشى، ويُهَاب، ويُجَلَّ، ويُعَظَّم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقُّه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوَّة البطش^(٦). فكانت دعوة هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه مبنيةً على التوحيد وإفراد العبادة لله وطاعته وتقواه، فماذا كان جواب قومه على هذه الدعوة السهلة في كلماتها الكبيرة في معانيها وآثارها؟

(١) مقاصد المكلفين، عمر الأشقر، ص ٤٦-٤٧.

(٢) فقه النصر والتمكين، ص ١٨٩.

(٣) تفسير الطبري ١٨/١٩.

(٤) التقوى الغاية المنشودة، أحمد فريد، دار الهيعة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ص ٦.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق، ص ٦.

لقد تصدّت نخبة القوم والملا الذين يتصدّرون دائماً للحديث باسم الشعوب وفرض وصايتهم عليها^(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْفَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٨].

وفي تفسير الآيات:

أ- ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْفَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]:

أي: قال أشراف قومه المتّصفون بصفات ثلاث هي شرّ الصفات:

- أولها: الكفر بالخالق وجود وحدانيته.

- ثانيها: الكفر بيوم القيامة والتكذيب بالبعث والجزاء والحساب.

- ثالثها: الانغماس في الحياة الدنيا التي أنعم الله بها عليهم، حتّى بطروا وجحدوا النعمة.

- ﴿وَأُتِرْفَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]؛ يعني وسّعنا عليهم وأمددناهم بالنعمة المختلفة

ليزدادوا في كفرهم وطغيانهم^(٢)، وهذا من استدراج الله لهم. والترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقّى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الاجتماعية للتصدّي لهذه الظاهرة، لأنّها كالعفن يفسد ما حوله، حتّى لينخر فيه السوس، ويسبح فيه الدود^(٣)، والترف من أسباب

(١) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٣٩.

(٢) تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٤٦٧.

(٣) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٧.

زوال الحضارات، ومن أسباب الضلال والكفر. ولذلك وصفت الآية الكريمة هؤلاء الملاء الكافرين المكذبين بالآخرة بالمترفين^(١). قال تعالى عن المترفين ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

كيف لا، وهو الذي يصل بأصحابه إلى البطر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

- قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وكأن هذه الكلمة أصبحت لازمة من لوازم المكذبين للرسول المعاندين لمنهج الله في كل الرسالات^(٢). فالاعتراض المكروه، هو الاعتراض على بشرية الرسول، وهو الاعتراض الناشئ من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين وبين النفحة العلوية التي تصل الانسان بخالقه الكريم^(٣). ومن ثم يؤكّدون على بشرية الرسول:

- ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]: أي: ما هذا الرسول إلا بشرٌ مثلكم في صفات البشرية وتقرير تمام المماثلة وصفوه بالأكل والشرب^(٤)، فكانهم يقولون: فما الذي يفضّله عليكم؟ فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب^(٥).

ب- ﴿وَلِنْ أَعْطَمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]:

أي: إن اتبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً وهو مثلكم؛ إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم وهذا من العجب، فإن الخسار والندامة حقيقة من لم يتابعه ولم ينقذ له، والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشرٍ خصّه الله بوحيه وفضّله برسالته، وابتلى بعبادة

(١) التفسير الموضوعي، ٥/ ٥٣٠.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٠٢٩.

(٣) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٧.

(٤) التفسير الموضوعي، ٥/ ٥٣١.

(٥) تفسير السعدي، ص ٧٢٥.

الشجر والحجر وهذا نظير قولهم؛ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّا وَحَدَّا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿١٠﴾ أَلْفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿١١﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

فلَمَّا أنكروا رسالته وردُّوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال^(١) فقالوا:

ج- ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]:

أي: تخرجون من قبوركم أحياء للحساب والجزاء وهو استفهام استنكاري، يدلُّ على إنكارهم ليوم القيامة واستبعادهم لوقوعه^(٢).

د- ﴿هَيِّهَاتَ هَيِّهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٦، ٣٧]:

﴿هَيِّهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] اسم فعل بمعنى بعد^(٣)، أي: بعيدٌ بعيدٌ ما يعدكم به من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرتهم غير ممكن، فقاوسوا قدرة الخالق بقدرتهم، - تعالى الله عما يقولون - فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز^(٤)، وأرادوا بهذا الاستبعاد نفيه مطلقاً: ﴿هَيِّهَاتَ هَيِّهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، وأنه في نظرهم لا يكون أبداً، فالإنسان في نظرهم ينتهي بالموت، وأنه خُلِقَ ليعيش في هذه الدنيا فقط؛ يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ويبغي ويظلم، ثم ينتهي بالموت، ولهذا أضافوا^(٥) قائلين:

(١) تفسير السعدي، ص ٧٢٥.

(٢) التفسير الموضوعي، ٥/ ٥٣١.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٠٣١.

(٤) تفسير السعدي، ص ٧٢٦.

(٥) التفسير الموضوعي، ٥/ ٥٣١.

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] أي: لا حياة لنا إلا هذه الحياة في الدنيا، يموت الآباء ويحيا الأبناء، وما نحن بمبعوثين بعد الموت^(١). وهو تكذيب ضمني للرسول المرسل إليهم، أكدّه قولهم:

هـ- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨]:

أي: ما (هود) الذي يدّعي النبوة ويثبت البعث إلا مجرّد رجل اختلق الكذب على الله، فيما جاءكم به من الرسالة والإنذار والإخبار بالمعاد، وما نحن له بمصدّقين فيما يدّعي ويزعم^(٢). هكذا كذب قوم هود نبيّهم، وأنكروا أن يبعث الله من في القبور، واستغربوا أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تحوّلِهِ إلى تراب، رغم أنّه خلقه من قبل من التراب، وطبقاً للمقاييس البشريّة، كان ينبغي أن يحسّ المكذبون للبعث أن إعادة خلق الإنسان من التراب والعظام، أسهل من خلقه الأوّل، لقد بدأ الله الخلق فأبى صعوبة في إعادته^(٣).

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على البعث والحياة الآخرة، وتحقّق وقوعه منهجاً قويمياً، وجمع بين ما فُطرت عليه النفوس من الإيمان، بما تشاهد وتحسّ، ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر، وبين ما تقرّره العقول السليمة، ولا يتنافى مع الفطرة السليمة^(٤)، وكان منهج القرآن في الاستدلال على البعث كما يلي:

- الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثمّ أحياهم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك، ومنهم: قوم موسى الذين: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وكالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ الله كيف يحيي الموتى، وأصحاب الكهف.. فهذه أدلة حسّية، وقعت كلها لتدلّ على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) التفسير المنير، ٣٦٨/٩.

(٣) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ١٩٠٥م، ص ٨٤.

(٤) دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي، دار الميمان للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، ص ٣٠٢.

قطعي على القدرة الإلهية. وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر، فوجب القطع بذلك لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته^(١)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، وجاء ذلك في آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

- الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

- الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين، فإن الإحياء بعد الموت يُستنكر من حيث أنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى، لأنه لما جاز حصول الموت عقب الحياة، فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد، قال تعالى مقررًا لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٠].

- الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر^(٢)، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢].

وفي الآيتين السابقتين استدلال بتوليد النار مع حرّها ويبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٥.

- الاستدلال على إمكان البعث، بأن اختلاف الناس في الدنيا لا يرتفع، واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق نفسه، فوجب أن يكون هناك معاد ينحسم في النزاع ولا يكون ذلك إلا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

- الاستدلال على البعث بأن حكمة الله، وعدله يقتضيان البعث والجزاء، فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً، ولن يتركهم سدى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكِرُ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فعدل الله وحكمته، وإحقاقه الحق، وإبطاله الباطل، وإعطاؤه كل ذي حق حقه، وتمييزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء؛ كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا، ينال فيها كل إنسان جزاءه، وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدم من خير أو شر^(١).

- الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم، فإن النوم أخو الموت، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت^(٢).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٠-٦٢].

وفي آية ثانية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

(١) المصدر السابق، ص ٣١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٠.

والمراد منه، الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحّة البعث والحشر والنشر، كما ذكره الرازي وغيره^(١).

إنّ مسألة البعث من الأصول التي جاءت بها دعوة هود عليه السلام، وكذلك كلّ رسالات السماء، وتوسّع القرآن الكريم في إثباتها بالأدلة العقلية، والنقلية التي بينت مظاهر الحشر والنشر، والحسابات، والجنة والنار، فلا بدّ من الرجوع إلى ما جاءت به الرسل، والتي بينها الله في كتابه الخالد (القرآن الكريم). فمن أصول دعوة الأنبياء الإيمان باليوم الآخر الذي جاءت تفاصيله في القرآن الكريم.

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [٣٩] قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذَتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١].

تفسير الآيات الكريمة:

أ- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩]:

يا سبحان الله، كأنّ تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذّبين، وكأنّه ثابت على ألسنة الرسل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فيتهمونه ويكذبونه ويقولون: ما أنت إلّا بشر مثلنا، فتأتي النهاية واحدة ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩]، يعني أبدلني بتكذيبهم نصراً.

هذه قولة هود عليه السلام حين كذّبه قومه، وقولة نوح عليه السلام، وقولة كل نبي كذّبه القوم، لأنّ الرسول حين يكذب من المرسل إليهم لا يفرع إلّا إلى من أرسله؛ لأنّ من أرسله وعده بالنصرة والتأييد ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢].

(١) تفسير الرازي، ١٧/١٨.

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٩] فالمعنى: انصرني لأنك أرسلتني، وقد كذّبتني القوم بعد أن استنفدت في دعوتهم كل أسبائي، ولم يعد لي بهم طاقة، ولم يعد لي إلا معونتك^(١).

ومن المعلوم أن آيات كثيرة، قد وردت تؤكد أن الرسول لا يبلغ هذا المستوى إلا بعد أن يرى تحجر قلوب القوم^(٢)، وبلوغها مرحلة متقدمة من العنت؛ حينئذ نادى هود عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ السميع البصير، وعندئذ وقعت الاستجابة، بعد أن استوفى القوم أجلهم، ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب^(٣)، فجاءت الإجابة:

ب- ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]:

يعني: بعد قليل، ف ﴿عَنْ﴾ هنا بمعنى (بعد)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَتَرَكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] يعني: (بعد) طبق، أما ﴿عَمَّا﴾ [المؤمنون: ٤٠] هنا فقد دلّت على الظرف الزمني، لأن المراد بعد قليل من الزمن.

- ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]؛ حين يقع بهم ما كانوا به يكذبون، ويحلّ عليهم العذاب يندمون، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما فاتهم، فليس أمامهم إذن إلا الندم^(٤).
والندامة هنا ليست ندامة توبة، بل هي ندامة حسرة وألم، تزيد في إحساسهم بالهزيمة والخسارة والحسرة^(٥).

وهنا سؤال وجيه: لماذا اختار لهم وقت نزول العذاب الصباح بالذات: ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]؟

(١) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٣٥.

(٢) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٤١.

(٣) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٨.

(٤) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٣٦.

(٥) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٤١.

المتبّع لما حاق بالأمم المكذّبة من العذاب والانتقام؛ يجد أنّه غالباً ما يكون في الصباح، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبَادَنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿[الصافات: ١٧٦، ١٧٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ٢١] ذلك، لأنّ الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركي، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة^(١)، وتكون صدمتهم كبيرة، ووقع العذاب الذي لا مفرّ منه.

ج- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٤١]:

لا بالظلم والجور، بل بالعدل^(٢). وفي موضع آخر قال سبحانه عنهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، والمعنيان يلتقيان، لأنّ الريح الصرصر لها صوت مزمر، كأنّه الصيحة والصراخ^(٣). وقال الدكتور طه العلواني رَحِمَهُ اللهُ: "وهذه الصيحة وإن اختلفوا في تفسيرها لكنّها صيحة واحدة، كما قال تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، فهي كافية لإهلاكهم وتدميرهم أيّاً كانوا، وضالّة شأنهم، وتفاهة قلوبهم التي كانت مصدر غرورهم، واستكبارهم صيحة واحدة فإذا هم مبلسون خامدون، يستحيلون إلى غشاء، ويتحوّلون إلى مادّة للقصص، وخبر من الأخبار التي يتداولها الناس، وهذه الصيحة إنّما هي بالحقّ لا بالباطل، تختلف عن سائر ما عرفوه من صيحات، فهي تدمّرهم بالحقّ والعدل. وقد تنوّعت المهلكات التي ينزلها الله تعالى على الأمم الطاغية الضالّة، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، والحاصبة هي الريح العاصفة التي فيها حجارة صغيرة مهلكة. وممن أرسل عليهم ذلك قوم ثمود وقوم عاد، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥، ٦].

(١) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٠٣٧.

(٢) تفسير السعدي، ص ٧٢٦.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٠٣٩.

وقوله: ﴿إِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وبما أن صالحاً وهوداً كانت أقوامهم تعيش في بلاد العرب، ويبدو أن الذاكرة التاريخية للعرب كانت تحتفظ ببعض القصص والأساطير عن تلك الشعوب، وتمرّ على قراها وبقايا آثارها وهي في جزيرتهم، أراد الله سبحانه وتعالى أن ينذرهم ويخوفهم ويبين لهم أنهم إن لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمعوا له ويطيعوا، فإن مصائرهم مثل مصائر أولئك الذين جعلهم الله أحاديث، ومزّقهم كل ممزّق^(١).

- فجعلناهم غنّاء: وأمّا الغنّاء فهو ما يكتسحه السيل من عيدان، وأوراق شجر يابسة، وبقايا حيوانات نافقة مما لا قيمة له^(٢)، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح في إحدى جنبات الوديان، أو شواطئ البحار.

فالغنّاء هو الزبد الذي قال الحق سبحانه وتعالى عنه: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۚ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي الحديث الشريف قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، - يعني: يدعو بعضهم لبعض لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها - فقالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غنّاء كغنّاء السيل»^(٣).

يعني: شيئاً هيناً لا قيمة له يذهب سريعاً^(٤).

- ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]؛ هي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوهرها أعمق تعبير: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]؛ بُعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبُعداً لهم

(١) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٦/ ١٠٠٣٩.

(٤) سنن أبي داود، رقم ٤٢٩٧.

من رحمة الله فقد عُينوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلّون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم، إذاً فابتعاد قوم هود الظالمين الذين كفروا وكذبوا برسالة هود عليه السلام عن الأرض أصبح نهائياً، فلم يبقَ منهم إلا الذين آمنوا بهود، فقد نجّاهم الله برحمته من عنده.

- ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]؛ فهذه الكلمة تحديداً ترد في القرآن الكريم لتنبّه أنّها مثل سحقاً ودماراً، فهي بمنزلة اللعن، ففيها معنى الإبعاد عن الخير والجنة ورضاء الله جلّ شأنه. واستعمال ﴿بُعْدًا﴾ [هود: ٤٤] هنا فيه إشارة إلى أنّ هذا البعد بعد مطلق في الدنيا وفي الآخرة، فكما بعدوا في الدنيا عن الهداية، وحيل بينهم وبين ما يشتهون من بقاء في الحياة الدنيا، سيُحال بينهم وبين نعيم الآخرة، والله أعلم. وقد وردت ﴿بُعْدًا﴾ [هود: ٤٤] في مواطن أربعة آخر:

- قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

- وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

- وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودٍ﴾ [هود: ٦٨].

- وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ ۖ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

فهذه المواضع كلّها تماثل (سحقاً)، من حيث إنّ فيها لعنة، وطرداً، وإبعاداً، وإذلالاً، وإيماءً إلى الإهمال التام لهؤلاء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم^(١).

﴿رابعاً: قصة هود في سورة الشعراء﴾

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۚ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ ١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ ١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ

(١) تفسير القرآن بالقرآن، ص ٦٤٢.

آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَعَلَتْ وَعْيُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمْ ﴿١٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤١﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

سجّلت الآيات الكريمة في سورة الشعراء دعوة هود عليه السلام لعاد، وتكذيبهم له، وأضافت القصة في سورة الشعراء أبعاداً أخرى، فقد جاء فيها ما كان يتمتع به قوم عاد من حضارة وقوة كما سنرى بإذن الله تعالى^(١)، وقد جاءت قصة عاد بعد قوم نوح في السورة^(٢).

تفسير الآيات:

١ - قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

أ - ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]:

هذه نهاية القصة، يبدأ بها لإبرازها منذ البداية ثم يأخذ في التفصيل. وقوم هود لم يكذبوا إلا هوداً، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين، فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين. والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة بصيغ متعددة، لأنه كُتِبَ من كليات العقيدة الإسلامية، تحتضن بها الدعوات جميعاً، وتُقسم بها البشرية كلها إلى صفتين: صف المؤمنين وصف الكافرين، على مدار الرسالات ومدار القرون. وينظر المسلم، فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام، دين التوحيد الأخير، وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملّة وفي كل دين،

(١) من قصص القرآن، د. عصام الدين الهنامي، ص ٦٥.

(٢) الثمين في قصص الأنبياء والمرسلين، زهير علي، ص ٢٣.



وإذا المؤمن يؤمن بالرُّسل جميعاً، ويحترم الرُّسل جميعاً، لأنَّهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد^(١)، وأيَّ أمة تكفر برسولها فكأنَّما كفرت بجميع المرسلين.

ب- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤]: صرَّح القرآن الكريم أن هوداً عليه السلام أخ لقومه الكافرين، ويُقصد به أخوة الإنسانيَّة، فهو ليس من أبيهم، وهي أخوة سبب لا أخوة دين.

والأخوة لغة وشرعاً على درجات وطبقات، وأولها: الأخوة الإنسانيَّة التي وُصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم، وتكرَّر ذلك في القرآن الكريم والسنة النبويَّة. وجاء في حديث الإسراء أنَّ الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مرحباً بالنبِيِّ الصَّالح والأخ الصَّالح"^(٢).

وأعلى درجات الأخوة: أخوة الإيمان، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن أخو المؤمن»^(٣).

وهي التي تستحقَّ كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكنَّ ذلك دفع بعض المتعصِّبين والمتشدِّدين إلى حصر الأخوة من هذه الدرجة، وأنكر استعمالها في الدرجات الأخرى، مُخالفاً بذلك القرآن والسنة، واستعمال الأخ حسب النسب، والدرجات، والقبائل، والأعراف، والأديان، وهو ما يجري عادة في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ والمجاملة في لقاء الآخرين مهما كانت صفاتهم وأحوالهم.

- ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله

وخشيته؟

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٧.

(٢) شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، ص ٩٤.

(٣) سنن أبي داود، ٢/ ٥٧٦، شرعة الله للأنبياء، ص ٩٤.

وهذا التوجيه إلى التقوى مطّرد في هذه السورة^(١).

والاستفهام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، فيه معنى العرض مع الحَضّ: أَلَا تَتَّقُونَ الله في توحيده وإفراده بالعبادة والطاعة والاستجابة لرسوله.

والتقوى هي: الالتزام بشرع الله، واجتناب نواهيه. وهي الترفع عن الدنيا وأعراضها، والسعي للحصول على رضا الله، وتجنب غضبه وعذابه^(٢).

ج- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٥]:

لا يخون، ولا يخدع، ولا يغشّ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً ممّا كلفه من التبليغ^(٣).

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَمِينٌ عَلَى رَسُولَاتِ رَبِّي، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا. ويترتب على كونه رسول الله، مبلّغاً عن ربه رسالاته، أنّهم مأمورون من قبل الله بطاعته.

د- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٦]:

أي: فاتّقوا عذاب الله، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، لأنكم إن لم تطيعوني فيما أدعوكم إليه وأنا رسول مبلّغ عن الله؛ كنتم مستحقّين لعقابه وعذابه، فليست القضية قضيتي، وإنّما هي قضية الله ربّي وربّكم^(٤).

هـ- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٢٧]:

لما كان يتبادر لأذهان الأقوام المدعوّين إلى مبدأ، أو فكرة، أو علم، أو جماعة أنّهم الداعي بأنّ له مصلحة شخصيّة، يحصل عليها من جرّاء اتّباعهم له، كان من الحكمة في الدعوة أن يعلن الرسول تجرّده من أيّة مصلحة شخصيّة، يحصل عليها من قومه الذين يدعوه إلى دين الله ربّه وربّهم، ومعلوم أنّ أدنى المصالح وأخفّها؛ مطالبتهم بأجر على ما

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٧.

(٢) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٧.

(٤) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٤.



يقدمه لهم من تعليم ونصح وإرشاد، والظاهر أن التبرؤ من أدنى المصالح وأخفها يستلزم بداهة التبرؤ مما هو أصعب على نفوس القوم وأشد، فأبان لهم هود عليه السلام أنه ما يسألهم على ما يبذل لهم من أجر، مهما كان قليلاً وخفيفاً، دل على ذلك قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٢٧].

و- ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]:

ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنها مثالية خيالية بالنسبة إلى البشر، وهو لا يدعيها، بل هو ضامن أجراً يظفر به عند رب العالمين، فقد تكفل الله عن المدعوين بأجر الدعاة إلى دينه وعبادته، فقال هود عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]؛ أي: ما أجري الذي أستحقه إلا في كفالة رب العالمين، فهو وحده الضامن، وهو وحده الذي تحمله وتكفل به، وهو وحده الذي أثق بآنه سيمنحني إياه، وبما أن أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، فإني أعيد عليكم مقالتي لكم، وأنا متّصف بكامل التجرد من أية مصلحة أطلبها لنفسي منكم^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ ١٢٨ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ١٢٩ ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠].

كان قوم عاد متقدمين مادياً، وهذا من مظاهر قوتهم، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى بعض مظاهر التقدم المادي عندهم، منها:

أ- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]:

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود. والريع: هو المكان المرتفع، ويطلق الريع على الارتفاع في كل شيء^(٢)، وعلى كل طريق مشرف^(٣)، وتحمل هذه الكلمة ريع [الشعراء: ١٢٨]

(١) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٦٢٢.

(٣) الأسرار البلاغية في الفوائد القرآنية، د. عبد الله عبد الغني سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م، ص ٤٦.

في طياتها المعاني السابقة التي ذكرها المفسرون واللغويون؛ لأنهم كانوا يبنون بكل طريق مشرف، وجبل ومرتفع من الأرض، يساعدهم في ذلك قوة بنيانهم وطول أجسامهم، يؤكد ذلك بكلمة ﴿يَكِلْ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، لم يقل أتبنون بالريع أو بريع، مما يدل على أن حركة البناء لديهم كانت على أشدها في كل ما يسمّى ريعاً، وقوم هود تفرّدوا بالبناء في هذه الأماكن على غيرهم من الأمم السابقة، أو أول من بنى في تلك الأمكنة، أي في كل ما يطلق عليه ريع^(١).

وكلمة ﴿آيَةً﴾ [الشعراء: ١٢٨] بعد ﴿أَتَبْنُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، تعني: القصور العالية التي تعتبر آية في الإبداع، وجمال العمارة، والزخرفة، والفخامة، والاتساع، والرفعة في العلو^(٢).

- ﴿تَعَبْتُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي: للعبث والترف، ولمجرد اللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتاعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة^(٣).

- ﴿تَعَبْتُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]؛ بقصد العبث بمن يمرّ في الطريق من الناس، وفي ذلك استخدام للأبنية في غير ما شرّع الله بناءها.

وهنا حذر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه من عبثية الغاية من البناء والإعمار، فعاد بنّ المبانى العظيمة بقصد المباهاة وإظهار القوة ولم تُبن للحاجة ولا لغرض سليم^(٤).

وهذه النزعة الماديّة المحضّة البعيدة عن القيم السماويّة بسبب كثرة ترفهم وبطهرهم جعلتهم يشيدون القصور والمباني في الأماكن المرتفعة بدون مقصد سام، بل بسبب شياطين الغرور والفخر والخيلاء، كما يفعل في عصرنا الحاضر كثير من الحكّام المستبدّين وأصحاب الثروات الكبيرة ممّن لا يرجون لله وقاراً، فتراهم يملؤون الساحات الكبيرة والأماكن

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٧/١٦٠٢٢.

(٣) الأسرار البلاغيّة في الفرائد القرآنيّة، ص ٤٦.

(٤) إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران، يحيى وزيري، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ص ٥٣.



المرتفعة بالمجسمات والتماثيل إرضاء لغرورهم، وتخليداً كما يزعمون لذكورهم، وينفقون عليها نفقات باهظة، ويتركون شعوبهم تعاني من الأزمات الاقتصادية والفقر المدقع^(١).

إِنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الانشغال بالدنيا، والتباهي بالأبنية الشامخة فوق كل مكان مرتفع إظهاراً للقوّة والمنفعة، مع قسوة القلب، والكفر، والشرك، والمعاصي، والذنوب، والغفلة عن طريق الآخرة.

والعمران بأصله مشروع، ولكنّه لما كان رياءً، ومباهاةً، وتعالياً على الحقّ، والخلق سمّاه عبثاً^(٢).

وأما إذا كانت هذه المباني الضخمة للحاجة، كالحصون الواقية من شرور الأعداء، والمباني في الثغور لحفظ الحدود، والبلاد، ونحوها ممّا ينفع المسلمين، كالجسور والسدود، وقيهم الشرّ، فهذا النوع يدخل في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتّخاذ الحذر من الأعداء، والرفق بالمسلمين والمواطنين إذا أخلص المسؤولون على ذلك النية لله تعالى^(٣).

ب- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]:

حيث بلغت عاد في الحضارة الصناعيّة مبلغاً يُذكر، حتّى لتتخذ المصانع لنحت الجبال، وبناء القصور، وتشديد العلامات على المرتفعات، حتّى ليجول في خاطر القوم أنّ هذه المصانع وما ينشؤونه بواسطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجوّ، وغارات الأعداء^(٤).

- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]: بما يناسب ذلك العصر من أدوات الرّيّ، والزراعة، وتجميع المياه، وكذلك السلاح وأدوات القتال^(٥).

(١) التفسير الموضوعي، ١٧٦/٦.

(٢) مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره، د. محمد عياش الكبيسي، دار نشر جامعة قطر، ٢٠١٩م، ١١١/٢.

(٣) قصص القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م، ص ٤٢.

(٤) في ظلال القرآن، ٥/٢٦١٠.

(٥) مجالس التفسير، ٣/١٠١١.

وفي المراد من "المصانع" أقوال ذكرها العلماء؛ فهي الحصون، أو هي البيوت، أو هي مستودعات المياه الضخمة^(١)، وربما كان عندهم غير ذلك ممّا لم يصل عنه خبر، والله أعلم^(٢).

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]: هذه المصانع في بناء القصور، والبيوت، والمنازل الفارهة، وغير ذلك، كانوا يبنونها لعلهم يخلدون، يريدون أن يعيشوا في الدنيا إلى الأبد، يظنون أن القصور والمصانع والأموال ستخلدهم^(٣).

إن رؤية الخلود من خلال الثراء المادي أمر سيّء، ويعود بالوبال على أصحابه بشكل عام، ومن أجل ذلك أتى تحذير هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه قوياً، ولكنهم لم يفهموا جدية هذا التحذير، ومضوا في غيهم وطغيانهم وعشهم، فقد ظنوا أن الثراء الذي نعموا به والمصطحب بالتقدم الصناعي والعمراني يزودهم بالأحقية لاستخدام العنف والقوة، ومن ثمّ البطش بالآخرين بغلظة، من أجل الحفاظ على منافعهم ومصالحهم كما يتجلّى في الآية الكريمة المختصة بعاد^(٤).

ج- ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]:

والبطش: الأخذ الشديد في كلّ شيء مع استخدام العنف^(٥). وهذا الوصف يدلّ على غلظتهم وقسوتهم وجبروتهم وأنهم لا يعرفون الرحمة ولا التسامح^(٦).

إنّ البطش والظلم غريزة في الإنسان، قال الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فليعلّة لا يظلم

(١) موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، ١٦/ ٣٣١.

(٢) مجالس التفسير، ١٠١١/ ٣.

(٣) قصص الأنبياء، عمرو خالد، ص ١٨٨.

(٤) أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، ص ٥٣.

(٥) جماليات القرآن الكريم، محمد تكروك، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٩م، ص ٧٠.

(٦) التفسير الموضوعي، ١٧٧/ ٦.

وتظهر هذه السمة في الإنسان وتزداد إذا توفرت له بعض الوسائل كالقوة والسلطة والغنى، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَافٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]؛ أي صار ذا مال وثروة، أو استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان والبطش، كما قلنا: الأخذ بالعنف، وبتش بالشيء: أمسكه بقوة^(١).

وإن قوم عاد اتجهوا إلى البطش في خلق الله تعالى، وظلم بعضهم بعضاً، فحذّرهم هود عليه السلام من ذلك قبل أن يحلّ بهم الدمار والعقاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "البطش: العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط"، أي: فعلتم ذلك ظلماً.

وقال القرطبي رحمه الله: "والآية نزلت خبراً عمّن تقدّم من الأمم، ووعظاً من الله عزّ وجلّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به، وأنكره عليهم.

﴿جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]: جمع جبار، وهو القتال في غير حق، والجبار: المتسلط العاتي"^(٢).

إنّ تحريم البطش والظلم من شريعة الله تعالى للأنبياء جميعاً، وحذّر من ذلك القرآن الكريم، وهو من أحكام الشريعة الإسلامية الخالدة، التي كان أحد أهدافها العدل ومنع الظلم^(٣).

إنّ الله عزّ وجلّ أخبرنا عن هذه الحضارة التي انحرفت عن منهج الله، ومضت فيها سنة الله عزّ وجلّ. فقد تفوق قوم عاد:

- عمرانياً: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

- وصناعياً: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

- وعسكرياً: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

- وعلمياً: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة السادسة، مادة بطش، ١/ ٦١.

(٢) تفسير القرطبي، ١٦/ ٥٧-٥٨.

(٣) شريعة الله للأنبياء، ص ١١٠.

تفوّقوا في كلّ الميادين المادّيّة، وفشلوا فشلاً ذريعاً في القيم الروحيّة، ومعرفة حقيقة الوجود الإنسانيّ، فكانت حركتهم في الحياة في كلمتين ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْإِلَادِ ۝﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْقَسَادَ ﴿[الفجر: ١١، ١٢]، فلم يطغوا في بلد فحسب، بل في شتىّ البلاد، فسحقوا الإنسان في ذلك الزمان، لأنّهم ما عرفوا الله، ولا عرفوا سرّ وجودهم ولا غايتهم في هذا الوجود^(١)، فحاولوا بناء مجدهم على أنقاض الشعوب من أجل أن يعيشوا في أعلى درجة من الرفاهية، فكانوا أشقى خلق الله قاطبة في ذلك الزمان، ولم ينتفعوا بدعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ الصادقة.

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُ جَبَارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]: قال محمّد أحمد العدويّ رَحِمَهُ اللهُ: "يريد أنكم قساة غلاظ، بطشكم بهم بطش جبابرة، لا ترعون لهم عهداً، ولا تعملون لجوارهم حساباً.

وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف به نبيّ الله هود عاداً، إلى غلاة المستعمرين، ودول الحضارة اليوم، إذا سلّطهم الله على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة، وأذاقوه العذاب ألواناً، فيتّموا الأطفال، وسبّوا النساء، وهتكوا الحرمات، ومزّقوا المصاحف، وقتلوا الأبرياء، وهذه آثارهم في كلّ مكان تُشيب الطفل، وتضجّ لها الإنسانيّة، ويغيض لها ماء الحياة"^(٢).

قال المفسر الرازيّ رَحِمَهُ اللهُ: "وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أنّ اتّخاذ المصانع يدلّ على حبّ البقاء، والجباريّة تدلّ على حبّ التفرد بالعلوّ، فيرجع الحاصل إلى أنّهم أحبّوا العلوّ وبقاء العلوّ والتفرد بالعلوّ. هذه صفات الإلهيّة، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدلّ ذلك على أنّ حبّ الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه، وخرجوا عن حدّ العبوديّة، وحاموا حول ادّعاء الربوبيّة، وكلّ ذلك ينبّه على أنّ حبّ الدينار رأس كلّ خطيئة وعنوان كلّ كفر ومعصية"^(٣).

(١) تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م،

٤٠٣/٦.

(٢) دعوة الرسل إلى الله، محمد العدوي، العصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م، ١/ ١٧٤.

(٣) تفسير الرازي، ١٥٨/٢٤.



٣- قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^(١٣) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ^(١٣) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ^(١٣) وَجَنَّتِ وَعُيُونِ^(١٣) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٥].

ذكرهم هود عليه السلام مجدداً بتقوى الله وطاعته.

أ- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٣١]:

فتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعته، كفيلة أن تذهب ماضيكم، وتمحو ذنوبكم، بل وتبدله خيراً، وصلاً: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [هود: ١١٤]، إن هوداً عليه السلام دعاهم إلى أن يتقوا عقاب الله بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيما أمرهم به ونهاهم عنه من اللّهُ الباطل، والعبث، والبطش بالناس، وظلمهم وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، وترك الكفر، وتحقيق الإيمان، والابتعاد عن الشرك، والالتزام بالتوحيد.

ب- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]:

حذّرهم من سخط الله وغضبه الذي أعطاهم من عنده ما يعلمونه، فذكرهم هود عليه السلام بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولاً ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]، لكي يتذكروا، فيشكروا، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم.

- ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]: وهو حاضر بين أيديهم، يعلمونه ويعرفونه ويعبثون فيه، ثم يفصل بعض التفاصيل^(١).

ج- ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ﴾ [الشعراء: ١٣٣]:

ابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام من الضأن والماعز والإبل والبقر، لأنها من أجل النعم عليهم، لأن منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وعطف عليها البنين، لأنهم نعمة عظيمة، بأنها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعددهم وكثرة أمّتهم^(٢).

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦١٠.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٣٩٦.

د- ﴿وَجَنَّتِ وَعْيُونُ﴾ [الشعراء: ١٣٤]:

عطف الجنات والعيون؛ لأنها بها رفاهية حالهم، واتساع رزقهم، وعيش أنعامهم^(١). وهذه النعم المعهودة في ذلك العهد، وهي نعمة في كل عصر، ومن ثم خوفهم عذاب يوم عظيم.

هـ- ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]:

هذا يدل على أنه كان يُشفق عليهم، ويخشى نزول العذاب بهم^(٢)، فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألا يحلّ بهم عذاب ذلك اليوم الذي لاشك فيه، ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة، فإذا الإصرار والعناد والاستهتار^(٣)، جعلهم يقولون:

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [١٣٦] إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨].

فقالوا معاندين للحقّ مكذّبين لنبيهم:

أ- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]:

أي: الجميع على حدّ سواء، وهذا غاية العتوّ، فإنّ قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصّمّ الصلاب، وتتصدّع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها عندهم على حدّ سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتدّ شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا:

ب- ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]:

أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادة الأوّلين، تارة يستغيثون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر لأنّ هذه محن ومنح من الله تعالى وابتلاء لعباده^(٤).

(١) المصدر السابق، ٣٩٦/٥.

(٢) التفسير الموضوعي، ١٧٧/٥.

(٣) في ظلال القرآن، ٢٦١٠/٥.

(٤) تفسير السعدي، ص ٧٩٠.



وذكر العلماء مجموعة من الأقوال في الآية لخصها الإمام الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ فقال: "ومعنى الآية على هذا يجوز أن يكون المحكي عنهم، أرادوا مدحاً لما هم عليه من الأحوال التي أصرّوا على عدم تغييرها فيكونوا أرادوا أنها خلُق أسلافهم وأسوتهم، فلا يقبلوا فيه عدلاً ولا ملاماً.

وبجوز أن يكونوا أرادوا ما يدعون إليه رسولهم، أي: ما هو إلا من خلُق أناس قبله، أي: من عقائدهم وما رضوا عليه أنفسهم، وأنه عبر عليها وانتحلها أي: ما هو بإذن الله تعالى.

وأما على قراءة من قال بفتح الخاء وسكون اللام (خلُق)؛ مصدر، وهو الإنشاء والتكوين، والخلُق أيضاً مصدر خلُق، إذا كذب في خبره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وتقول العرب: حدّثنا فلان بأحاديث الخلق، وهي الخرافات المفتعلة. ويُقال له: اختلاق بصيغة الافتعال الدالة على التكلف والاختراع، قال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ [سورة ص: ٧]، وذلك أن الكاذب يخلق خبراً لم يقع.

فيجوز أن يكون المعنى: أن ما تزعمه من الرسالة عن الله كذب، وما تخبرنا من البعث اختلاق، فالإشارة إلى ما جاء به هود عليه السلام.

ويجوز أن يكون المعنى: أن حياتنا كحياة الأوّلين نحياً ثمّ نموت، فالكلام على التشبيه البليغ، وهو كناية عن التكذيب بالبعث الذي حدّره جزاءه في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]، يقولون: كما مات الأوّلون ولم يُبعث أحد منهم قطّ، فكذلك نحياً نحن ثمّ نموت ولا نُبعث. فهذه أربعة معانٍ، واحد منها مدح واثان ذمّ، وواحد دعاء.

- وجملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] على المعاني: الأوّل والثاني والثالث عطف على جملة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] عطف مغاير.

وعلى المعنى الرابع: عطف تفسير لقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، تصريحاً بعد الكناية، والقصر قصر إضافي على المعاني كلّها.

ولا شك أن قوم هود نطقوا جُملاً كثيرة تنحلّ إلى هذه المعاني، فجمعها القرآن في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، باحتمال اسم الإشارة، واختلاف النطق بكلمة خُلُق، فله إيجازه وإعجازه^(١).

ج- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]:

وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به، أننا على فرض أننا نبعث فإننا كما أدّرت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعثنا^(٢).

فحبّتهم فيما هم عليه، وفيما يستنكره عليهم هود، هو أنه خُلِقَ الأوّلين، ونهجهم، وهم يسرون على نهج الأوّلين، ومن ثمّ إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأوّلين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]^(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠]

أ- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الشعراء: ١٣٩]: صار التّكذيب سجيّة لهم وخُلُقاً لا يردّ عنهم عنه رادع^(٤).

- ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولنا^(٥).

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]: في كلمتين اثنتين ينتهي الأمر، ويطوى ما كانوا فيه من نعيم، من أنعام وبنين وجنّات وعيون، وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكّر على هذا النحو، وتغترّ هذا الغرور، وتبتعد عن الله كلّما تقدّمت في الحضارة، وتحسب أن الإنسان قد أصبح

(١) التحرير والتنوير، ٥/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) تفسير السعدي، ص ٧٩٠.

(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦١٠.

(٤) تفسير السعدي، ص ٧٩٠.

(٥) جامع البيان، ٩٨/ ١٩.

في غنية عن الله وهي تنتج عن أسباب الدمار لغيرها والوقاية لنفسها، وما تحسبه واقياً لها من أعدائها، ثم تصبح وتسمي فإذا العذاب يصبّ عليها من فوقها ومن تحتها عن أيّ طريق^(١).

ب- ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩]:

- ﴿وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ﴾ [الشعراء: ١٣٩] أي: إنّ في ذلك الذي جرى من عقاب ربّانيّ شامل لقوم هود لآية ليتعظ بها من تفكّر وتدبّر، ولم يُطغّه هواه، ولم تُعم بصيرته شهواته ونزغات الشياطين.

- ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩] أي: ما كان أكثر الذين شملهم الهلاك والعذاب مؤمنين بأنّ الله سينزل بهم عقابه، وبأنّ إنذارات هود عليه السلام نازلة بهم.

إنّ عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩] تدلّ على أنّ بعضهم، وهم قلة، كانوا يخشون هذه العاقبة، ويعرفون صدق هود عليه السلام.

ج- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]:

انتهت قصّة هود عليه السلام في سورة الشعراء، بخطاب إلهيّ كريم، من ربّ رحيم، وجّهه الحقّ سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله، مذكراً إيّاه أنّ الله لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرحمة والإمداد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠] بالنسبة لأوليائه.

لقد صوّرت لنا الآيات الكريمة نهاية قوم هود عليه السلام، وفي حقيقتها نهاية الشرك في قوم عاد، وهو موضع العبرة في قصّة هود في سورة الشعراء.

- ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]: اسم الله (العزیز) الذي له العزّة كلّها: عزّة القوّة، وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته.

- ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]: اسم الله (الرحيم) يُذكر مع الرحمن دائماً في كتب أسماء الله الحسنى، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الرقة والعطف، وإن اسم (الرحمن) أشد مبالغة من اسم (الرحيم) لأن بناء فعلاً أشد مبالغة من فعيل، وبناء فعلاً للسعة والشمول^(١).

إن اقتران اسم الله العزيز باسمه الرحيم في سورة الشعراء في قصة هود مع قومه؛ ناسب ختمها بهذين الاسمين الكريمين، وذلك ما حصل للمكذّبين من عذاب وهلاك، إنّما هو مقتضى عزّته سبحانه وقوّته وغلبته، وهو موجب اسمه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]، وما حصل من إنجاء هود وأتباعه إنّما هو مقتضى رحمته ولطفه، وهو موجب اسمه سبحانه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]. فرحمته سبحانه ناشئة عن قدرة وقوة وعزّة، لا من ضعف وعجز، واجتماع الوصفين يدلّ على جريان عزّته، سبحانه، على سنن الرحمة التي تستلزم إفاضة الخير والإحسان^(٢).

﴿خامساً: قصة هود في سورة الأحقاف﴾

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْيَدُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ نَّآ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكُكُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَرًا وَفِئْدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفِئْدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجِدُونَ بِبَايَةِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُم مِّن دُونِ اللَّهِ فُزِنَا لَهُمْ وَاللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٨]

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق، ص ١٥١.



سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون بحسب ترتيب سور المصحف العثماني، والخامسة والستون بحسب ترتيب نزول السور، والسابعة من الحواميم السبع، وقد تحدّثت السورة عن قصة هود عليه السلام مع قومه الطغاة عاد الذين اغتروا بقوتهم وجبروتهم، فأهلكهم الله بالريح العقيم، تحذيراً لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم^(١). وإليك تفسير الآيات الكريمة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

تفسير الآية الكريمة:

أ - ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]:

يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: اذكر يا محمد، كأن هذا الذكر جاء لتذكير رسول الله بمواقف إخوانه من الرسل في موكب الإيمان، بمعنى: انظر لمن سبقك منهم ولما تحمّل في سبيل دعوته، فأنت لست بدعاً من الرسل، نعم تحمّلوا المشقة والأذى، لكن صدق الله وعده بنصرتهم في النهاية، لذلك تلاحظ في أسلوب القرآن، تعدّد القصّة الواحدة بتعدّد الأحداث التي تمرّ بالرسول، يقول تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فكلّما حدث لرسول الله أمر مع قومه يُذكره بموقف من مواقف الرسل السابقين ليُطمئنه وليُثبت فؤاده على الحقّ. وإذا كان كلّ رسول يتعرّض للأذى على قدر مهمّته فلا شكّ أنّك ستكون أشدّ الرسل إيذاءً؛ لأنّك الرسول الخاتم.

- وقوله ﴿أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] المراد: سيّدنا هود عليه السلام، أبهم (جَلَّ وَعَلَا) في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعيّنه، ولكنّه بيّن في آيات أخرى أنّه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام،

كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] في سورة (الأعراف) وسورة (هود) وغير ذلك من المواضع^(١).

وكلمة أخ تُجمع على إخوة وإخوان، إخوة تعني أخوة النسب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٨].

وفي الآية الكريمة ﴿أَخًا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ أخاهم في النسب، وعاد هي القبيلة أو الأمة التي أرسل فيها سيدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

والإضافة في ﴿أَخًا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]: تحنين لهم، وإثارة لمشاعر الرحمة والدم الواحد، فالذي جاءهم ليس غريباً عنهم، إنّما هو أخ لهم، وإن جاءهم بمنهج مخالف لما هم عليه، وأراد أن يُخرجهم عما ألفوه من الضلال والفساد، والأخ لا يغش أخاه سواء أكانت أخوتهم له بالنسب، أم للدين والمنهج والقيم.

- و﴿عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]: كانت جماعة من العرب البائدة، وكانت تسكن الأحقاف^(٣).

- ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]: هي جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاف جمع حقف: وهو الرمل المستطيل الذي يعلو وينخفض، ويتحرك يميناً وشمالاً، وهنا وهناك، والرمل لنعمته تُحرّكه الرياح والأعاصير بسهولة، حتّى إنّ الهبة الواحدة من الإعصار في هذا المكان كانت تطمر قافلة وتغطيها في هذا الوادي، لذلك لم تظهر آثار قوم عاد حتّى الآن لأنّها مطمورة على مسافات بعيدة تحت الرمال.

كذلك الآثار القديمة في كلّ مكان لا توجد إلّا تحت الأرض في حفريات، لأنّ عوامل التعرية تطمرها، لذلك ترى الواحد منّا إذا سافر مثلاً وترك بيته لعدّة شهور مثلاً يعود فنجدّه مُغطّى بطبقة من التراب، مع أنّه مغلق بإحكام، فما بالك في الخلاء مع هبوب الرياح والأعاصير^(٤).

(١) أضواء البيان، ٣٩٦/٧.

(٢) تفسير الشعراوي، ٢٣/١٤٢٢.

(٣) المصدر السابق، ٢٣/١٤٢٢٦.

(٤) المصدر السابق، ٢٣/١٤٢٢٦.



واختلف العلماء في تحديد مكان (الأحقاف)، فروي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: أنه في شمال الجزيرة العربية في أرض حسمى، بين جبال الشراة والحجاز، أو في جبل بالشام على مقربة من ديار ثمود^(١). وتابعهم بعض المعاصرين معتمدين على قول بطليموس يحدد مكان (عاد) في المناطق الشماليّة الغربيّة من الجزيرة العربيّة، رابطين بين (إرم) وجبل (رم)، ومستدّلين بورود لفظ (حقاف) في المنطقة الجنوبيّة لمدين.

ورأي جمهور العلماء: أن الأحقاف بجنوب الجزيرة العربيّة، وأكثر الآراء تحديداً بين اليمن وعمان^(٢)، ورأي الجمهور يحدّد المكان بالرمال الممتدّة من حضرموت إلى ظفار في جنوب الربع الخالي، بل إن لفظ (الأحقاف) شاع في كتابات الرحّالة المستشرقين علماً على جنوب الربع الخالي، وسّموا الجزء الشماليّ منه الرمال^(٣).

وعلى أيّ حال فلفظ الأحقاف وصف جغرافيّ للكثبان المرتفعة المموجة من الرمال، وقصرت دلّالته العامّة فصار علماً على ديار عاد التي أقامت فيها ركائز حكمها، قبل أن تغيب عن مسرح الحياة كلّ^(٤).

وقال الدكتور عصام الدين الهنامي: "والأحقاف الآن رمال هشة شديدة النعومة، بالربع الخالي من المملكة العربيّة السعوديّة، وقد ثبت من دراسات الاستشعار عن بعد بالطائرات والأقمار الصناعيّة، وخاصّة باستخدام الرادار، أن هذه الكثبان الرملية تتميّز بوجود مياه جوفيّة أسفلها، تكوّنت في العصور المطيرة، وكان البشر يعيشون في جنة وارفة الظلال، في أودية تعجّ بالماء والحياة، ثمّ حدث تغير في المناخ فانقطع المطر، وجفّ الزرع، وماتت الحياة"^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ، ٣٢٩٦/١٠، تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٢٨٢/٥.

(٢) أعلام المكان في القرآن الكريم، يوسف أحمد أبو ريدة، رسالة ماجستير- جامعة الخليل، ٢٠٠٧م، ص ٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٤، رسالة الأنبياء، عمر أحمد، ١٣٨/١.

(٤) أعلام المكان في القرآن، ص ٥٤.

(٥) من قصص القرآن، ص ٧١.

وكلمة (الأحقاف) من الفرائد القرآنية، وقد حدّد ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ مكانها، فقال: "الأحقاف جمع حِقف، بكسر فسكون، وهو الرمل العظيم المستطيل وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عاد، وكانت مشرفة على البحر بين عُمان وعدن، وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت" (١).

يقول الدكتور عبد الله عبد الغني سرحان: "يلاحظ ممّا سبق أنّ اللّغويين والمفسّرين مجمعون على أنّ الأحقاف هي: ما استطال من الرمال العظيمة ومال وأشرف واعوجّ، كما يلاحظ أنّ هذه الفريدة (الأحقاف) لم يرد لها مترادفات منصوص عليها في كتب اللّغة، أو القرآن، بل إنّ ما ذكر عنها لا يعدو أن يكون تفسيراً لمعناها اللّغوي" (٢).

إنّ تعريف الفريدة القرآنية (الأحقاف) بآل العهديّة؛ للإشارة إلى أنّها كانت معروفة بتلك الصفات، وهاتيك الخصوصيّات لدى المخاطبين عند نزول القرآن، كما يرجّحه أيضاً مجيء الفريدة جمعاً؛ أي أنّها كانت رمالاً متنوّعة شكلاً وحجماً، لا يكاد يوجد لها مثيلاً، وقد يستشفّ هذا أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

أي: وقد ظهر لكم من مساكنهم الأعاجيب والغرائب، والله أعلم.

وإنّ الإيماء إلى أنّ هذه الأماكن على غير المعتاد والمتعارف في أمثالها، فلم تكن قرينة من الطبيعة الصحراوية البدويّة كما يُفهم من هذه الفريدة عند إطلاقها، بل كانت فيها الأودية المليئة بالخيرات، والجنّات الكثيرة، والعيون الغزيرة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ۖ أَمَدَّكُمْ بِالنَّعِيمِ وَبَيْنَ ۖ وَجَنَّتِ وَعُيُونٌ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

كما كانت زاخرة بحضارة باذخة ذات أعمدة شاهقة، ومبانٍ رائعة، ومصانع عديدة، وقصور تليدة، ممّا جاء وصفها في القرآن في أكثر من آية.

(١) التحرير والتنوير، ١٠/ ٣٣٣.

(٢) الأسرار البلاغيّة في الفرائد القرآنية، ص ٤٣.



ولم يعين القرآن الكريم موقع تلك الأحقاف اكتفاء بمعرفة المخاطبين بهذا الموقع، كما يفهم من قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، أو تجاهلاً لهذا المكان الذي غضب الله على أهله الكفرة، فأبادهم عن بكرة أبيهم، وطمس حضارتهم الزائفة تحت هذه الكثبان الرملية العظيمة^(١).

ب- ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]:

مضت الرسل بإنذار أممها، ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] يعني: من قبل هود، ﴿وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ [الأحقاف: ٢١] يعني: من بعد هود^(٢).

والنذر جمع نذير، وهو الذي يُخَوِّفُك ويُحَذِّرُك من الشر قبل حلوله. وفائدة الإنذار أنه ينبهك من الخطر قبل أن تقع فيه فتجتنبه، ويجب أن يكون الإنذار قبل حدوث الشر بمدة كافية تمكّنك من تدارك الأمر وتجنب الوقوع فيه^(٣).

فالإنذارات مستمرة، وليس هود أول نذير وليس آخره، بل كان نذيراً وقد جاءت من قبله النذر وسوف تأتي من بعده النذر، وهذا يدل على رحمة الله جَلَّ جَلَالُهُ بعباده، فالإله الرحيم دائماً يرسل أنبياءه إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين^(٤)، إلى أن ختم ذلك بخاتم الرسل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتبقى رسالته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]: وهذه دعوة الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وإن العبادة هي نهاية الخضوع، والاستسلام مع غاية الحب والإخلاص. والعبادة هي أعلى علاقة بين مخلوق وخالقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٤/٢٦.

(٣) تفسير الشعراوي، ٢٣/١٤٢٢٨.

(٤) تفسير النابلسي، ١٢/٧٦.

فالإنسان لا بدّ له من أن يعبد؛ لأنّ فيه ضعفاً فكيف يقوى؟ بعبادة جهة قويّة، ولأنّ فيه نقصاً فكيف يكمله؟ بعبادة جهة كاملة، فإمّا أن يعبد الله وإمّا أن يعبد غير الله، فالمؤمن من يعبد القويّ الغنيّ، الرحمن الرحيم، الحكيم العليم، السميع البصير.

والأشقياء لضعفهم، وخوفهم، وقلقهم، وضياعهم يعبدون غير الله من الأقوياء والرؤساء، والتوجيه الإلهيّ عن طريق هذا النبيّ الكريم ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وهذا شيء دقيق جدّاً، فالذي يستحقّ العبادة هو الله جَلَّالَهُ، فالذي يستحقّ أن يُعبد هو الذي يحيي ويميت، والذي يُعبد هو الذي يرزق، والذي يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، والذي يبسط ويقبض، هذا هو الذي يستحقّ العبادة.

وهو الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، يعلم السرّ وأخفى، ويعلم الجهر، فكل ما خفي عليك يعلمه الله، ويعلم ما أعلنته وما أسرته، فهذا هو الذي ينبغي أن يُعبد^(١).

وعبادة الله وتوحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَضِيَّةٌ اتَّفَقَ عَلَيْهَا جميع الرسل، من قبل هود ومن بعده، فكلّ الديانات ما جاءت إلّا لخدمة هذه القضية، ودعوة الناس إليها.

والعبادة كما بيّنا سابقاً: طاعة العابد لأوامر المعبود ونواهيه، وهذا المعنى ينقض ويبطل عبادة غير الله، فكلّها آلهة باطلة، وعبادتها باطلة، لأنّها آلهة بلا منهج وبلا أمر ولا نهى.

والتدين غريزة في الإنسان منذ خلقه الله، ومنذ كان في عالم الذرّ، لكن التدين الحقّ له مطالب ومسؤوليات، تكبح جماح النفس وتقيّد شهواتها^(٢)، وجاءت الشرائع السماويّة على لسان الأنبياء والمرسلين، لسان حقائق الوجود، وطبيعة الإنسان، ولماذا خُلِقَ وإلى أين المصير؟

وبيّنت طريق الصراط المستقيم الذي يحقق توحيد الله في أرضه، وإفراده بالعبادة وتقوى الله وطاعته.

(١) تفسير النابلسي، ١٢/٧٧

(٢) تفسير الشعراوي، ٢٣/١٤٢٢٨.

ج- ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]:

هذا الخوف من مقتضى الأخوة، فالأخ حريص على مصلحة أخيه، حريص على نجاته^(١). وهنا وصف العذاب بأنه عظيم، أنتم في دنياكم تصفون بعض الأشياء بأنها عظيمة، وهذه العظيمة في وجودكم الماديّ مردود إلى الفناء مهما طال أجلها، كذلك كلّ نعيم في الدنيا ينغّسه على صاحبه أمران: أن يفوته النعيم، أو يفوت هو النعيم ويتركه بالموت، فوصف هذا اليوم بأنه عظيم لأنّه دائم ولا يزول ولا يموت صاحبه فيستريح منه^(٢).

وملخص دعوة هود عليه السلام، إن عبدتم الله عزّ وجلّ جاءكم الخيرات، وإن لم تعبدوه فأنحرفتم واعتديتم وظلمتم جاءكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِنَا فَاتِّبَاعًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

الكلام هنا عن قوم هود، فلمّا دعاهم إلى عبادة الله وحده:

أ- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ [الأحقاف: ٢٢]:

أي: لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده^(٣).

والإفك: قلب الشيء على وجهه، وصرف الحقّ إلى الباطل، والصدق إلى الكذب^(٤).

وقد أنكرت عاد على هود أنّه جاءهم ليتركوا عبادة الأوثان ويعبدوا الله وحده^(٥).

ب- ﴿فَاتِّبَاعًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]:

(١) المصدر السابق، ٢٣/ ١٤٢٢٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أضواء البيان، ٢٦/ ٣٩٧.

(٤) تفسير الشعراوي، ٢٣/ ١٤٢٢٩.

(٥) أضواء البيان، ٢٦/ ٣٩٧.

- ﴿فَأْتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]: استهزاء بوعيد الله عَزَّوَجَلَّ، وتكذيب. وهذه مقالة أهل الضلال، وهي من كلام الكافرين^(١).

- ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]: فهم يستعجلون بالعذاب لأنهم لا يؤمنون به ويكذبونه، ولو أنهم يؤمنون به ما استعجلوه^(٢).

وقد قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "وقد قالوا ما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]؛ أي: ائتنا بما تعدنا من العذاب، وعجله لنا إِنْ كُنْتَ صادقاً فيما تقول؛ عناداً منهم وعتوا"^(٣).

وما قالوه يدل على: سوء الظن، وعدم الفهم، والتحدي للذير، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب، وإصرار على الباطل واعتزاز، فأما هود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيتلقي هذا كله في أدب النبي، وفي تجرده من كل ادعاء، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه^(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]

أ- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]:

فهو الذي بيده أُرِمَةُ الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إِنْ شاء^(٥).

وهذا التركيب فيه قصر؛ يعني: العلم عند الله وحده، فهو الذي يأتي بالعذاب، أما متى يأتي به؟ أو كيف يأتي به؟ وبأي طريقة يأتي به؟ ومن يصيب به؟

هذا ليس من شأني، بل هو من شأن الله تعالى^(٦).

(١) تفسير النابلسي، ٧٩/١٠.

(٢) تفسير الشعراوي، ٢٣/١٤٢٣٠.

(٣) أضواء البيان، ٣٩٧/٢٦.

(٤) في ظلال القرآن، ٣٢٦٦/٦.

(٥) تفسير السعدي، ص ١٠٥٦.

(٦) تفسير النابلسي، ٧٩/١٠.

ب- ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]:

وإنما من شأني أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار والتحذير من العذاب، لا أن آتي به، فليس ذلك في مقدوري^(١).

ج- ﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]:

وهذا استدراك على أقوال قومه له، وقد دلّ قوله لهم: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣] بصيغة المضارع التي تدلّ على التكرار والتجدّد على أنّ جهلهم مكرّر مع كلّ دعوة لهم. ولو كان المراد مجرد وصفهم بالجهل لكان المناسب أن يكون التعبير: ولكنّي أراكم قوماً جاهلين، فاسم الفاعل يدلّ بصيغته على الوصف الموجود دون ملاحظة ماضٍ أو مستقبل أو تجدّد، والأصل فيه الحال^(٢).

وفعل ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]: هنا عام أيضاً مطلق، وذلك ليشمل كلّ صور الجهل وحالاته، وعندما نؤمن النظر في سياق الآيات فإننا نقف على نماذج وأمثلة للجهل الشامل الذي وقع فيه قوم عاد.

- جهل الاختيار: فقد دعاهم هود عليه السلام إلى الإيمان بالله، وعدم الشرك به، والتخلّي عما ورثوه عن آبائهم الكافرين من شرك بالله، ولكنهم رفضوا دعوته واختاروا الكفر به، والشرك بالله، وعبادة آلهة من دونه، وقالوا لهود عليه السلام: ﴿أَجِئْنَا لِتَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

إنّ اختيارهم عبادة الآلهة على عبادة الله دليل جهلهم، واختيارهم الشرك بالله على توحيده دليل جهلهم، واختيارهم الكفر بهود على الإيمان به دليل جهلهم.

- جهل الطلب: فلمّا هدّدهم هود بالعذاب، وأنّه يخاف عليهم العذاب، لم يتفاعلوا مع وعيده وتهديده، ولم يستقبلوا تخوّفه وإشفاقه، ولم يستجيبوا لدعوته ليرفع عنهم العذاب،

(١) تفسير المنير، ١٣/ ٣٧٣.

(٢) نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ص ١٧٠.

ولو تصرّفوا تصرّفًا إيجابيًا لكانوا عالمين، ولكن تصرّفهم منطقيًا، لكنهم قوم يجهلون، فطلبوا إيقاع العذاب الذي يهدّدهم هود به، بل واستعجلوا ذلك العذاب، وقالوا له: ﴿قَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

هل يفعل هذا عاقلون؟ وهل يطلب هذا الطلب عالمون؟ إنّ هذا الطلب لا يصدر إلّا عن قوم جاهلين، ولهذا ردّ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ على طلبهم بصراحة ووضوح: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرٰنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

- جهل التحليل والنظر: فلمّا استعجلوا العذاب، أرسل الله لهم ذلك العذاب في صورة سحب عارض، اعترض الأفق، وغطّى الجبال أمامهم، ولمّا شاهد القوم ذلك السحاب الكثيف المتراكم من بعيد ظنّوه سحباً ممطراً وقالوا: ﴿هٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ففرحوا به واستبشروا، وعلّقوا عليه الآمال بالغيث والخصب.

وهذه نظرة جاهلة، وهذا تعليل جاهل، صدر عن قوم جاهلين، فما درى هؤلاء الجاهلون السدّج أنّ هذا السحاب العارض هو العذاب الذي استعجلوه بجهل^(١).

لقد جمعوا من الجهل المركّب الشيء الكثير:

- يجهلون خصائص الربوبية والإلهية.

- ويجهلون قدرة الله على الوحي لبشر مثلهم، وبعثه رسولا للناس.

- ويجهلون وظيفتهم في الحياة، وأنّهم ممّتحون فيها.

- ويجهلون مسؤوليتهم أمام الله خالقهم وبارئهم.

- ويجهلون أنّ الرسول مكلف مثلهم، فهو يبلّغ عن ربّه ما يأمره بتبليغه، ومطالب بالإيمان والعمل الصالح كما هم مطالبون.

- ويجهلون أنّ كلّ ذي إرادة وفكر ممّتحن في الحياة الدنيا، ومسؤول أمام ربّه.

(١) التفسير الموضوعي، الخالدي، ص ٩٩.

وغير ذلك من عناصر جاهليّتهم، وجهالاتهم^(١).

٤- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فلما رأى قوم هود عارضاً، أي: سحاباً معترضاً في آفاق السماء متّجهاً نحو أوديتهم؛ استبشروا خيراً، وقالوا: هذا سحاب يبشّرنا بالمطر لا سيما أنّهم متعطّشون إليه، فقد أجذبت الأرض، وأبطأ عنهم المطر، وأصابهم القحط مدة طويلة من الزمن، فلما رأوا هذا السحاب فرحوا واستبشروا، وقال لهم هود عليه السلام، وقد رآهم في شؤونهم وفرحتهم لهذا السحاب، بل إنّ هذا العارض هو إنذار لكم، وما استعجلتم به من العذاب، وإنّها ريح عاصفة مدمرة، ومنذرة باقتراب العذاب المؤلم المهلك^(٢).

- ماورد في السنّة من النصوص الصحيحة في خوفه من الآيات التي عذّبت بها الأمم السابقة أن تعذّب بها أمته:

أ- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً^(٣) ضاحكاً حتّى رأى منه لهواته^(٤)»، إنّما كان يبتسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرفت ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، قالت: فقال: يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ فقد عذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا^(٥).

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: «اللهم إنّني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أرسلت به،

(١) نوح عليه السلام، ص ١٧٠.

(٢) أحسن القصص في القرآن الكريم، نائلة هاشم، ص ١١٢.

(٣) المستجمع: المجدّد في الشيء القاصد له.

(٤) لهواته: جمع لهاء، وهي اللحمة الحمراء المعلّقة على الحنك.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الاستسقاء، باب التّعوذ عند رؤية الرّيح والغيم والفرح بالمطر، رقم ١٤٩٧.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَإِذَا تَخَيَّلَت السَّمَاءَ^(١) تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مُطِرَتْ سُرِّي^(٢) عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»^(٣).

والأحاديث السابقة تبين ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ، والوجل من وقوع بأسه سبحانه على الناس، وشفقته عليهم، وشدة اليقين بأنَّ كلَّ ما يقع في الكون إنما هو من أمر الله تعالى، ولا شكَّ أنَّ القلب إذا كان عامراً بالإيمان، مستنيراً بالهداية، مملوءاً باليقين، كانت معرفته بالله تامة، وخشيته من بأسه كبيرة، ووجهه من تحوُّل نعمته وفجاءة نقمته عظيمة، وفيها أن تبدل الأحوال في الكون من الريح المفاجئة أو البرق والرعد ونحو ذلك إنما هو آيات يرسلها الله تعالى لتخويف عباده، ليستقيموا على الطاعة، ويتنبهوا من الغفلة، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]»^(٤).

ب- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَ نُصِرْتُ بِالصَّبَا^(٥) وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(٦).

إنَّ الريح قد تأتي بالرحمة، وقد تأتي بالعذاب، فكانت عذاباً على عاد، وكانت رحمة بالمؤمنين يوم الأحزاب، فلذلك يشرع عند هبوب الريح وعند رؤية السحب فعل ماورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»^(٧).

(١) تخيلت السماء: إذا ظهر في السحاب أثر المطر.

(٢) سُرِّي عنه: كشف عنه ما خالطه من الوجل.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الاستسقاء، باب التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ وَالْفَرْحِ بِالْمَطَرِ، رقم ١٤٩٦.

(٤) التدبُّر والبيان، ٢٣٦/٣١.

(٥) الصَّبَا: بفتح الصاد مقصورة، وهي الريح الشرقية.

(٦) الدَّبُور: بفتح الدال، وهي الريح الغربية. الحديث: رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم ٢٩٦٦.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الاستسقاء، باب التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ وَالْفَرْحِ بِالْمَطَرِ، رقم ١٤٩٦.



كما أنَّ الرِّيحَ جند من جنود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَذَّبَ بها أقواماً كما في قوم هود صلوات الله وسلامه عليه، وسخَّرَها لآخرين كما سخَّرَها لسليمان ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص: ٣٦]، فهي جند من جنود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يسخَّرها الله تبارك لمن أطاعه، ويعذب بها من عصاه^(١).

٥- قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿[الأحقاف: ٢٥].

يصوِّر النصُّ القرآنيَّ الرِّيحَ بأنها حيَّةٌ مُدرَكةٌ مأمورةٌ بالتدمير، قال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وهي الحقيقة الكونيَّة التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس، فهذا الوجود حيٌّ، وكلُّ قوَّة من قواه واعية، وكلَّها تدرك عن ربِّها، وتتوجَّه لما تُكلِّف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حقَّ الإيمان، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة يستطيع أن يعي عن القوى الكونيَّة من حوله، وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك، ففي كلِّ شيء روح وحياء، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأسرار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار، وقد أدَّت الرِّيح ما أُمِرت به، فدمَّرت كلَّ شيء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، أمَّا هم، وأمَّا أنعامهم، وأمَّا أشياءهم، وأمَّا متاعهم، فلم يعد شيء يُرى، إنما هي المساكن قائمة خاوية، لا ديار فيها ولا نافخ نار ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، سنَّة جارية وقدر مطَّرد في المجرمين^(٢).

أ- قال الشيخ الدكتور محمَّد راتب النابلسي: "وانظر إلى دقَّة التعبير بقوله ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فهذه الرِّيح لها ربُّ هو الذي أرسلها، وسمح لها أن تدمر، وهذه الصاعقة لها ربُّ هو الذي أنزلها على القوم، وهذه الأرض لها ربُّ هو الذي زلزلها، وهذا الماء

(١) فبهدهام اقتده، ص ٩٢.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٧.

الذي طغى له ربّ هو الذي أفاضه، ومعنى ذلك: إن سمعت عن فيضان أو إعصار، أو زلزال، أو ريح شديدة أهلكت الحرث والنسل، أو وباء اجتاح العالم، أو صقيع دمر المحاصيل كلّها، فإياك أن تفهم هذا أنّه شيء عارض، بل قال تعالى: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فالأعراض الجويّة ينبغي أن تُفهم فهماً توحيدياً، فالمياه لها ربّ، والرياح لها ربّ، والجراثيم له ربّ، وكذا الزلازل والبراكين، والأمراض، هذه كلّها لها ربّ وهو الذي يأمرها بالتدمير والإهلاك.

وإذا كان من حولنا قد دُمروا، وفعلنا مثل فعلهم، فمن المحتمل أن نُدَمَّر مثلهم، وهذه قاعدة إلهيّة ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسِتَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ومن المتوقع أن يصيب العصاة ما أصيب به من قبلهم، وأحياناً يقول لك: أصبح هناك انفتاح ولكن هذا الانفتاح، هو معاصي، ومنكرات، وفتن، واختلاط، وشرب خمر، ومناظر لا ترضي الله عَزَّوَجَلَّ، وبرامج ساقطة، ومحطّات فضائيّة، فإن أقبلتم عليها؛ فانظروا العذاب، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

هذه القصّة مؤثّرة جدّاً، وهي قصّة نبيّ كريم دعا قومه إلى ربّ كريم، وإلى منهج قويم، وإلى طاعة الواحد الأحد، فكذبوا، واستهزؤوا، وأعرضوا، واستعجلوا، فجاءتهم سحابة عذاب فظنّوها مطراً لأوديتهم، فإذا في هذه السحابة عذاب أليم، دَمَّرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ اللَّهِ، فعلى الإنسان أن يتّعظ، وعليه أن يستقيم على أمر الله، وذلك لقول الله تعالى في مقابل ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وإني: أرجوكم إذا سمع أحدكم عن خبر مشكلات العالم ألا يعزل هذه المشكلة عن التوحيد، فما من مصيبة تقع في الأرض إلّا ولها سبب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] ^(١).

ب- وقال الدكتور فاضل صالح السامرائي: "وأما في سورة الأحقاف، فإنّه ذكر مساكنهم، وهي أوّل مرّة تُذكر فيها المساكن، وأنها بالأحقاف، وذكر المساكن مناسب لذكر موضع سكناهم، وهي الأحقاف" ^(٢).

(١) تفسير النابلسي، ١٢/ ٨١.

(٢) على طريق التفسير البياني، ص ٢٠٦.

ج- ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]:

أي: سبب جرمهم وظلمهم^(١).

- ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ أي: مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين^(٢).

- ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ فالجزاء ليس ظلماً ولا عدواناً، إنما جزاء من جنس العمل، فما استحقوا هذا العذاب إلا لأنهم مجرمون^(٣).

وفيها: إنذار وتحذير لكفار قريش، يعني يا كفار قريش خذوا عبرة ممن كذب الرسل قبلكم، فهذا جزاء كل كافر مخالف لمنهج الله مكذب لرسله، وهذه الصورة أمامكم، ثم وجه الخطاب إليهم^(٤).

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِن مَكَتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَفَئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا فَئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]

هذا خطاب لقريش، ولفت لهم أن هؤلاء المعذَّبين من قوم عاد كانوا أقوى منكم، وأحسن أثاثاً وريئاً، وأكثر منكم أموالاً، وأثأروا الأرض وعمروها، ولهم حضارة من أعظم الحضارات، ومع ذلك كان هذا مصيرهم، فلم تغن عنهم قوتهم، ولم تدفع عنهم الحضارة شيئاً من عذاب الله، وأنتم لستم أقوى منهم، فاحذروا ما وقعوا فيه من تكذيب الرسول، واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم^(٥).

أ- ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيْمَا إِن مَكَتَكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]:

(١) تفسير السعدي، ص ١٠٥٨.

(٢) الاستفادة من قصص القرآن الكريم، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٢٢.

(٣) تفسير الشعراوي، ٢٣/ ١٤٢٣٦.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق، ٢٣/ ١٤٢٣٧.

يعني: مكّنّا قوم عاد. والتمكين يعني: أعطيناهم القوة والاستطاعة، وبسطنا لهم في أسباب الدنيا حتّى عملوا مالم يعمله غيرهم من الأمم.

- ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]: إنّ هنا نافية، أي: وهنا مكّنّا لهم مالم نمكّن لكم، وبسطنا لهم مالم نبسط لكم من الأسباب^(١).

قال السعديّ رَحِمَهُ اللهُ: "أي: مكّنّاهم في الأرض، حيث ينالون طيباتها، ويتمتّعون بشهواتها، وعَمَرناهم عمرًا، يتذكّر فيه من تذكّر، ويتعظّ فيه المهتدي.

أي: ولقد مكّنّا عادًا كما مكّنّاكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أنّ ما مكّنّاكم فيه مختصّ بكم، وأنّه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا، بل غيركم أعظم منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئًا"^(٢).

ب- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]:

- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ يسمعون به مواظظ ربّهم.

- ﴿وَابْصَرًا﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ يُبصرون بها حجج الله تعالى.

- ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ يعقلون بها ما يسرّهم وينفعهم^(٣).

- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتّى يُقال: إنهم تركوا الحقّ جهلاً منهم، وعدم تمكّن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله^(٤).

ج- ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]:

فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد، إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله، ولكنهم استعملوها فيما يقربهم من سخطه^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٠٥٧.

(٣) تفسير الطبري، ٢/ ٢٨.

(٤) تفسير السعدي، ص ١٠٥٧.

(٥) تفسير الطبري، ٢٦/ ٢٨.

د- ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]:

- ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ إذ كانوا يكذبون بحجج الله، وهم رسله، وينكرون نبوتهم^(١)، فكانوا يجحدون آيات الله الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة^(٢).

- ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه^(٣).

وهذا وعيد من الله جل ثناؤه لقريش، إذ يقول لهم: فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله ماحلّ بعدا، وبادروا بالتوبة قبل النعمة^(٤).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَايَتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة كعاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة، وثمود بالحجر في شمالها، وسبأ وكانوا باليمن، ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام، وكذلك قرى قوم لوط، وكانوا يمرّون بها في رحلة الصيف إلى الشمال.

ولقد نوح الله في آياته لعلّ المكذّبين يرجعون إلى ربّهم، ويتوبون، ولكنهم مضوا في ضلالهم، فأخذهم العذاب الأليم، ألواناً وأنواعاً، تتحدّث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورثهم، وكان مشركو مكّة قد سمعوا بها، ويرون آثارها غادين رائجين، وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة، فقد دمر الله على المشركين قبلهم، وأهلكهم دون أن تنجيهم ألّهتهم التي كانوا يتخذونها من دون الله، زاعمين أنّهم يتقرّبون بها إليه، سبحانه، وهي تستنزل غضبه ونقمته^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٠٥٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير الطبري، ٢٦/ ٢٨.

(٥) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٨.

٨- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

إنهم لم ينصروهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقاً إليهم أصلاً، فضلاً عن أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله.

- ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ فهو إفك، وهو افتراء، وذلك حقيقة الهلاك والتدمير، فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تُقربهم من الله زلفى؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير؟^(١).

أ- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨] أي: فهلاً نصروهم عند احتياجهم إليهم؟.

- ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليه.

- ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ أي: كذبهم.

- ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨] أي: وافترأوهم في اتّخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها"^(٢).

ب- وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ "أي: يتقربون إليهم، يتألهونهم لرجاء نفعهم.

- ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]: فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم.

- ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ أي من الكذب، الذي يمتنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنتفعهم، فضلت وبطلت"^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير ابن كثير، ٧/ ٢٨٨.

(٣) تفسير السعدي، ص ١٠٥٧.

﴿سادساً: قصّة هود في سورة فصلت﴾

قال تعالى: ﴿إِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ۚ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ ۝١٤ قَالُوا عَادٌ قَاتَسَكَّرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۚ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۚ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ ۝١٧ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۚ﴾ [فصلت: ١٣-١٨].

بدأت سورة فصلت بالحديث عن كتاب الله تعالى، ثم استعرضت جملة من آياته في الكون، ثم عرضت لحال المعرضين ومآلهم، ثم عرض لبعض آيات الله تعالى، ووصف لكتابه الكريم، وختمت ذلك كله بحال الإنسان وكبره وبطره^(١)، وإليك تفسير الآيات المتعلقة بقصة هود عليه السلام في السورة:

١ - قوله تعالى: ﴿إِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ۚ﴾ [فصلت: ١٣].

هذه الآيات الكريمة كان لها وقع خاصة على عتبة بن ربيعة، ففي الفترة المكيّة عندما رأت قريش أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرّون، فارتأت قريش أن تبعث إليه عتبة بن ربيعة لكونه أعلمهم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت إلى هذا الرجل الذي فرّق جماعتهم، وشتّت أمرهم، وعاب دينهم، فليكلّمه ولينظر ماذا يردّ عليه؟ فجاء أبو الوليد عتبة بن ربيعة إلى رسول الله فقال، يا محمّد أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم: أنّك خير منهم، فتكلّم حتّى نسمع قولك، إنّنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك؛ فرقت جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتّى لقد طار

(١) الخارطة القرآنيّة، ص ٢٤١.

فيهم: أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما نتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسوق حتى نتفانى.

أيها الرجل، إن كان إنما بك من حاجة، فجمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت؛ فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فرغت؟" قال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ كَتَبْتُ فَصَلْتَ أَيْتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿فصلت: ١-٣﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثُمُودٌ﴾ [فصلت: ١٣].

فقال عتبة: حسبك؛ ما عندك غير هذا؟ قال: "لا"، فرجع إلى قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم^(١).

وفي رواية ابن إسحاق: "فلما جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط؛ والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه مملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي منه، فاصنعوا ما بدا لكم"^(٢).

لقد تأثر عتبة بن ربيعة من موقف النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد صلى الله عليه وسلم وما يريد^(٣).

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٦٨-٦٩، السيرة، الصلابي، ص ٢٤١.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٢٩٤.

(٣) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٨٧.



وفي رواية أخرى عندما وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قراءته في سورة فصلت ﴿فَإِنْ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِّثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وعندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله، وقال: "سألتك بالرحم ألا تكمل ما قرأت"، لماذا؟ لأنه علم أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقول شيئاً إلا وقع^(١).

وإن حديث القرآن الكريم في سورة فصلت عن عاد وثمود بمثابة جولة في مصارع الغابرين بعد تلك الجولة في الآيات التي قبلها في ملكوت السماوات والأرض، وإنها جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين والظالمين^(٢).

أ- ﴿فَإِنْ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ [فصلت: ١٣]:

- ﴿فَإِنْ أَغْرَضُوا﴾ [فصلت: ١٣]: بعد هذه الآيات الواضحات عن الإيمان والتوحيد وإفراد العبادة لله.

- ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ [فصلت: ١٣]: والإنذار يكون بشيء مخيف مُرَوِّع قبل حدوثه، لا بعد حدوث المُنْذَر به ليُجدي الإنذار ونحتاط له، فلو وقع الأمر المروِّع لم يُجْدِ الإنذار به^(٣).

ب- ﴿صَبْعَةً مِّثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]:

عذاباً يستأصلكم، ويجتاحكم مثل عاد وثمود، حيث اجتاحتهم العذاب، وحلّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم، وكفرهم^(٤).

والصاعقة هي الشيء الذي يصعق ما تحته، قد يكون ريحاً مدمرة، وقد يصطحب معه ناراً محرقة. والقرآن قال: صاعقة، وسماها صيحة، وقال: ريحاً صرصراً عاتية^(٥).

(١) تفسير الشعراوي، ٢٢/ ١٣٥٢١.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١١٧.

(٣) تفسير الشعراوي، ٢٢/ ١٣٥١٩.

(٤) تفسير السعدي، ص ١٠٠٣.

(٥) تفسير الشعراوي، ٢٢/ ١٣٥٢١.

- ﴿مَثَلُ صَالِحَةٍ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]: مثل عذاب عاد و ثمود. وإِنَّمَا خَصَّ عَادًا وَثَمُودَ من بين الأمم؛ لِأَنَّ كُفَّار مَكَّةَ قَدْ عَايَنُوا هَلَاكَهُم بِالْيَمَنِ وَالْحِجَرِ^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]

أ- ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤]:

أي: إذ جاءتهم الرسل من جميع جوانبهم، واجتهدوا في دعوتهم لعبادة الله وحده^(٢)، فقد سلكوا كل السبل، واتخذوا كل الأسباب لدعوة أقوامهم^(٣).

- قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ [فصلت: ١٤] هكذا بالجمع، مع أَنَّ الكلام عن عاد و ثمود، ولكل منهما رسول واحد، فلماذا جمع وقال: الرسل؟ قالوا: لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ يَأْتِي يُؤْمَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِالرَّسْلِ السَّابِقِينَ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا كَذَلِكَ بِمَنْ يَأْتِي مِنَ الرَّسْلِ بَعْدَهُ، فَكَأَنَّ عَادًا وَثَمُودَ حِينَما يُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِمْ، يُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ بِكُلِّ الرَّسْلِ^(٤).

- ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤] أي: ملخّص دعوة كل الرسل، وقضية كل رسول من عند الله^(٥)، فهي الكلمة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعين، وقام عليها بنيان كل دين^(٦)، وهي دعوة الأقسام لعبادة الله وإفراده بالعبادة، وهي ملخّص الدين كله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤]، فالعبادة خالص الحب، وخالص الطاعة، وخالص الانقياد لله عزَّ وجلَّ^(٧).

ب- ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]:

(١) موسوعة التفسير بالمأثور، ٤٤٨/١٩.

(٢) التفسير الموضوعي، ٣٤٥/٩.

(٣) مجالس النور، ١٣٦٩/٣.

(٤) تفسير الشعراوي، ١٣٥٢٢/٢٢.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) في ظلال القرآن، ٣١١٧/٥.

(٧) تفسير النابلسي، ٣١٣/١١.

أي: نحن لا نصدّق أنّ الرسل من بني البشر، ولا يمكن إلا أن تجرى عليه كلّ خصائص البشر، فإذا انتصر على نفسه، كان قدوة لهم. ومهمّة القدوة في الأنبياء أبلغ من مهمّتهم في التبليغ^(١).

قال الإمام السعدي رحمه الله: "وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذّبين من الأمم، وهي من أوهى الشبه، فإنّه ليس من شرط الإرسال، أن يكون المرسل ملكاً، وإنّما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدلّ على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم، بقادح عقليّ أو شرعيّ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً"^(٢).

ج- ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]:

معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم، وهو المراد من قوله: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]، وقوله: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [فصلت: ١٤] ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلاً، وإنّما ذكره حكاية لكلام الرسل، أو على سبيل الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود، وهو واحد، إذ انتهى هؤلاء، وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة، ثم فصل قصّة كلّ منهما بعض التفصيل^(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَادٌ قَوْمٌ تَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]

إنّ هذه الآية الكريمة تلقى الضوء على نفسيّة الأمم المستكبرة بغير حقّ عبر التاريخ، فما عاد إلا (مثلاً) أو (نموذجاً) حيّاً لتلك الدول.

(١) المصدر السابق، ٣١٣/١١.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٠٠٣.

(٣) في ظلال القرآن، ٣١١٧/٥، التفسير الكبير، ٢٧/١١١-١١٢.

إِنَّ الْأُمَمَ الْمَتَغَطَّرَةَ الْمُتَعَالِيَةَ تَظُنُّ أَنَّ تَفَوُّقَهَا الْحَضَارِيَّ عَلَى غَيْرِهَا يَخَوِّلُهَا التَّعَدِّيَّ عَلَى حَقُوقِ الْبِلَادِ الْأَقْلَّ قُوَّةً، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى أَرْضِيهَا، أَوْ نَهَبِ مَوَارِدِهَا، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَقْوِيَةِ وَتَثْبِيتِ دَعَائِمِ حَكْمِهَا، عَلَى أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ بِقُوَّتِهَا الْمَادِّيَّةِ تَنْسَى فِي خِضَمِّ زَهْوِهَا الْمُتَقَدِّمِ أَنَّ الْقُوَّةَ جَمِيعُهَا بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى، خَالِقِ الْكَوْنِ وَكُلِّ مَا فِيهِ، وَلَا تَنْدَكِّرُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ إِلَّا عِنْدَ قُدُومِ سَاعَةِ الْعِقَابِ لِلْجَمَاعَةِ الْمَفْسُودَةِ^(١).

أ- ﴿قَالَمَا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [فصلت: ١٥]:

قوم عاد بغوا وعتوا وعصوا^(٢)، وتعاضموا على نبيهم، وأفسدوا في بلادهم^(٣). وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَأَمَّا عَادُ فَمِنْهُمْ مَنْ قَبُولِ الْهُدَى اسْتِكْبَارُهُمْ، وَالْإِسْتِكْبَارُ: الْمُبَالَغَةُ فِي الْكِبَرِ، أَيِ: التَّعَاضُّمِ وَاحْتِقَارِ النَّاسِ، فَالْسَّيْنِ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ، مِثْلُ: اسْتِجَابِ، وَالتَّعْرِيفِ فِي ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [فصلت: ١٥] لِلْعَهْدِ، أَيِ: أَرْضِهِمُ الْمَعْهُودَةِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ أَنَّ مِنْ مَسَاوِيهِمُ الْإِسْتِكْبَارَ؛ لِأَنَّ تَكَبُّرَهُمْ هُوَ الَّذِي صَرَفَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِهِمْ، وَعَنْ تَوَقُّعِ عِقَابِ اللَّهِ"^(٤).

ب- ﴿بَغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: ١٥]:

زاد في تشنيع استكبارهم، فَإِنَّ الْإِسْتِكْبَارَ لَا يَكُونُ بِحَقٍّ، إِذْ لَا مَبَرَّرَ لِلْكِبَرِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ الْمَغْرِيَّاتِ بِالْكِبَرِ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْمَالِ، وَالسُّلْطَانِ، وَالْقُوَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا تُبْلَغُ الْإِنْسَانُ مَبْلَغَ الْخُلُوءِ عَنِ النِّقْصِ، وَلَيْسَ لِلضَّعِيفِ النَّاَقِصِ حَقٌّ فِي الْكِبَرِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْكِبَرُ مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ قَدْ اغْتَرَّوْا بِقُوَّةِ أَجْسَامِهِمْ، وَعِزَّةِ أَمْتِهِمْ، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ لَا يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ج- ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]:

(١) أحسن القصص، د. زاهية الدجالي، ص ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ١٥٨/٧.

(٣) التيسير في التفسير، أبي حفص النسفي، ١٦٠/١٣.

(٤) التحرير والتنوير، ٨١٨/٩.



إِنْ قَوْلُهُمْ ذَلِكَ هُوَ سَبَبُ اسْتِكْبَارِهِمْ، لِأَنَّهُ أَوْرَثَهُمُ الْاسْتِخْفَافَ بِمَنْ عَدَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ هُودٌ بِانْكَارِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالطُّغْيَانِ عَظَّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَادُوا الْعَجَبَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فَكَذَّبُوا رَسُولَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ اعْتِرَازَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ هُوَ بَاعَثَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَكَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] دليلاً عليه خَصَّ بِالذِّكْرِ^(١).

- ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أقوى منّا في الأجسام والعدد^(٢).

وكانت عاد قد بلغوا مبلغاً عظيماً من البأس، وعظم السلطان، والتغلب على البلاد، ممّا أثار قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنّه (عاديّ).

فطال عليهم الأمد، وتفنّنوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذّات، واشتدّ الغرور بأنفسهم، فأضاعوا الجانب الأهمّ في الإنسان، وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهمّلوا أن يقصدوا من أعمالهم حبّ الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفّوا بجانب الله تعالى، ولم يستجيبوا لنبيّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد أهمّلوا رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وانقادوا لوساوس إبليس، فأوقعهم في الأمراض النفسيّة كالرياء، والغرور، والتباهي بالعظمة الوهميّة، وأعرضوا عن توحيد الله وإفراده بالعبادة، وخلت أهدافهم من المقاصد الحسنة عن خلافة الأرض وإعمارها بطاعة الله وشرعه، وظنّوا أنّهم خالدون في هذه العاجلة، ولذلك اعتزّوا بقوّتهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

د- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]:

أوسع منهم قدرة؛ لأنّه قادر على كلّ شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بأقداره^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٨١٩.

(٢) التيسير في التفسير، ١٣/ ١٦٠.

(٣) تفسير النسفي، ٣/ ٢٣١.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ والمعنى: إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوّة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربّهم، وعن إنذاره إيّاهم إعراض من لا يكثرث بعظمة الله تعالى؛ لأنّهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقّعوا عذابه، فأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم، وإجراء وصف ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ [فصلت: ١٥] على اسم الجلالة، لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم، فإنّ كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافياً في الدلالة على أنّه أشدّ منهم قوّة، وأنّه حقيق بأن يحسبوا غضبه حسابه، فينظروا في أدلّة صدق رسوله إليهم، وضمير ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ [فصلت: ١٥] ضمير فصل، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محقّقاً كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع، وعذرهم في جهله متنفياً^(١).

هـ- ﴿وَكُنُوا بِآيَاتِنَا يَحْجِدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]:

الجاحود هو: إنكار الشيء لـجاجة وعناداً^(٢)، فقد كانوا ينكرون آيات الله التي أيّد الله بها رسولهم، مع علمهم أنّها حقّ^(٣)، فكان الجزاء كما قال تعالى:

٤- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]

أ- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]:

قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحقّ أنّها متّصفة بجميع ذلك، فإنّها كانت ريحاً شديدة البرد جداً، وكانت ذات صوت مزعج^(٤)، فالصرصرة؛ صوت الدويّ والصفير الذي يصطحب الريح إذا كانت مسرعة^(٥).

(١) التحرير والتنوير، ٨٢٠/٩.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٣٥٢٥/٢٢.

(٣) التفسير الموضوعي، ٣٤٦/٧.

(٤) تفسير ابن كثير، ١٦٩/٧.

(٥) مجالس النور، ١٣٦٩/٣.



وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾ [فصلت: ١٣]^(١).

ب- ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]:

مشؤومات نكرات، والنحس ضد السعد^(٢). ووُصفت تلك الأيام بأنها ﴿نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]؛ لأنها لم يحدث فيها إلاّ السوء لهم، من إصابة آلام الهشم المحقق إفضاؤه إلى الموت، ومشاهدة الأموات من ذويهم، وموت أنعامهم، واقتلاع نخيلهم^(٣).

وقال الشنقيطي رحمه الله: "ويزعم بعض أهل العلم، أنّها من آخر شوال، وأنّها أولها يوم الأربعاء، وآخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك، وما يذكره بعض أهل العلم من أنّ يوم النحس المستمرّ هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقاً، حتّى إنّ بعض المنتسبين لطلب العلم، وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر؛ حتّى إنّهم لا يقدمون على السفر والتزوّج ونحو ذلك في هذا اليوم، ظانين أنّه يوم نحس وشؤم، وأنّ نحسه مستمرّ على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له، ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه من عنده علم، لأنّ نحس ذلك اليوم مستمرّ على عاد فقط، الذين أهلكهم الله فيه، فاتّصل لهم عذاب البرزخ والآخرة بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمرّاً عليهم استمراراً لا انقطاع له، أمّا غير عاد فليس مؤاخذ بذنب عاد، لأنّه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]^(٤).

إلى أن قال: فالحاصل أنّ النحس والشؤم، إنّما منشؤه، وسببه الكفر والمعاصي، أمّا من كان متّقياً لله مطيعاً له في يوم الأربعاء المذكور، فلا نحس ولا شؤم فيه عليه، فمن أراد

(١) أضواء البيان، ١٢٢/٧.

(٢) الدبر والبيان، ٥٤/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٨٢٢/٩.

(٤) أضواء البيان، ١٢٣-١٢٥.

أن يعرف النحس، والشؤم، والنكد، والبلاء، والشقاء على الحقيقة؛ فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله، وعدم امتثال أمره، والعلم عند الله" (١).

ج- ﴿لَنَذِقَنَّهُمْ عَذَابَ الْحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]:

- ﴿لَنَذِقَنَّهُمْ﴾ [فصلت: ١٦]؛ عذاب الذل والهوان في مقابل طغيانهم واستكبارهم، ولعذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالاً، وهم لا يمنعون منه ولا يدفع عنهم (٢)، فهناك عذاب يؤلم، وعذاب يُخزي ويُهين المتكبر، والغرض منه الإهانة والخزي والذلة، لأنه تكبر بلا رصيد ذاتي عنده، لذلك يعذبه عذاباً يخزيه، ويرغم أنفه، ويهدم كبريائه، فالخزي في تأديب النفس أقوى من الإيلام في الحس.

وهذا الخزي وهذه الإهانة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]، أمّا الآخرة فلها شأن آخر في الآخرة أخزى، لأن الخزي في الدنيا له وقت وينتهي فيه، أمّا في الآخرة فخزي دائم مستمر (٣).

- ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]؛ أي: لن يأخذ أحد بأيديهم، ولن ينجيهم من العذاب شيء، فلا أمل لهم في النصرة (٤).

- ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ في الآخرة كما لم يُنصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدراً عنهم النكال (٥).

هـ - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]

أ- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ [فصلت: ١٧]:

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) التفسير الموضوعي، ٣٤٦/٧.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٣٥٢٧/٢٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) تفسير ابن كثير، ١٦٩/٧.



وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شرب، ولهم شرب يوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله^(١)، ولهذا قال هنا:

ب- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]:

المراد بالهدى فيه: هدى الدلالة والبيان والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء^(٢).

وإنما نصّ عليهم ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليها الحجة، وحصل لها البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصّهم بزيادة البيان والهدى، ولكنهم من ظلمهم وشرّهم.

ج- ﴿فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]:

أي: اختاروا الكفر والضلال والجهل، على الإيمان والهدى والعلم^(٣).

فقد اختاروا طريق الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحقّ لهم^(٤).

د- ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]:

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] سببية، أي: فاستجبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك أخذتهم صاعقة العذاب الهون^(٥).

والصاعقة: هي كلّ ما يصعق ويدمر، سواء كان بالريح أو النار، أو الصيحة المدمّرة، والعذاب الهون أي: المصحوب بالخزي والإهانة.

(١) تفسير السعدي، ص ١٠٠٤.

(٢) أضواء البيان، ٧/ ١٢٥.

(٣) تفسير السعدي، ص ١٠٠٤.

(٤) أضواء البيان، ٧/ ١٢٥.

(٥) المصدر السابق، ٧/ ١٢٥-١٢٩.

- بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ؛ وقع لهم بسبب ما كسبوا وما اقترفته أيديهم، يعني: جزاء وفاقاً، لا ظلماً ولا عدواناً^(١).

٦- قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

أ- ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [فصلت: ١٨]:

بالله ووحدوه وأفردوه بالعبادة، من العذاب الذي نزل على قوم صالح عليه السلام.

والإيمان يحتاج إلى تفكير في خالق السماوات والأرض، ويحتاج إلى الطاعة، ويحتاج إلى معرفة أمر الله، ويحتاج إلى حضور مجالس العلم، ويحتاج إلى ملازمة الذكر، ويحتاج إلى الأعمال الصالحة^(٢).

ب- ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]:

وكانوا يخافون الله أن يحلّ بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا، ماحلّ بالذين هلكوا منهم، فآمنوا اتقاء الله وخوف وعيده، وصدّقوا رسله، وخلعوا الآلهة والأنداد^(٣).

- ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]؛ أي: كان ستّهم اتقاء الله، والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: المتّقين^(٤).

فطريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة، طريق الإيمان والتقوى.

﴿سابعاً: إشارات سريعة في قصة هود في القرآن الكريم﴾

جاءت إشارات سريعة في بعض السور، ففي سورة الذاريات كان الحديث عن الريح العقيم التي دمرت قوم عاد فجعلتهم كالريم، وورد في سورة القمر عن تكذيب عاد، وتعذيب الله لهم بالريح الصرصر، التي تركتهم هلكى كأعجاز النخل المنقعر، وفي سورة

(١) تفسير الشعراوي، ٢٢/ ١٣٥٣١.

(٢) تفسير النابلسي، ١١/ ٣١٦.

(٣) تفسير الطبري، ٢٤/ ١٠٥-١٠٦.

(٤) التحرير والتنوير، ٩/ ٨٢٥.



الحاقّة كان الكلام فيها عن إهلاك عاد بالريح الصرصر العاتية، التي سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات، فلم تُبقِ منهم باقية، وفي الفجر جاء الكلام فيها عن قوّة عاد إرم، التي لم تشابهها قوّة أخرى بالبلاد، ومع ذلك دمرها الله تعالى^(١).

١ - قصة هود عليه السلام في سورة الذاريات:

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

أ- أي: وآية لهم ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] القبيلة المعروفة. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام^(٢).

وسُمّيت عقيماً لأنّها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقّعوا، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَتْهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرٌ نَأْمَنُ بِهِ ۖ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

ب- ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]:

أي: كالريم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوّته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممّن عصاه^(٣).

قال الأستاذ أحمد محمّد عثمان: "الريح العقيم التي لا خير فيها من الشتاء، من مطر أو لقاح شجر، فهي لا تنشئ سحاباً ولا تلقح شجراً، فإنّ الريح (المفردة) لا تفعل شيئاً من ذلك، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها".

وقد عرّف ﴿الرِّيحَ﴾ [الذاريات: ٤١] هنا لأنّ العقم في (الريح) أظهر من البرد الذي يضرّ النبات، أو الشدّة التي تعصف بالأشجار.

(١) القصص القرآني، الخالدي، ١/ ٢٢١.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٠٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٩٩.

وهذا الجنس الريح العقيم، كثير الوقوع ومعروف، ثم زاده بياناً بقوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فتميّزت بذلك عن بقيّة الرياح العقيم. ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] (جملة حالية)، والريم: التراب، أو الهشيم، أو البالي، أو الرماد، أو المنسحق، أي جعلتهم كالشيء البالي الفاني الذي لا نفع فيه بالكليّة^(١).

فهذه الريح العقيم فيها العذاب الأليم، وهي تحمل الموت والدمار، وتترك كل شيء تأتي عليه كالميت الذي تحوّل إلى فتات، والريح التي أهلكت قوم عاد هي الدّبّور، لقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا^(٢)، وَأُهْلِكْتُ عَادَ بِالدَّبَّورِ»^(٣).

٢- قصّة هود في سورة القمر:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۚ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۚ﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

أ- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ﴾ [القمر: ١٨]:

يقول تعالى ذكره: كذّبت أيضاً عاد نبيّهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما أتاهم به عن الله، كالذي كذّبت قوم نوح، وكالذي كذّبتهم معشر قريش نبيّكم محمّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى جميع رسله^(٤).

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ﴾ [القمر: ١٨]؛ يقول: فانظروا معشر كفرّة قريش بالله كيف كان عذابي إيّاهم، وعقابي لهم على إنكارهم بالله وتكذيبهم رسوله هوداً، وإنذاري بفعلي بهم ما فعلت من سلك طرائقهم، وكانوا على مثل ما كانوا عليه من التماذي في الغي

(١) معالم الصراع الإيماني في قصّة هود، ص ١٠٨.

(٢) الصبا: ريح معروفة تقابل الدّبّور.

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم ٢٩٦٦.

(٤) تفسير الطبري، ٢٧/٩٧.

والضلال^(١). والاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٨]؛ تشويق للسامعين إلى معرفة العذاب الشديد الذي حلّ بهم، فهل علمتم ما حلّ بهم من دمار؟ إن كنتم لم تعلموه فهاكم خبره، كما أنّ في الاستفهام تفخيم وتعظيم ووعيد، وفيه إجمال لحال العذاب، وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما بيّنه بعده^(٢).

- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٨]؛ تخويف وتهذيب يستدعي استرعاء الأسماع، وخشوع القلوب لمعرفة هذا العذاب الذي أنذرت منه رسل الله، دلّ عليه صيغة الاستفهام، كما أنّ فيه تحقيق لإرسال النذر، ووقوع العذاب بهم دلّ عليه الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾ [القمر: ١٨]، وفيه تهويل لهذا العذاب الذي استأصلهم، وتعريض بتهديد مشركي مكة إن ظلّوا على تكذيبهم^(٣).

ب- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]:

أرسل الله عليهم الريح لإهلاكهم. وفي إضافة الإرسال إلى (نا) الدالة على العظمة، وتوكيد هذا الإرسال بـ ﴿إِنَّا﴾ [القمر: ١٩]، وجمع ضميرهم الذي عبّر عنه بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [القمر: ١٩] للدلالة على غضب الله عليهم ونقمته في إرسال الريح لإهلاكهم، إذ اتهم الريح من فوقهم فسيطرت عليهم وأهلكتهم، كما يفيد المعنى أيضاً تنكير ﴿رِيحًا﴾ [القمر: ١٩]، ووصفها بـ ﴿صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩] للدلالة على عتوّها وتحقيقها للعذاب المحض المتمكّن منهم^(٤).

و﴿صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩]: والريح الصرصر هي الريح الباردة العنيفة التي يكون لها صوت قوي، تثير الرمال، وتحمل الحصباء بقوتها^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البيان القرآني، ص ١٨٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥) أنبياء في القرآن تركوا أثاراً، ص ٤٢.

- ﴿فِي يَوْمٍ نَخِيسُ مُسْتَمِرًّا﴾ [القمر: ١٩]: في يوم شرٍّ وشؤمٍ لهم.

- ﴿مُسْتَمِرًّا﴾ [القمر: ١٩]: في يوم شرٍّ وشؤمٍ استمرَّ بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافى بهم جهنم^(١)، وقال:

ج- ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]:

- ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ [القمر: ٢٠]؛ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ومن ثم تدفعهم بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون:

- ﴿كَأَنَّهُمْ أَشْجَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]؛ أي: كأنَّ جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعت الرية فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عَصَوْا أمره^(٢).

قال صاحب كتاب الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية الدكتور عبد الله عبد الغني سرحان: "والنخل المنقعر: هو المنقلع من أصله، أي: مُجْتَثٌّ، قُلِعَ من قعره، أو ذهب في قعر الأرض. وقعر الشيء: نهاية أسفله. فمعنى ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]: ذاهب في قعر الأرض، وأراد الله تعالى من قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَشْجَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]؛ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ اجْتَثَوْا كَمَا يُجْتَثُّ النخل الذاهب في قعر الأرض، فلم يبقَ لهم رؤوس ولا أثر"^(٣).

وفي لسان العرب: المنقعر: المنقلع من أصله، وقمرت النخلة: إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط^(٤).

وقد نحا المفسرون نحو اللغويين فلم يخرجوا عن هذا المعنى؛ يقول العلامة أبو السعود: رَوِيَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا الشَّعَابَ وَالْحَفَرَ، وَتَمَسَّكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَزَعَتَهُمُ الرِّيحُ وَصَرَعَتَهُمْ مَوْتَى:

(١) تفسير الطبري، ٢٧/ ٩٧-٩٨.

(٢) تفسير السعدي، ص ١١٨.

(٣) عمدة الحفاظ، ٣/ ٣٨٤-٣٨٥، مفردات الراغب، ص ٤٢٤.

(٤) لسان العرب، محمد مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، (قعر).



﴿كَانَهُمْ أَجْمَارٌ تَلْفُئُ مَنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]؛ أي: منقلع من مغارسه. قيل: شَبَّهُوا بأعجاز النخل، وهي: أصولها بلا فروع؛ لأنَّ الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس^(١).

وهذه الفريدة ﴿مَنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] تدلُّ على أنَّ عذاب الله عَزَّجَلَّ لهؤلاء القوم كان فريداً في شكله ونوعه، ولا نظير له في مصارع الأمم المكذَّبة، فلم يحدث في تاريخ الإنسانية الغابر حتَّى ساءت أنَّ هلك قوم بمثل مهلك قوم عاد، فكان وجه الوصف بـ ﴿مَنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، الإشارة إلى أنَّ الريح صرعتهم صرعاً تفلَّقت منه بطونهم، وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم، فصاروا جثثاً فُرُغاً^(٢)، كالنخل الذي قُمرت دواخله فصار فارغاً.

وهكذا تفرد هؤلاء القوم بذلك العذاب في تواريخ النبوة والإنسانية قاطبة، كما تفرد قوم نوح قبلهم بعذاب اختصَّوا به.

- وهنا لطيفة تُستنبط من هذا التشبيه، وهي أنَّهم شَبَّهُوا بأصول نخل منقعر، ولم يُشَبَّهُوا بشجر منقعر مثلاً؛ لأنَّ الله عَزَّجَلَّ قد زادهم في الخلق بسطة، فكانوا أطول الأمم أجساداً فناسب أن يذكر في هلاكهم أطول النباتات، وهي النخيل المنقعر، وضرب المثل بالنخل هنا كما أنَّه يتلاءم مع طول قاماتهم، فهو أَمْسُّ صلة، وأكثر التصاقاً بحياة العرب الذين نزل فيهم القرآن، فهو تصوير تقريبيٍّ لهم كي يعقلوا كيفية مقاتل هؤلاء فيردعون ويتعظون. وفيه أيضاً دلالة على أنَّ هؤلاء الذين كانوا يتعالون ويتشامخون بأنفسهم، ويغترون بأطوالهم، وقوَّة بنيانهم هم أضعف خلق الله، لأنَّ الريح حين أتت عليهم لم تُبقِ منهم باقية، كما لا يبقى للنخل المنقلع من أصله باقية، بالرغم من تمكَّنهم في الأرض حضارة وعمراناً وبنياناً، وفي هذا تحذير لفراعين العصر وكلِّ عصر، بأنَّ يسلِّط الله عليهم عذاباً يتوافق مع جبروتهم وعنادهم وطغيانهم، والله أعلم^(٣).

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة، ٨/ ١٧١، تفسير الألوسي، ١٥/ ١٩٤، فتح البيان، ٩/ ١٢٠٤.

(٢) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص ٥٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ويقول صلاح الدين الخالدي رَحِمَهُ اللهُ فِي قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]: "المشبه في الآية: قلع الريح لقوم عاد، ونزعها لهم، وقطعها لرؤوسهم.

والمشبه به في الآية: قلع الريح للنخيل، واجتثاثها له، وقطعها لرؤوسه، ووجه الشبه في الآية: القلع والقطع والانقعار.

أي أَنَّ الآية شَبَّهت قلع الريح لقوم عاد، وقطعها لرؤوسهم، ونزعها واجتثاثها لهم، وهذا أمر غير مألوف ولا معتاد عند الناس، بقلع الريح للنخل، وقطعها لرؤوسه، وقعرها واجتثاثها له، وهذا مألوف معتاد للناس.

فالتشبيه في الآية من باب تشبيه غير المألوف وغير المعتاد، وهو قعر واجتثاث قوم عاد، بالمألوف والمعتاد، وهو قعر واجتثاث الريح للنخل، أي أَنَّ غرض التشبيه في سورة القمر هو تقريب غير المعلوم بالبدية، وغير المعتاد إلى المعلوم بالبدية، والمألوف والمعتاد^(١).

د- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ٢١]: يقول، تعالى ذكره: فانظروا معشر كفار قريش، كيف كان عذابي قوم عاد، إذ كفروا برَّبِّهم، وكذبوا رسوله، فَإِنَّ ذَلِكَ سَنَّةٌ فِي أَمْثَالِهِمْ، وكيف كان إنذاري بهم من أنذرت^(٢).

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ٢١]: التخويف وهزّ الأنفس".

قال الشيخ الرَّمَانِي: لَمَّا كَانَ الْإِنْذَارُ أَنْوَاعاً؛ كَرَّرَ التَّذْكِيرَ وَالتَّنْبِيهَ. وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٢٢]؛ التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس. وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا هَلْ بَلَغْتَ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ»^(٣)،

(١) القصص القرآني، ١/ ٢٥٩.

(٢) جامع البيان، ٢٧/ ١٠٠.

(٣) رواه البخاري، رقم ٧١٧٤.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٩٦.

أ- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]:

- ﴿ثَمُودُ﴾ [الحاقة: ٤]؛ هم القبيلة المشهورة، سكّان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردّوا دعوته، وكذّبوه، وكذّبوا ما أخبر به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكّان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فكذّبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل^(١).

ب- ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِاَطَّاعِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]:

تلك كانت الصيحة العظيمة، والتي قطّعت قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجُثثهم^(٢).

ج- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]:

قويّة شديدة الهبوب، ولها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف.

- ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]؛ أي: عتت على خزائنها على قول كثير من المفسّرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحدّ كما هو الصحيح^(٣).

وبهذه الريح العاتية شديدة السرعة وشديدة البرودة، تحمل الأجسام الضّخمة، ترفعها في السماء، ثمّ ترميها بقوة على رؤوسها فتتكسر هذه الرؤوس، وتتمزّق هذه الأجسام، وتصبح هامدة لا حراك فيها ولا قوّة^(٤).

وجاء في فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عمرو الطبرانيّ من حديث ابن عباس رفعاه: «ما فتح الله على عاد من الريح إلا موضع الخاتم،

(١) تفسير السعدي، ص ١١٩٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) مع الأنبياء، د. محمّد أبو فارس، ص ٤٠٤.



فمرّت بأهل البادية، فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فرآهم الحاضرة، ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فألقته عليهم فهلكوا جميعاً^(١).

ج- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]:

إن الله أرسلها عليهم، فهي مسلطة عليهم، ومذللة لتدميرهم.

- ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]: متتالية متتابعة، لا تفتر ولا تضعف ولا تتوقف، ثمانية أيام بلياليها السبعة، أيام نحسات دائمت.

والحق سبحانه استخدم لفظة ﴿حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: أنها لم تبق منهم أحداً، مثلما نقول: حسمت الأمر، أي: أنهته على التمام.

فسمّى الحق سبحانه الريح التي سلّطها على قوم عاد حُسُومًا؛ لأنها قتلتهم وأفتتهم، فالحسم هو القطع^(٢).

وهذه الفريدة القرآنية ﴿حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]: تُرشد إلى أنّ هذه الريح كانت في جريانها، وهبوبها، وشدّتها، ومدّتها منذ خلق الله الكون إلى يوم القيامة، فهي ريح عقيم صرصر عاتية، امتدّت دون انقطاع سبع ليال وثمانية أيام، كما ذكر القرآن، وتجاوزت صفتها الرياح الشديدة المتعارف عليها بين الناس، ولا يوجد في القرآن ريح أخرى فيها تلك الصفات المدمّرة إلّا تلك الريح التي اختصّ الله بها هؤلاء المكذّبين من قوم عاد، وهذه اللفظة: ﴿حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ كلمة فريدة في القرآن الكريم لا يمكن للفظّة أخرى لها نظير في القرآن من مادّتها وصيغتها أن يستنبط منها هذه الأمور، فدّل ذلك أنّ لكل الفرائد القرآنية إحياءات، وإشارات عديدة، يلحظها كلّ متأمّل مدقّق، وهذه الإشارات هو ما يطلق عليه البلاغيّون: المعاني الثواني، أو مستتبعات التراكيب، أو ما يطلق عليه الأصوليون: فحوى الدلالة ومفهومها^(٣).

(١) فتح الباري، ٧/ ١٨٧.

(٢) تفسير الشعراوي، ٢٦/ ١٦٣٢١.

(٣) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص ٥٦.

- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]: لتتابع الأيام الثمانية، واتّصال العذاب دون انقطاع، عبّر عنه الحقّ سبحانه في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿[القمر: ١٨، ١٩].

فكأنّ الأيام الثمانية بلياليها السبع كانت يوماً واحداً، وذلك لاتّصال العذاب، لذلك قال تعالى ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]؛ فهو يوم شؤم ودمار استمرّ عليه مدّة قدرها الله حتّى أهلكهم عن آخرهم.

وقد كان فعل هذه الرياح فيهم شديد كلّ الشدّة، وقد كان من شدّتها أنها ﴿تَنَزَّعُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَجْجَارٌ تَلْخُلُ مِنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فقد كانت هذه الرياح الشديدة تنزعهم من أماكنهم وتقتلهم وترمي بهم وتصبح بمتاعهم، فكانت الرياح تقتلعهم من أصولهم، وتأخذهم من بيوتهم وترمي بهم كما تُقتلع النخلة من جذورها^(١).

وإن التعبير القرآني يرسم العاصفة المزمجرة المدمّرة المستمرّة هذه الفترة الطويلة المحدّدة بالدقّة^(٢).

د- ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُجِجُوا نَحْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]:

لفظة ﴿فَتَرَى﴾ [الحاقة: ٧] فيها من إعجاز القرآن ما فيها، وكأنّها تضع السامع لها أو القارئ لها في موقف المشاهد لما نزل بهؤلاء القوم من العذاب، وكأنّه يطّلع عليهم إطلاّع المراقب المشاهد^(٣).

فالمنظر معروض تراه، والتعبير يلجّ به على الحسّ حتّى يمتلاه.

- ﴿صَرْعَى﴾ [الحاقة: ٧]؛ مصروعين مجدلين متناثرين كأنّهم ﴿أَجْجَارٌ تَلْخُلُ﴾ [الحاقة: ٧]؛ بأصولها وجذوعها. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؛ فارغة، تأكلت أجوافها، فارتمت ساقطة على الأرض هامدة؛ إنّّه مشهد حاضر شاخص، مشهد ساكن كثيب بعد العاصفة المزمجرة المدمّرة^(٤).

(١) تفسير الشعراوي، ٢٦/ ١٦٣٢٢.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٧٨.

(٣) تفسير الشعراوي، ٢٦/ ١٦٣٢٢.

(٤) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٧٨.



- ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ [الحاقة: ٧]؛ تصوّر بدقة هيئة هؤلاء القوم بعد أن اقتلعتهم الريح الشديدة من جذورهم، وألقتهم على الأرض مهمّلين مطروحين لاحول لهم ولا قوّة، جزاء غيهم وعنادهم وعتوّهم، وهذا معنى لطيف لا يوجد في (موتى) أو (قتلى) ممّا قد يؤدي المعنى، إذ لم يهلكوا في معركة أو مشاجرة أو عن طريق الخطأ، بل هلكوا بريح صرصر عاتية، حاولوا مصارعتها فصرعتهم، وطرحتهم كأصول نخل خاوية خالية الأجواف بعدما كانوا أشدّاء أصحّاء أقوياء، يغترّون بقوّتهم وبأجسادهم الطويلة، قائلين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتًا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولو عبّر ب (قتلى)، أو (موتى) لما فهم منهما الطرح على الأرض مع الانتقام، لأنّ هذين اللفظين لا يدلّان على معنى الانتقام الشديد والعذاب المريع الفظيع أثناء الموت وما حدث لهم، فكلمة ﴿صَرْعَى﴾ [الحاقة: ٧] تبثُّ في روع السامع والقارئ رهبة العذاب وشدة الانتقام^(١).

- ﴿كَانَهُمْ أَجْنَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]: فترى قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية أيّام المتتابعة صرعى هالكين، كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف، لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد^(٢).

هـ- ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]:

وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرّر^(٣). وهنا مازال خطاب الله سبحانه موجّهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقد أطلعه الحقّ سبحانه وتعالى على مشهد هذه العاصفة المدمّرة وما فعلته بقوم عاد، فجعلتهم قتلى صرعى كأعجاز النخل المقطوعة من أصولها، المُلقة كيفما كانت.

وها أنت يا محمّد صلى الله عليه وسلّم، مطّلع على هذا المنظر الكئيب: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، فهل شاهدت أحداً منهم على قيد الحياة؟ لقد استأصلتهم ريح الصرصر العاتية وأنت عليهم أجمعين.

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص ٥٧.

(٢) تفسير الشعراوي، ٢٦ / ١٦٣٢٢.

(٣) تفسير السعدي، ص ١١٩٧.

ويقول الحق سبحانه عن عقاب وعذاب الأمم السابقة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

والركز: الصوت الخفي الذي لا تكاد تسمعه، وحين تسمع هذا السؤال لا يسعك إلا تجيب: لا أحس منهم من أحد، ولا أسمع لهم ركزاً.

فهل ترى يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعاد قوم هود من بقاء؟ فهل ترى لهم من نفس باقية؟ فلم يبق منهم أحد، ولم يبق منهم أثر، ولم يبق من نسل أولئك أحد^(١)، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقول الحق: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]^(٢).

٤- قصة هود عليه السلام في سورة الفجر:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۖ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ۖ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وإن صيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة، والالتفات، والخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتداء، ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه، ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة^(٣).

أ- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]:

ألم تر يا محمد ما حدث لهؤلاء، وهم أعلام لهم تاريخ معروف في ركب الحضارات، وكانت لهم صولة وامتداد عمراني وحضاري ملأ الدنيا، ولكن لم تعصمهم هذه الحضارة من عذاب الله، فأخذهم الله فأصبحوا أثراً بعد عين.

(١) تفسير الشعراوي، ٢٦/ ١٦٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٦/ ١٦٣٢٣.

(٣) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٠٣.

ومعنى ﴿الْأَنْتَر﴾ [الفجر: ٦]؛ يعني هذا أمر معروف للنبي وللمعاصرين لنزول هذه الآيات، وتاريخهم متداول تسير به الركبان؛ لذلك خاطبهم الله هذا الخطاب: ﴿الْأَنْتَر﴾ [الفجر: ٦]، ولو كان خبراً مطموراً لا يعرفه أحد لقالوا لم نعرف ما فعل بهم ولا علم لنا به.

فما حدث لهم من الإهلاك أمر معروف، لأنه وقع بالفعل، ويمكن الاستدلال عليه بما بقي من آثارهم.

- ﴿الْأَنْتَر﴾ [الفجر: ٦]: فسرّها العلماء بمعنى: ألم تعلم، ويعلق الشعراوي رَحْمَةُ اللَّهِ فيقول: لكن إذا كانت بمعنى ألم تعلم فلماذا عدل عنها السياق إلى ﴿الْأَنْتَر﴾ [الفجر: ٦]؟

وإن الحقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريد أن يؤكد لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأخبار، ويلفت نظره وأنظارنا أن الحقَّ إذا أخبرك بشيء فاعلم أن يقينك به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى لا يقين المستقبل لما سمع، وأن يكون إخبار الله لك أوثق مما تراه عينك، لأن رؤية العين قد تخدعك، إنما ربك لا يخدعك، لذلك كل أمر من الأمور يريد الحقَّ سبحانه أن يؤكد يقول: ﴿الْأَنْتَر﴾ [الفجر: ٦]، كما في قوله تعالى: ﴿الْأَنْتَرَأْتِ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨].

يا رب لم نر هذا السجود، ولكن إخبارك به أوثق لنا من رؤيتنا بأعيننا، إذن إخبار الله عن أمر غيبي يجب أن يرتقي لمستوى ما تراه عينك، وليس مع العين أين؟^(١).

ب- ﴿الْأَنْتَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]: أعطانا صورة حضارية لما وصلت إليه عاد من تمكين، وحضارة، وعمارة لا مثيل لها في البلاد، يعني كانت الدولة الأولى في العالم كله^(٢).

- قال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْ عَادٍ: "وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبّارين، خارجين عن طاعته، مكذّبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمّرهم، وجعلهم أحاديث وعبر،

(١) تفسير الشعراوي، ٢٧/١٧٠١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

هؤلاء هم عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق: وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون^(١).

- ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]: فما هي إرم؟ وما معنى ذات العماد؟ وكيف لم يُخلَق مثلها في البلاد؟ هناك كثير في الإسرائيليات والخرافات والأساطير عن مدينة أسطورية خيالية، سمّوها مدينة (إرم).

ومدينة (إرم ذات العماد) قالوا عنها: إنها مبنية من قصور وأعمدة، من ذهب وورخام، وإنّها متقلّة في البلدان. وهذا كلّ أساطير وخرافات، فليست هناك مدينة اسمها (إرم ذات العماد). قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "ومن زعم أنّ (إرم) مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يعول عليه، ولا مستند يُركن إليه"^(٢).

إنّ كلمة (إرم) في سورة الفجر ليست اسم مدينة كانت تسكنها عاد، وإنّما هي بدل من عاد، أو عطف بيان لعاد، وعاد هي عاد إرم. و (إرم) اسم أحد أجداد (عاد)، وسمّيت قبيلة عاد باسمه، وكان يُقال لها: عاد إرم. و(إرم) في اللغة هي الحجارة المرفوعة، قال ابن فارس في (مقاييس اللغة): "والإرم: القلم. وهي حجارة مجتمعة، كأنّها رجل قائم"^(٣).

ومعنى: ﴿بَعَادِ ۝ إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧]:

- (إرم) في الآية بدل من عاد: (بعاد) ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] مجرورة بالفتحة بدل الكسرة لأنّها ممنوعة من الصرف، للعلميّة والتأنيث^(٤).

(١) تفسير ابن كثير، ٧/ ٢٧٤.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٨٨.

(٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩ م، ١/ ٨٥.

(٤) القصص القرآني، ١/ ٢٣١.



- ﴿ذَاتِ﴾ [الفجر: ٧]: صفة لعاد - أو إرم - مجرورة. وهي مضاف، و ﴿الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] مضاف إليه^(١).

- ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

- ﴿الَّتِي﴾ [الفجر: ٨]: اسم موصول مبني، في محل جر صفة لعاد، والتقدير: غير مخلوق مثلها في البلاد.

إن الآيات تتحدّث عن عاد، التي هي عاد إرم، وعاد إرم هي ذات العماد، فكانت تسكن في بيوت من الشعر، وأعمدتها مرتفعة وسبطها، وتبني قصوراً ضخمة على قمم الجبال، وبدخلها أعمدة مرفوعة، فهي بهذا الاعتبار: عاد ذات العماد. وعاد هذه أعطاه الله قوّة، فلم يخلق مثلها في البلاد قبيلة في قوّتها وسلطانها.

فالآيات لا تتكلم عن مدينة (إرم) ذات العماد، التي لم يُخلَق ولم يُبنَ مثلها في البلاد، ولم تماثلها أيّة مدينة في البلاد. وإنّما تتحدّث عن عاد إرم، وهي عاد ذات العماد، وهي عاد التي لم يخلق الله في البلاد مثلها في القوّة والسلطان^(٢).

ج- ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]:

وادي القرى؛ نحتوا بقوّتهم الصخور فاتّخذوها مساكن. وقد قال الخازن رَحِمَهُ اللهُ: قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَتَمُودَ﴾ [الفجر: ٩]؛ أي: وفعل بتمود مثل ما فعل بعاد.

- ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ [الفجر: ٩]؛ أي: قطعوا.

- ﴿الصَّخْرَ﴾ [الفجر: ٩]؛ أي: الحجر.

- ﴿بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] يعني: بوادي القرى، وكانت ثمود أوّل من قطع الصخر ونحته، واتّخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) القصص القرآني، ١/ ٢٣٢.

(٣) تفسير السعدي، ص ١٢٥٤؛ لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٧٦.

د- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]:

ذو الجنود الذين ثبتوا ملكه كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها^(١). وهناك من قال أن الأرحح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وفرعون المُشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار^(٢).

هـ- ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ١١ ﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢]:

فلم يعب عليهم التشييد والحضارة التي لا مثيل لها، وإنما عاب عليهم طغيانهم وغرور بالتفوق المادي في الحياة، ولم يعب عليهم الرقي المادي، ولم يعب الحركة في ذاتها، إنما عاب عليهم طغيان الحركة.

ها هو الكون أمامك خذ بأسباب الرقي والتقدم ما تشاء، واستنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رخاء ونعمة ورفاهية في حدود ما أحل الله لك، لكن احذر أن تطغيك النعمة، أو الجاه، أو المال أو غيره؛ لأن الطغيان لا بد أن ينشأ عنه الفساد، والله لا يرضى بالفساد، ولا بد أن يضع له حداً حتى لا يستشري في الكون، فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر^(٣).

فهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ١١ ﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية ويفسد الذي يقع عليهم الطغيان سواء كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحيالة عن خطها السليم النظيف، المعمّر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال. إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المُستخلف.

(١) تفسير السعدي، ص ١٢٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٠٤.

(٣) تفسير الشعراوي، ٢٧/ ١٧٠٢٠.



والطغيان يعطل ملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستذل تأسن وتتغنن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة، والغرائز المريضة، وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة، والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة، والتطلع، والارتفاع، وهو فساد أيّ فساد.

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان، فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات، كما تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة ومستساغة، وهو فساد أيّ فساد، فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد.

و- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوِّطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]:

أنزل بهم يا محمد ربك عذابه، وأحلّ بهم نقمته، بما أفسدوا بالبلاد وطغوا على الله فيها، فكانت نقماً تنزل بهم، إمّا ريحاً تدمرهم، وإمّا رجفاً يدمم عليهم، وإمّا غرقاً يهلكهم من غير ضرب ولا عصا، لأنه كان من أليم عذاب القوم الذين خوطبوا بهذا القرآن، الجلد بالسياط، فكثرت استعمال القوم الخبر عن شدة العذاب الذي يُعذَّب الرجل منهم أن يقولوا: ضرب فلان حتى بالسياط، إلى أن صار ذلك مثلاً فاستعملوه في كلّ معذب بنوع من العذاب شديد، وقالوا: صبَّ عليه سوط عذاب^(١).

وقد قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "والصبّ حقيقة: إفراغ ما في الظرف، وهو هنا مستعار لحلول العذاب دفعة، وإحاطته بهم، كما يُصبّ الماء على المغتسل، أو يُصبّ المطر على الأرض، فوجه الشبه مركّب من السرعة والكثرة، ونظيره استعارة الإفراغ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ونظير الصبّ قولهم: شنّ عليهم الغارة: وكان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذاباً مفاجئاً قاضياً، فأما عاد فرأوا عارض الريح، فحسبوه عارض مطر، فما لبثوا حتى أطارتهم الريح

(١) جامع البيان، ٣٠/ ١٨٠.

كُلِّ مطير، وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة، وأما فرعون فحسبوا الريح منحسراً، فما راعهم إلا وقد أحاط بهم.

- (والسوط): آلة ضرب تُتخذ من جلود مضفورة، تُضرب بها الخيل للتأديب ولتحملها على مزيد من الجري، وعن الفراء: أن كلمة ﴿سَوَطٌ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] يقولها العرب لكلّ عذاب يدخل فيه السوط، أي: يقع بالسوط، يريد أن حقيقتها كذلك ولا يريد أنها في هذه الآية كذلك^(١).

- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَاطِدَ الْعَذَابِ﴾ [الفجر: ١٣]: وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد^(٢).

ز- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]:

- المرصاد: الطريق، وقيل: موضع الرصد، وأصل الرصد: مراقبة الشيء^(٣).

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]: تعني: أنه تعالى يعلم تحرّكاتكم ويرصدها، ومادام يرصد تحرّكاتكم فلن يترككم تخالفون منهجه، وكل حركة منكم مقدّرة ومحسوبة، إن شاء عجّل العقوبة في الدنيا كما فعل بمصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم وتحدّث عنهم هذه الآيات^(٤)، وإن شاء أخرها إلى الآخرة^(٥).

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]: للطغيان والشرّ والفساد، يرى ويحسب، ويحاسب، ويجازي، وفق ميزان دقيق لا يخطئ، ولا يظلم، ولا يأخذ بظواهر الأمور، ولكن بحقائق الأشياء^(٦).

(١) التحرير والتنوير، ١٢/٦٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/٣٩٠٤.

(٣) التدبّر والبيان، ٣٧/٣١٩.

(٤) في ظلال القرآن، ٣/٣٩٠٣، تفسير الشعراوي، ٢٧/١٧٠٢٢.

(٥) تفسير الشعراوي، ٢٧/١٧٠٢٢.

(٦) في ظلال القرآن، ٦/٣٩٠٥.

﴿ثامناً: ذكر عاد مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم﴾

جاء ذكر قوم عاد مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم من باب الاعتبار، والوقوف على الدروس والعبر، واستخلاصها، والاتعاظ بها، ومن هذه الآيات:

١ - قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

يقول الله تعالى محذراً للذين يسرون في طريق الهلكى ويتخطون هؤلاء: "ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ممن ساروا في نفس الطريق؟".

قوم نوح، وقد غمرهم الطوفان، وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب، وأصبحوا في عالم البرزخ حيث العذاب إلى يوم القيامة، وعاد وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية، وثمود وقد أخذتهم الصيحة، وقوم إبراهيم وقد أهلك طاغيته المتجبر وأنجى إبراهيم، وأصحاب مدين وقد أصابهم الرجفة وخنقتهم الظلة.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: قرى قوم لوط، وقد قطع الله دابرهم^(١).

وقلب الله بيوم قوم لوط لما دمرها قلباً، فجعل عاليها سافلها فصارت (مؤتفكات) أي: مصروفات مقلوبات.

جاء عذاب قوم لوط بما يتناسب مع جرائمهم، وشذوذهم، والعذاب والعقاب والجزاء من جنس العمل، ولقد ترك أولئك الشاذون النساء إلى الرجال، وقضوا شهواتهم عند أمثالهم من نفس الجنس، وبذلك قلبوا الحقائق والقيم، وقلبوا الفطرة والمنطق، وحولوا الرجل الذكر الذي خلقه الله ليطلب النساء ويكون فاعلاً في امرأته وفق شرع الله عز وجل، وجعلوه مطلوباً من قبل الرجال الشاذين، مفعولاً فيه مركوباً لهم، وهذا هو الإفك بعينه، وهذا هو قلب الحقائق، وهذا هو الصرف عن الفطرة إلى الشذوذ، ولذلك ناسب أن يقلب الله بيوتهم بعد أن قلبوا

(١) في ظلال القرآن مع التصريف، ٣/ ١٦٧٤.

فطرتهم ورجولتهم، فجعل عاليها سافلها، لأنهم كانوا يركبون الرجال من العالمين، والأصل أن يكون هؤلاء الرجال راكبين طالبين^(١) للنساء وفق سنة الله في الزواج بين الذكر والأنثى وعقود النكاح الشرعية.

تحدث الله في الآية الكريمة على أمم ظلمت نفسها، ومضت فيها سنة الله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٠] إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوضح، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، حيث تجرؤوا على معاصيه، وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد^(٢).

٢- قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قِبَلِكُمْ قَوْمٌ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

والمعنى: ألم يأتكم يا معشر قريش، يا أهل الشرك ويا أيها الناس عموماً خبر الأمم المكذبة من قبلكم التي حل بها من أمر الله ما حل، ونزل بهم من بلائه ما نزل، وهم قوم نوح إذ أتاهم الطوفان فأغرقهم إلا من آمن، وقوم عاد إذ أخذوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود إذ أخذتهم الصيحة الطاغية الشديدة التي أهلكتهم، وكذا أمم من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، أفناهم الله وأهلكهم وأبادهم، فهؤلاء جميعاً أرسل الله إليهم رسلاً منهم، وأيد هؤلاء الرسل بالحجج الواضحات، والدلالات الظاهرات على وحدانيته عز وجل، فما قبلوا من الرسل ذلك؛ بل كذبوهم وعاندوهم وردّوا أيديهم في أفواههم عندما أخبرتهم الرسل بوحدانية الله وبأوامره ونواهيته.

وإن لأهل العلم تفاسير في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] ومنها: أنّ أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواههم تعيظاً على الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَاوُوا عَصُوا عَلَيْكُمْ لَأْتَانِي مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. ومنها: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم ساخرين مستهزئين، كالذي يضحك ساخراً ويضع يده على فمه. ومنها: أنّ المراد أنّهم ردّوا

(١) القصص القرآني، ١/ ٥٢١.

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٢٩.

على الرسل قولهم، ورفضوا ما جاءتهم به رسلهم. ومنها: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم من الكلام^(١).

٣ - قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ٤٤ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ لَلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ ٤٥ كَانَتْ نَكِيرٌ ٤٦ فَكَائِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ٤٧ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٨﴾ [الحج: ٤٢-٤٦].

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وَإِنْ يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَلَسْتُ بِأَوَّلَ رَسُولٍ كُذِّبَ وَلِيسُوا أَوَّلَ أُمَّةٍ كُذِّبَتْ رُسُلُهَا ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ٤٤﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]، أي: قوم شعيب، ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ٤٥﴾ [الحج: ٤٤] المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم.

- ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ ٤٦﴾ [الحج: ٤٤]؛ أي: إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟!

كان أشد العقوبات وأفظع المثالات، فمنهم من أغرقهم، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا من كُتِبَ لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين من أمثال هؤلاء.

- ولهذا قال: ﴿فَكَائِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ ٤٦﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: وكم من قرية.

- ﴿أَهْلَكْنَاهَا ٤٧﴾ [الحج: ٤٥]؛ بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي.

- ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ٤٨﴾ [الحج: ٤٥]؛ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم تكن عقوبتنا لها ظلاماً.

- ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ٤٩﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: فديارهم متهدمة قصورها وجدرانها، قد سقطت على عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة.

- ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدهم عليه الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، فقد أهله وعُدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر تعب عليه أهله فشددوه ورفعوه وحصّنه وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثلاً لمن تفكّر ونظر^(١).

- ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض؛ لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٤٦] بأبدانهم وقلوبهم.

- ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] آيات الله، ويتأملون بها مواقع عبره.

- ﴿أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] أخبار الأمم الماضية، وأبناء القرون المعدّيين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن الخالي من التفكير والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ أي: هذا العمى الضارّ في الدين عمى القلب عن الحقّ حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المريّات، وأمّا عمى البصر فغايبته بلغة ومنفعة دنيويّة^(٢).

٤- قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْلًا ۖ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۖ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ آغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۖ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لُذُ الْأَمْثَلِ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٩].

تحدّث هذه الآيات الكريمة إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر، يحذّر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا قريباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عياناً، وأخبرهم عن الأقوام التي مضت فيهم سنة الله، ومن بينهم عاد وثمود.

(١) تفسير السعدي، ص ٧١١.

(٢) تفسير السعدي، ص ٧١١.

٥- وفي قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٦﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ ۖ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فصدَّهم عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَدِيقِينَ ﴿٣٨﴾ فَكَأَنَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٩﴾

[العنكبوت: ٣٦-٤٠].

أ- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣٦]:

وأرسلنا إلى مدين القبيلة المعروفة المشهورة.

- ﴿شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦]: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكايل والموازين والسعي بقطع الطرق.

- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [العنكبوت: ٣٧]: فأخذهم عذاب الله.

- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] أي: في محلهم ومسكنهم أمواتاً خامدين موتى قد هلكوا^(١).

ب- ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود وقد علمت قصصهم، وتبين لكم شيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي باتوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم^(٢).

(١) موسوعة التفسير المأثور، ١٧/٣٢٣.

(٢) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

ج- ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

وزين لهم الشيطان عملهم حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل^(١).

- ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]: الشيطان.

- ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨]: عن طريق الهدى^(٢).

د- ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

في ضلالتهم، ومعجبين بها، ويحسبون أنهم على دين حق في عبادتهم للأوثان.

هـ- ﴿وَقَرُّوْنَ وَفَرَعَوْنَ وَهَمَلَنْ ط وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]:

وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردّوه، فلم يقدروا على النجاة حين نزلت بهم العقوبة.

- ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]: الله، ولا فائتين، سلّموا واستسلموا^(٣).

- ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]: ما كانوا سابقي الله بأعمالهم الخبيثة؛ فيفوتوه هرباً.

أي: ما كانوا يسبقونا حتى لا نقدر عليهم، فنعذبهم^(٤).

و- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]:

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) موسوعة التفسير بالمأثور، ١٧/ ٣٢٣.

(٣) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٤) موسوعة التفسير بالمأثور، ١٧/ ٣٢٦.



- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]: من هؤلاء الأمم المكذبة على قدره، وبعقوبة مناسبة له.

- ﴿فَإِنَّمْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠]: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد حين أرسل الله ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] و﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَنِيَةً أَتَاهُمْ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتِجَازَخْلٍ خَاطِيَةً﴾ [الحاقة: ٧^(١)]. وكذلك قوم لوط رموا بالحجارة^(٢) من كان خارجاً من مدينتهم، وأهل السفر منهم، وخسف بمدينتهم^(٣).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠]: كشمود قوم صالح، وقوم شعيب^(٤).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] كقارون^(٥).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]: كفرعون وهامان وجنودهما، وقوم نوح^(٦).

ز- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠]:

أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق.

ح- ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]:

المراد هنا في قوله تعالى: منعوها حقها التي هي بصدده، وإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضرروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها^(٧).

(١) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٢) موسوعة التفسير المأثور، ١٧/٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ١٧/٣٢٧.

(٤) موسوعة التفسير المأثور، ١٧/٣٢٧.

(٥) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٦) موسوعة التفسير المأثور، ١٧/٣٢٩.

(٧) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

٦- قوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۖ أُولَٰئِكَ الْأَخْرَابُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة ص: ١٢-١٤]

لقد حذر الله أهل مكة، والناس أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، والذين كانوا أعظم قوة منهم، وتحزباً على الباطل.

أ- ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [سورة ص: ١٢]:

ذو الأوتاد: هم الجنود العظيمة، والقوة الهائلة.

ب- ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ [سورة ص: ١٣]:

- ﴿وَتَمُودُ﴾ [سورة ص: ١٣]: قوم صالح.

- ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ [سورة ص: ١٣] والأليكة: هم الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب.

- ﴿أُولَٰئِكَ الْأَخْرَابُ﴾ [سورة ص: ١٣]: الذين اجتمعوا بقوتهم، وعددهم، وعددهم على ردّ الحق، فلم تغن عنهم شيئاً.

- ﴿إِنْ كُلُّ﴾ [سورة ص: ١٤] من هؤلاء.

- ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ [سورة ص: ١٤] أي: فحق عليهم.

- ﴿عِقَابُ﴾ [سورة ص: ١٤] الله (١).

٧- قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْرَابِ

﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]

كان في دعوة مؤمن آل فرعون تذكيره لقومه بالأمم السابقة، وما حلّ بهم من عذاب وعقاب وهلاك عندما ابتعدوا عن التوحيد، ومنهج الله، وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، وقد استخدم حقائق التاريخ في دعوة فرعون وقومه.

أ- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]:

والمقصود في هذا: إنني أخاف أن ينزل بكم مثلما نزل بالأمم المكذبة.

ب- ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]:

الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حلّ بهم بأس الله وما رده عنهم رادّ، ولا صدّه عنهم صادّ^(١).

لقد لمس الرجل المؤمن قلوب قومه لمسة تاريخيّة، حيث ذكّره بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، فلعلّ ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم، إنّه يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذبهم الله، كما عذب قوم نوح وعاد والذين من بعدهم، وما عليهم إلّا أن يؤمنوا بالله لئلا يصيبهم ما أصابهم^(٢).

وقد استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ، ومعرفته بتاريخ النبوات في تحذيره ونصحه لقومه، وبيّن لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البينات، وأنّ الله أغرق قوم نوح، وأهلك عاداً بريح صرصر، وأهلك ثمود بالطاغية، وأنّ قوم فرعون لهم ثقافة دينيّة فذكّره بها، ثمّ إن العلم بدأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم هو الذي يفتح باب قلوبهم للآية الجليلة^(٣).

- ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وأنهم كانوا ظالمين لما رفضوا الآيات، وظلموا الناس الذين حالوا بينهم وبين الآيات، وظلموا أنفسهم^(٤).

لقد بيّن الله عزّ وجلّ على لسان مؤمن آل فرعون أنّما أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره^(٥).

(١) موسى كليم الله، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م، ص ٦٨٨.

(٢) القصص القرآني، الخالدي، ٤٩٦/٢.

(٣) موسى كليم الله، ص ٦٨٩.

(٤) من حديث يوسف وموسى، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٢٠١٠م، ص ٤٨٣.

(٥) تفسير ابن كثير، ١٣٢/٧.

وإن الآية فيها إشارة إلى سنة من سنن الله الثابتة، وإلى عدله المطلق: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] أي: لا يعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه^(١)، وهذا يعني أن تدميرهم كان عدلاً، لأنهم استحقّوه بأعمالهم، وسنة الله مطّردة في هلاك الأمم الظالمة عدلاً منه^(٢).

٨- قوله تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۖ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ

۝ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝﴾ [سورة ق: ١٢-١٤]

كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، كنوح كذبه قومه، وأصحاب الرس كذبوا نبيهم، وعاداً كذبوا هوداً، وإخوان لوط كذبوا لوطاً، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيباً، و﴿وَقَوْمُ تَبَّعٍ﴾ [سورة ق: ١٤]، و﴿تبع﴾: كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام، فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع التبابعة؛ لأنه كان -والله أعلم- مشهوراً عند العرب العرباء الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة، فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم خيراً منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم؛ فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم^(٣).

- ﴿الرَّسِّ﴾ [سورة ق: ١٢]: يطلق لفظ الرس على الشق في الأرض، والبئر القديمة، والبئر كثيرة الماء، والبئر المطوية وغير المطوية، والقبر والوادي، كما يطلق على نهر الرس بين أذربيجان وأرمينيا، ولعلهم يقصدون نهر (أراس) أو (الران)، ويطلق على وادي بنجد^(٤).

وذكر القرطبي رحمه الله: "أن من معاني الرس: الثلج المتراكم في الجبال"^(٥).

وأصحاب الرس هم من بقيّة ثمود في قول ابن عباس^(٦).

(١) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، رسالة دكتوراة، جامعة درمان، السودان، ٢٠١١م، ص ٢١١.

(٢) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص ٢١٢.

(٣) تفسير السعدي، ص ١٠٩٠.

(٤) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ١/ ١٦٤.

(٥) تفسير القرطبي، ١٣/ ٢٤.

(٦) أعلام المكان في القرآن الكريم، ص ٥٨.

وهناك من العلماء من يرى: أنَّ الرّسّ ديار واسعة سكنها هؤلاء القوم تماماً كديار الأقوام التي ورد تركيب (أصحاب الرّسّ) مصاحباً لذكرهم في القرآن الكريم، وهم قوم عاد وثمود وقوم نوح وقوم تبع، ولعلّ مكانهم كان واسعاً ممتدّاً بين اليمامة وحضرموت، فذكر من رأى من المفسرين أنّهم باليمن الجزء الجنوبي من ديارهم، وذكر من رأى أنّهم باليمامة والقصيم الجزء الشمالي من هذه الديار، ويؤيد ذلك وجود (وادي سر) في حضرموت، ووجود مدينة الرّسّ الواقعة في القصيم من أرض نجد، كما يؤيد ذكر الرّسّ والرئيس في الشعر، وذهاب الشارحين والجغرافيين إلى أنّ هذين الاسمين علما لأودية في هذه المنطقة، ويؤيد ما روي عن ابن عباس: أنّ أصحاب الرّسّ قوم من بقية ثمود التي سكنت الأحقاف ثم انتقلت إلى وادي القرى شمالاً، كما تبين من دراسة لفظ الحجر، فلفظ (الرّسّ) في الأصل يدلّ على حفرة، أو أخدود، أو بئر، أو واد، ولا يستبعد أن تسمّى القرية باسم بئر فيها، ولا أن تسمّى الديار باسم الوادي أو الرّسّ فيها^(١).

وقد ذكر علماء التفسير أقوالاً كثيرة في تفسير (أصحاب الرّسّ)، ولعل منها: "أنّ الرّسّ: بئر قُتل فيها صاحب ياسين، ومنهم من قال: أنّهم قوم رُسّوا نبّهم في بئر، ومن قال: كانوا بحجر، بناحية اليمامة، على آبار"^(٢).

٩- قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١] تفسير الآيات الكريمة:

أ- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]:

يُذكر الله عزَّ وجلَّ بأنّه وحده لا شريك له هو الذي أهلك قبيلة عاد الأولى، ويعنى تعالى ذكره بعاد الأولى: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وإياهم عنى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧].

ثم قال: وإتّما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى؛ لأنّ بني لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيد بن ضدّ بن عاد الأكبر؛ كانوا أيام أرسل الله على عاد الأكبر عذابه سكّاناً بمكة مع إخوانهم من

(١) المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالماثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمع، بيروت، لبنان، ٢٠/٤٦٨.

العمالقة، وكَدَ عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة، ثم هلكوا بعد ذلك هذا، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أنه أطلق على عاد (عاد الأولى) لكونها من أوائل الأمم، والله أعلم^(١).

يقول الدكتور صلاح الخالدي رَحِمَهُ اللهُ: ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى وجود قبيلتين، كل واحدة حملت اسم عاد، فهناك عاد الأولى، وهناك عاد الثانية.

وقالوا: عاد الأولى: هي التي وجدت بعد قوم نوح مباشرة، وبعث الله لها هوداً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبيّاً، وقصص علينا قصته في القرآن، وهؤلاء أهلكهم الله بالصيحة.

وعاد الثانية: وهي قبيلة ناشئة من عاد الأولى، وبينهما عشرات السنين، وكانت هذه القبيلة بعد إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبههم رجل آخر غير (هود)، لم يذكر القرآن اسمه، فلما كذبوه أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً^(٢).

واستدل هؤلاء على قولهم بدليلين من القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١].

وهي عاد التي كانت تسكن في (الأحقاف) والتي نبهها هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثاني: إخبار القرآن عن عذابين وقعا لعاد: عذاب الصيحة، وعذاب بالريح الصرصر العاتية.

فعاد الأولى: أهلكها الله بالصيحة، ولهذا قال عن هذا الإهلاك في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۖ﴾ ١٠ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غِثَاءً ۖ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [المؤمنون: ٤٠، ٤١].

وعاد الثانية: أهلكها الله بالريح، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَوْا يَرِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتِخَزَوا فِي حَوَاقٍ ۚ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، ١/ ٤٣١.

(٢) قصص الأنبياء، الإمام ابن كثير مع هذا الرأي، ص ٩٩-١٠٢.



ولكننا نرى أنّها (عاد) واحدة، وهي التي خلقها الله بعد نوح، وكانت تسكن (الأحقاف)، وجعلها أقوى قبيلة في البلاد، وبعث لها هوداً نبياً، فلمّا كفرت به أهلكها الله بالصيحة التي كانت مقدّمها الصيحة.

إنّ قوله: ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠] لا يلزم منه وجود عاد الثانية وكلمة ﴿الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠].

في الآية لا يراد بها الأولى العدديّة التاريخيّة الزمانيّة، حيث جاء بعدها في التاريخ الثانية والثالثة.

إنّ ﴿الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠] في الآية تعني: الأولى في الدرجة والمنزلة والمستوى والمرتبة، أولى بجانبها ما هو أقلّ منها في المستوى والمرتبة.

أي: أنّها الأولى في القوّة والسلطان، في الزمن الذي وجدت فيه، فلم توجد قبيلة أخرى تماثلها أو تساويها في القوّة.

ثمّ هي عاد الأولى في الوجود في المرحلة الثانية من تاريخ البشرية، هذه المرحلة التي بدأت بعد الطوفان، فهي أوّل قبيلة كافرة بعد الطوفان أخبر عنها القرآن.

وأيضاً هي الأولى في الإهلاك، فهي أوّل قبيلة أهلكها بعد الطوفان.

هذه الأولى لعاد بهذا الاعتبار، لا يستلزم منها وجود عاد أخرى ثانية بعدها، والله أعلم.

أمّا الهلاك، فنرى أنّ كلّ الآيات في قصّة هود أهلكهم الله بالصيحة، وبالريح الصرصر العاتية.

وكان هلاك عاد على مرحلتين:

المرحلة الأولى: الصيحة التي فوجئوا بها.

والمرحلة الثانية: الريح الصرصر التي سخّرها الله عليهم فأبادهم^(١).

(١) القصص القرآني، ١/ ٢٣٥.

ب- ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ [٥١] وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَعَشَّيْهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي ءِلَآءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ [النجم: ٥١-٥٥].

- ﴿وَتَمُودًا﴾ [النجم: ٥١]: قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها، وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى.

- ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ [النجم: ٥١]: منهم أحداً، بل أبادهم عن آخرهم.

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢]: من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم.

- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ [النجم: ٥٣]: هم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ [النجم: ٥٣]: ويبدو أَنَّ مَادَّةَ (أَفَك) تعني: السقوط، والقلب، والتغيير، في كثير من اللغات السامية كالعبرية، والأكدية، والآرامية، وغيرها.

وهي في اللغة العربية ذات أصل دلالي واحد هو: قلب الشيء وصرفه عن وجهه الذي ينبغي أن يكون عليه^(٢).

وقد وردت مَادَّةَ (أَفَك) في القرآن في صيغ اسمية وفعلية مختلفة، وكلها توحى بالشر، والقلب، والكذب، وأمَّا لفظ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ [النجم: ٥٣] فقد ورد في موضع واحد في سورة مكية في هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] وعمم بعض المفسرين الدلالة، لتشمل كل ما انقلبت مساكنه، ودرثت أماكنه، وخصَّصها جمهورهم بديار قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَام التي كانت عدَّة قرى.

(١) تفسر السعدي، ص ١١٤.

(٢) أعلام المكان في القرآن الكريم، ص ٣٢.



وحكى ابن عطية اتفاق المفسرين على أنّ المؤتفكة: قرية قوم لوط^(١)، ورأى بعضهم أنّ المؤتفكة: هي سدوم التي كانت أمّ قراهم^(٢).

وإن السياق يوحي بصحّة ما ذهب إليه الجمهور، إذ عرض القرآن قصص أقوام عاد وثمود وقوم نوح، قبل ذكر المؤتفكة؛ ممّا يدلّ على أنّها مكان غير أماكن هؤلاء الأقوام، وهذا المكان خسفه الله عزّ وجلّ، وزلزل بأهله الأرض^(٣).

- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]: المنقلبة حين أهوى بها جبريل الأرض، فاقتلعها بجناحه^(٤).

- ﴿أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، وقلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فَغَشَّيْهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٤]؛ أي: غشيتها من العذاب الأليم الوخيم ما غشي، أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه^(٥).

- ﴿فَبَآئٍ آلَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٥]؛ أي: فبأيّ نعم الله وفضله تشكّ أيها الإنسان، فإنّ نعم الله ظاهرة لا تقبل الشكّ بوجه من الوجوه؛ فما من نعمة إلّا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلّا هو^(٦).



(١) الدرّ المنثور، السيوطي، ١٧٢/٦.

(٢) أعلام المكان في القرآن الكريم، ص ٣٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) موسوعة التفسير المأثور، ٧٦٦/٥.

(٥) تفسير السعدي، ص ١١٤.

(٦) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثالث

أسباب هلاك قوم هود، وصفات هود عَلَيْهِ السَّلَام، ووفاته



إن هلاك الأقوام الذين ضرب الله بهم المثل في القرآن الكريم، من أسبابه ضلالهم وتكبرهم، وتصديهم لدعوة الله تعالى بالإعراض والجحود والكفر والعناد، وإرتكاب المعاصي، وقد لاقوا العذاب، والويل في دنياهم، وسينالون أشد العقاب في عالم الحياة الآخرة، ومن بينهم قوم هود.

﴿أولاً: أسباب هلاك الكافرين من قوم هود عَلَيْهِ السَّلَام﴾

إنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الثانية، والتي بدأت من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم انحرفت عن التوحيد، وإفراد الخالق العظيم بالعبودية، وتطوّرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادّية، وضعفت، وأخطأت السبيل في قيمها الروحية، ومعرفتھا بخالقها العظيم، فأرسل الله عَزَّجَلَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأقام على الكافرين والظالمين، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم، وآمن معه القليل الذي أنشأ بهم حضارة جديدة، وإنَّ من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية التي نشأت على يدي قوم عاد عوامل عديدة، من أهمّها:

١ - الكفر بالله عَزَّجَلَّ:

إنَّ من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك الحضارة التي أنشأتها قبيلة عاد: الكفر بالله، وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، وقد سُمِّي الكافر كافراً لأنّه غطّى بالكفر ما يجب أن يكون عليه من الإيمان، والكفر ضدّ الإيمان، وهو التصديق، والاعتقاد، والإقرار بوحداية الله وبربوبيّته وألوهيّته، والإيمان بالملائكة، وشريعة الله، ورسالة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليوم الآخر، وبقضاء الله خيرَه وشرّه.

وقد رفض قوم عاد دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَام للتوحيد ورسالات الله، وكفروا بها وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

إنَّ وصف قوم عاد بالكفر يعني أنَّهم في تلك الفترة التاريخية من تاريخ الإنسانية كانوا منفصلين عن الدين، ومتحررين من تكاليف الإيمان بالله، وشرعه، وهذا يُفضي إلى انحلال الأخلاق، وانحطاطها. وهذا ما حصل من الشقاء والتعاسة التي كان يعيشها قوم عاد جزاءً بعدهم عن هدايات السماء، وإنَّ الجنوح المادي الذي طالما تميّزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أيَّ إيمان بالغيب أو المثل العليا، لا يُمثّل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشامل، بل على العكس فإنَّ هذا الجنوح يُمثّل نقصاً كبيراً، وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاليها، وشرائينها بالتعاسة والشقاء^(١).

ومهما يكن من أمر فإنَّ الحضارة، أيّة حضارة، محكومة بالسنن الإلهية، وهذه السنن في المجال الحضاري على نوعين:

- سنن جزئية تتعلق بعالم الشهادة، وهي سنن تعطي كلّ من يوظّفها على قدر سعيه، ولا تفرّق بين مؤمن وكافر.

- سنن كُليّة حاكمة على هذه السنن الجزئية، وهي سنّة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وهي التي تُحدّد مصير الحضارات، نمواً وسقوطاً، وتعتبر جميع عوامل سقوط الحضارات تبعاً لهذا العامل، أي غياب الإيمان بالله وحده^(٢).

(١) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة ومقارنة، عبد الله محمد الأمين، ص ١٠٣.

(٢) قصّة السنن الإلهية، وفاء محمد سعيد، ص ١٦٩.

فقوم عاد مضت فيهم سنة الله، بأسباب عديدة منها: الكفر بالله عَزَّجَلَّ، فوقع عليهم عذاب الله عَزَّجَلَّ بالريح الصرصر العاتية، وبالصيحة القاضية التي تعتبر من العقوبات العظيمة التي وقعت في تاريخ الإنسانية، وخلد الله ذكرها في القرآن العظيم، قال تعالى ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]، فهذه عبارتهم صريحة بالكفر بما جاء به هود عَلَيْهِ السَّلَام.

٢- الشرك بالله:

من المعلوم أنَّ التوحيد هو الأصل في حياة الإنسان، وهو الذي صنع الحضارة من بداية خلق الله لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَام، ولكن في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى وفي عهد قوم نوح فشا فيهم الشرك، وظهرت أسباب الهلاك، وحدث الطوفان العظيم، ونجا نوح عَلَيْهِ السَّلَام والذين آمنوا معه، وانطلقوا بالحضارة الإنسانية الثانية القائمة على التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وأول انحراف بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَام ما وقع فيه قوم عاد من الشرك، وقد بينا في هذا الكتاب محاورة هود عَلَيْهِ السَّلَام لقومه، واستعماله كافة أساليب الإقناع في سبيل دعوة التوحيد ونبذ الشرك، ومضى يدعوهم إلى الله عَزَّجَلَّ ولكنهم رفضوا وأصبحوا أول المشركين بعد الطوفان العظيم، وكانوا متوغلين في الشرك، راسخين في العناد، وسجل عليهم القرآن الكريم موقفهم النهائي من الشرك وعبادة الأصنام بعد المواعظ البليغة والنصائح الغالية التي بذلها هود عَلَيْهِ السَّلَام، وردوا عليه بقولهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وفي موقف من مواقف الثقة بالله والتوكل عليه بين لهم هود عَلَيْهِ السَّلَام عجز أصنامهم وضعفها عندما قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

فتحداهم جميعاً هم وأصنامهم التي زعموا أنَّها آلهة تنفع وتضر، وتحدهم أن يسعوا في الكيد له والإضرار به ما أمكنهم ذلك، فلو كانت تلك الأصنام آلهة حقاً لانتقامت منه وأهلكته بما سنَّع عليها وذمَّها، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ من دُونِهِ.

فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآئَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

ولم تفعل أصنامهم شيئاً وأنّى لها ذلك؟ وهي جمادات لا إدراك لديها فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضرر، والقوم بعد هذه الحجج وهذا التحدي لم يُقارعوا الحجّة بالحجّة، والبرهان بالبرهان، بل أعلنوا تبرؤهم من الحجج العقلية، والفطرية، والمنطقية التي يأتي بها هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأغلقوا باب المحاورّة والمجادلة، وطلبوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّهًا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].
إنّه عناد ما بعده عناد، وكلّ ذلك من أجل أصنام صنعوها بأيديهم، وسمّوها آلهة بغير سلطان أتاهاهم^(١).

وفي النهاية قضى الله تعالى بهلاك المشركين، وهي سنة فيمن أشرك به وحادّ رسوله، وانهدت أركان شرك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية.

٣- الظلم:

يعدّ الظلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض، يؤدّي إلى فقدان التوازن في كافّة مجالات الحياة، وعلاقة الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره، وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية، واجتماعية، واقتصادية مَرَضِيَّة، وتصورات فاسدة عن الوجود كلّ، فيعمّ الفساد الحياة الإنسانية بأسرها^(٢)، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وكَذٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

(١) أسباب هلاك الأمم السابقة، سعيد محمد، ص ١٢٨.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات، محمد هيثور، ص ٢٣.



وقد وصف الله عَزَّجَلَّ قوم عاد بالظلم في القرآن الكريم مع مجموعة من الأقوام الهالكة: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

إنَّ قوم عاد استفحل فيهم الظلم وأصبح ظاهرة على مستوى المجتمع، وارتكبه بكل أنواعه، واستمروا على ذلك إلى أن نزل بهم العقاب الربَّاني، قال تعالى: ﴿وَكُذِّبْنَا مِنْ قَوْمِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

وإنَّ الإهلاك بسبب الظلم سُنة من سُنن الله في سقوط الحضارة الإنسانية كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب مدين، والمؤتفكات، وإبادة مدينتها المتخلفة عن نور الوحي، وإزالة سلطان المَلَأ الذي يُمثل القيادة السياسية، والاجتماعية، والفكرية في تلك الحضارات الفانية من تاريخ البشر.

٤- الإِجْرَام:

شبيه بالظلم، يعمُّ الشرك وغيره من المعاصي، والشرك أشنع أنواع الإِجْرَام وأشنع، فالمشرك أجرم في حقِّ ربِّه لأنَّه جعل من لا يستحقُّ العبادة معبوداً مع من لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه، وأجرم في حقِّ نفسه فأذلَّها لغير الله، وأوردها موارد الردى في الدنيا، وأحلَّها دار البوار في الأخرى، وقد ذكر الفيروز آبادي سِتَّة معاني في الجُرم، فجعل الشرك أولها، فقال ما نصَّه في كلامه على معاني الجرم: "الأول: الجرم بمعنى الشرك، والمجرم: المشرك"^(١). وقال تعالى في هلاك من هلك من الأمم الغابرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

فتلك العاقبة السيئة لم يصيروا إليها إلا بسبب اتِّصافهم بصفة الإِجْرَام، ومن أشنع أنواعه الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٢/ ٢٥٥.

الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، فكان الانتقام منهم بسبب إجرامهم في حق خالقهم بالشرك، وفي حق رسلهم بالكذب والمخالفة^(١).

وقد وصف الله عَزَّجَلَّ قوم عاد بالإجرام في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحاف: ٢٥] أي: بسبب جرمهم وظلمهم^(٢).

٥- تكذيب الرسول الكريم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وردت آيات كثيرة تدلّ على أنّ تكذيب الرُّسل كان سبباً في هلاك الأمم السابقة، وهذه الآيات واضحة الدلالة وصریحة في العلاقة بين تكذيب الرسل، وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار^(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

وهذه الآيات ونظائرها وردت في سياق تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّا يُلاقيه من قومه بالتكذيب والإعراض، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْصُصُ عَلَى نَبِيِّهِ قِصَصَ الْمَكْذِبِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وما واجهوا به رُسلهم من التكذيب، وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيف عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّا يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذّبه هؤلاء الكفرة، فهو ليس بدعاً من الرسل في التكذيب، بل كُذِّبَ قبله رسل، وفيه إنذار وتحذير للمكذّبين من قومه من أن يكون مصيرهم كمصير أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعاجل العذاب^(٤).

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١١٤.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٠٥٧.

(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٩٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ومن نظائر هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿﴾ [سورة ص: ١٢-١٤]، قال ابن كثير: "فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسول".

- ومنها قول الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿﴾ [سورة ق: ١٢-١٤].

وهذه الآيات كما ترى تتحدث عن هلاك الأمم بسبب ما أقدموا عليه من تكذيب رسلهم، وهناك صنف آخر من الآيات تدل على المعنى ذاته، غير أنها تتحدث عن مسلك أمة معينة في تكذيب رسولها وهلاكها بسبب ذلك.

وتكذيب الرسل: هو نسبتهم إلى الكذب أو إلى ما يقتضي ذلك من صور التكذيب، وهو من أكبر الجرائم وأعظم الشنائع التي ارتكبتها الأمم السابقة واستحقوا بها الهلاك^(١)، ومن بينها أمة عاد، فقد كان هود عَلَيْهِ السَّلَام في عهده أصدق الناس لهجة، وأنقاهم سريرة، وأكرمهم خلقاً وأمانة، فاختره الله لرسالته وأيده بالوحي الإلهي والآيات والدلائل، وما اختاره الله لرسالته إلا لعلمه بأهليته لها وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته^(٢).

وإنه عظم جرم قوم عاد في تكذيب نبي الله هود ما نزل بهم العقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ نَزِغُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَشْجَارُ تَلْخُلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿﴾ [القمر: ١٨-٢١].

فقد كانوا على شاكلة قوم نوح في التكذيب والإعراض، كذبوا نبيهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَام، وأصرّوا على تكذيبه والإعراض عن دعوتهم حتى أهلكهم الله، وقد ورد ذكر تكذيبهم أيضاً في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ووردت هذه الآية في مستهل

(١) نوح والطوفان العظيم، ص ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

قَصَّتْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ، ثُمَّ خَتَمَتِ الْقِصَّةَ هُنَاكَ بِإِعَادَةِ ذِكْرِ تَكْذِيبِهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْمَوَاعِظِ الْبَالِغَةِ وَالنِّصَائِحِ الْخَالِصَةِ الَّتِي أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ طَمَعًا فِي اسْتِجَابَتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي خَاتِمَةِ أَمْرِهِمْ أَعْتَى مِنْهُمْ فِي أَوَّلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَ كَنْهَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

٦- إِيْذَاءُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْوَاعِ الْإِيْذَاءِ:

وَقَدْ وَرَدَ بَعْضُ تَفَاصِيلِ قَوْمِ هُودٍ وَطَرِيقَتِهِمْ فِي الْإِيْذَاءِ فِي ثَنَائِهَا الْمَحَاوِرَاتِ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَدِّهِمْ عَلَى دَعْوَتِهِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا)، رَمَوْهُ بِأَنَّهُ وَاقِعٌ فِي سَفَاهَةٍ وَأَنَّهُ فِي عِدَادِ الْكَاذِبِينَ فِي ظَنِّهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وَإِنَّهُ لِأَمْرٍ عَجَبٍ أَنْ يُسَفَّهُ هَؤُلَاءُ نَبِيَّهُمْ هُودًا وَهُمْ الْجَدِيدُونَ بِالسُّفْهِ الْمَتَّصِفُونَ بِهِ حَقِيقَةً، قَالَ ابْنُ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقَدْ انْقَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْحَقِيقَةُ، وَاسْتَحْكَمَ عَمَاهُمْ، حَيْثُ ذَمُّوا نَبِيَّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا هُمْ مَتَّصِفُونَ بِهِ، وَهُوَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ، فَإِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ حَقًّا، الْكَاذِبُونَ، وَأَيُّ سَفْهِ أَعْظَمَ مِمَّنْ قَابِلٌ أَحَقَّ الْحَقِّ بِالرَّدِّ وَالْإِنْكَارِ، وَتَكَبَّرَ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْمُرْشِدِينَ وَالنَّصِيحَاءِ، وَانْقَادَ قَلْبُهُ وَقَالِبَهُ لِكُلِّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ، وَوَضَعَ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَعَبَدَ مَنْ لَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا، مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ، وَأَيُّ كَذِبٍ أَبْلَغَ مِنْ كَذِبٍ مِنْ نَسَبَ هَذِهِ الْأُمُورَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى" (١).

وَقَدْ رَمَوْا هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ السُّفْهِ وَهُوَ الْجُنُونُ، إِذْ ادَّعَوْا أَنَّ آلِهَتَهُمْ أَصَابَتْهُ بِالْجُنُونِ مِنْ جَرَّاءِ تَعَرُّضِهِ لَهَا وَنَهْيِهِ عَنْ عِبَادَتِهَا، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ رَأْيُ هَؤُلَاءِ فِي هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُمْ أَنْ يُقَابِلُوا دَعْوَتَهُ بِمُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ، إِذْ ذَاكَ سَبِيلٌ مِنْ يُرِيدُ الْوَصُولَ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ، وَيُرَى ادِّعَاءُ خَصْمِهِ جَدِيرًا بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُجَادَلَةِ، أَمَّا هَؤُلَاءُ فَلِعِنَادِهِمْ، وَتَعَتُّبِهِمْ عَدُّوا دَعْوَةَ هُودٍ مِنْ قَبِيلِ كَلَامِ السُّفَهَاءِ وَالْمُجَانِينِ، فَلَمْ يَكْتَرِثُوا بِالْحُجَجِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَأَثَّرُوا بِمَا ذَكَرَهُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ

(١) تفسير السعدي، ص ٣٥٧.

التي أنعمها عليهم، وكان مصيرهم كمصير أسلافهم المستهزئين من قوم نوح، دمرهم الله عن آخرهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر^(١).

٧- استعجال العذاب ودعاؤه على قومه:

من أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم هود استعجالهم العذاب، فقوم هود عندما يسوا من مناجزة الحجة بالحجة أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا، وأبوا الإذعان للبرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الحوار والجدال إلى التحدي، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

إنه العجز يلبس ثوب القوة والضعف، ويرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق، ويأخذ شكل الاستهانة والتحدي: ﴿قَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]؛ وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا، فلسنا نصدقك، ولسنا نبالي وعيدك^(٢).

وعندما يؤس هود عَلَيْهِ السَّلَام من صلاحهم واستجابتهم لدعوته، ورأى أنه لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة من فعال ومقال، دعا عليهم غضباً لله عَزَّوَجَلَّ، فلبى الله دعوته وأجاب طلبه^(٣).

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ٣٩ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ ٤٠ ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١].

٨- الجدل بالباطل:

قال تعالى: ﴿مَا يُجِدِلُ فِيْ ءَايَاتِ اللّٰهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ ٥ ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤، ٥].

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٢٢٢.

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الشيخ، ٣٤٢/٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

أ- ﴿مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]:

هم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يَشُدُّون، وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون، وهم بالقياس إلى هذا الوجود أصغر وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض، وهم حين يقفون في صفٍّ يجادلون في آيات الله، ويقف الوجود الهائل كله في صفٍّ معترفاً بخالق الوجود مستنداً إلى قوَّة العزيز الجبار، هم في هذا الموقف مقطوع بمصيرهم، مقضي في أمرهم مهما تبلغ قوتهم، ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان^(١).

ب- ﴿فَلَا يَعْزُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ [غافر: ٤]:

مهما تقلَّبوا وتحركوا وملكوا واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة إن كانت ثمة معركة يُمكن أن تقوم بين الموجود وخالقه، وبين قوَّة هؤلاء الضعاف المساكين، ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم، تُوحى عاقبتهم بعاقبة كلٍّ من يقف في وجه القوَّة الطاحنة العارمة التي يتعرَّض لها من يعرِّض نفسه لبأس الله.

ج- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٥]:

ليسوا أول من كذب حتَّى يجهلوا عاقبة تكذيبهم وما يجرُّه عليهم هذا التكذيب، فهي قصَّة قديمة من عهد نوح، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كلِّ زمان، وهذه الآية تصوِّر هذه القصَّة، قصَّة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال، كما تصوِّر العاقبة في كلِّ حال^(٢).

د- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]:

من قوم نوح والأحزاب، ومن بعدهم بتدبير وإعداد الوسائل، وأنواع المكر ضدَّ رسولهم، ليقبضوا عليه، ويمنعوه من متابعة الدعوة بالسجن، والقيد، أو القتل، أو بالإخراج من البلاد والطرْد.

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٦٩.

(٢) المصدر السابق، ٥/ ٣٠٧٠.

هـ- ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]:

أي: ليُوهموا بباطلهم الممّوه المزخرف أنّ الحقّ الذي جاء به الرُّسل هو باطل، وليُزلقوا الحقّ في مزالق الشُّبهات والتلبيسات التي يصطنعونها، فيزيلوه عن مواقع ثباته في أفهام المؤمنين به.

و- ﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]:

فأخذتهم أخذ إهلاك، وكان إهلاكاً بوسائل مختلفة، فكيف كان العقاب لهم على تكذيبهم رُسل ربهم، ومجادلتهم بالباطل لدحض الحقّ؟

وهذا الاستفهام هو الحال التي كان عليها العقاب، لأنّ لفظة ﴿فَكَيْفَ﴾ [غافر: ٥] يُستفهم بها عن الحال، فقد كان بالظواهر الكونيّة، كالطُّوفان، وإغراق البحر، وانقلاب الأرض، وجعل عاليها سافلها، والصيحة، والريح العاتية إلى غير ذلك، وقد كان انتقاماً عادلاً لأمم كفرت كفراً إرادياً، وظلّت مصرّة على العناد ورفض الحقّ، رغم الإمهال الطويل لهم، وكان عبرة وعِظة لمن وراءهم^(١).

٩- الترف:

إن من أسباب العقاب الإلهيّ الترف، والترف هو أن يسترخي الإنسان في إرادته، وعزيمته، وصبره فيكون كلّ شيء فيه مسترخياً، فإرادته مسترخية، وعزيمته لا قوّة فيها، ونفسه غير منضبطة، والشهوات حاکمة، والأهواء جامحة^(٢).

والمترفون في كلّ أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، فينعمون بالراحة وبالسيادة حتّى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدّسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والمحرمات. وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم، عاثوا في الأرض فساداً ونشروا الفاحشة في الأمّة وأشاعوها،

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَام وقومه في القرآن المجيد، حنّكة الميداني، ص ١٥٢.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٥٢؛ معلمة السنن الإلهية في القرآن، مجموعة من الباحثين، ص ١٤.

وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلّا بها ولها، ومن ثمّ تتحلّل الأمة وتسترخي وتفقد حيويّتها وعناصر قوّتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها^(١).

وتشير الآيات القرآنيّة الواردة في شأن المترفين أنّهم أوّل من يقف في وجوه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ويسارع إلى تكذيبهم، نقرأ ذلك في قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

ولا عجب أن يكون المترّفون أوّل المعترضين، فإنّ انغماسهم في الشهوات يحملهم على رفض الحقّ؛ وفي دعوة الأنبياء ما يهدّد مصالحهم ويجرّدهم من امتيازاتهم التي اكتسبوها ظلماً وعدواناً^(٢).

وإن هؤلاء قوم عاد قالوا لهود عليه السلام كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [٣١] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰثِرُونَ ﴿٣٤﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٤].

فقد جمع الملاء من قوم عاد الشرّ كلّه، الكفر، وكفى به إثمًا، وإنكار اليوم الآخر، والترّف، وتكذيب نبيّهم^(٣). وقال الطبري رحمه الله في تفسيره: "﴿وَأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]: نعمناهم في حياتهم الدنيا بما وسّعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من رزق حتّى بطروا وعتوا على ربّهم وكفروا"^(٤).

فمن أسباب العقاب الإلهيّ الترف، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [١١٦] وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ وَيُظْهِرَ أَهْلَهَا مُضِلِّحُونَ ﴿١١٧﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].^(٥)

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢١٧.

(٢) معلمة السنن الإلهية في القرآن، مجموعة من الباحثين، ص ٢٦.

(٣) معلمة السنن الإلهية في القرآن، ص ٢٧.

(٤) تفسير الطبري، ١٧/ ٣٩-٤٠.

(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص ٢٧٣.

فالظالمون وهم الأكثرون اتَّبَعُوا نعيم الدنيا ولذاتها إيثاراً لها على عمل الآخرة وما يُنجيهم من عذاب الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فإذا أراد الله عَزَّجَلَّ إهلاك أمة فإنه يأمر هؤلاء الذين أترفوا بالطاعة فيفسقون فيها، ويبقون على ترفهم، ويبقون على معاصيهم، ومخالفتهم لأمره سبحانه، فيحق عليهم وعيد الله الذي أوعد من كفر به وخالف رسله من الهلاك والدمار، فيخربها سبحانه تخريباً، ويهلك من كان فيها إهلاكاً، وإن المترفين هم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة^(١).

وقد أخبرنا الله عَزَّجَلَّ عن كثرة القرى الظالمة التي كان أهلها مترفين، فاستحقَّت عقاب الله عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٢ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

١٠ - البطر:

من الجرائم التي تُعاقب عليها الأمم: البطر، والبطر: هو الطغيان، والإشراك، وكفر النعم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فُتِلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوم عاد ظهر فيهم الاعتداء على الناس، فقد كانوا قوماً أعطاهم الله قوّة ومنعة، قال تعالى في ذكر ما أنعمه عليهم على لسان نبيه هود عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]،

وإن البسطة: هي الكمال في الطول والعرض، أي: زادكم في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح، وفي قوتكم على قوتهم نعمة منه بذلك عليهم^(٢)، ولكن هؤلاء استخدموا

(١) أسباب هلاك الأمم السابقة، ص ٣٦٦.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٨٠.

هذه القوة في الطغيان على الناس والتعدي عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وهذا وصف لهم بالقوة والغلبة والجبروت^(١).

والآية تحكي دأب هؤلاء وهو البطش بالناس قتلاً بالسيف، أو ضرباً بالسوط، تعدياً، وتجبراً، وطغياناً، وبطراً، وتفاخراً، وقد اعتادوا البطر وكفران النعم، ولم يستخدموا نعم الله في طاعته بل في معصيته.

إنَّ النعمة وسيلة لأداء رسالة الإنسان في الأرض، فيجب أن تكون سُلماً للخير، فمن شكر الله تعالى عليها زاده منها، ومن لم يفعل ذلك؛ بل جعلها وسيلة للشر والبطر بها، فإنَّ العذاب سينزل به^(٢). فالأُمم إنما يهلكها بطرها، واستكبارها، وغفلتها عن الحق، واستغراقها في شهواتها الدنيوية دون تدبّر وتروٍّ^(٣)، وهذا من أسباب هلاكها.

١١ - الاستكبار:

من أسباب هلاك قوم عاد: الاستكبار، والكبر والتكبر والاستكبار: اشتقاق من مادة (كبر) وهي متقاربة في المعنى^(٤). فالكبر الصقناه بالخلق الباطني، وهو: خلق في النفس دالاً على الاسترواح^(٥)، والركون إلى رتبة فوق المتكبر عليه^(٦)، فمتى اتّصف المرء بهذا الخلق يُقال في نفسه كبر^(٧)، فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كان تكبراً واستكباراً^(٨). وقد بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة الكبر المتوَعَّد عليه بالعقاب فقال: «الكبر بطر الحق^(٩)، وغمط الناس»^(١٠).

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٥٤.

(٢) سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم، بكار محمود، ص ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص ٤٢١.

(٥) الاسترواح: التشمم، لسان العرب، ٣/ ١٧٦٥.

(٦) في إحياء علوم الدين، ٣/ ٣٦٣.

(٧) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٥٧.

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) بطر الحق: رده ودفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً.

(١٠) غمط الناس: احتقارهم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبَيَانِهِ، رقم ١٣١.

وصفة الاستكبار الذميمة كانت شائعة في قوم هود عَلَيْهِ السَّلَام، وكانوا قومًا مستكبرين متجاوزين الحد في الكبر؛ ووصفهم بهذه الصفة رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: ١٥].

ويلاحظ هنا أنه ذكر أن استكبارهم كان بغير حق لأنهم نازعوا فيما لا ينبغي، فالكبر مما اختص به جل وعلا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»^(١).

وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: ١٥] حال لازمة لعاملها، إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير الحق، فيكون قوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: ١٥] زيادة بيان للمعنى الذي دل عليه لفظ الاستكبار^(٢)، فهي زيادة تشنيع لاستكبارهم، وقد وصف الله أيضاً عاداً عامتهم بالاستكبار، وفي موضع آخر ذمهم باتباع المستكبرين المتجبرين، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]؛ يعني كل مستكبر على الله، حائد عن الحق، لا يذعن له، ولا يقبله^(٣).

فالاستكبار كان صفة للقادة والأتباع^(٤)، ومن أراد التوسع في مفهوم الاستكبار فليراجع كتاب مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم^(٥). وقد تكبر قوم عاد على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بالترفع عن عبادته وعن الإذعان لأوامره ونواهيه، وعلى هود عَلَيْهِ السَّلَام وأتباعه، ولذلك مضت فيهم سنة الله في إهلاك أهل الاستكبار.

إن الكبر خلق ذميم، وكبيرة من كبائر الذنوب، وبسببه شقي كثير من الناس، وأوبقوا أنفسهم في العاجلة، واستحققوا العذاب في الآخرة، والنصوص الواردة في ذمه وبيان

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٥٨. الحديث: رواه أبو داود في سننه، باب ما جاء في الكبر، رقم ٣٥٦٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٦٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٥) مصطفى أو عيشة، دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي: مفهوم الاستكبار والاستضعاف.

خطورته، وما أعدّ الله لصاحبه كثيرة لا تُحصى، منها قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).

وهذان النّصّان في الوعيد الأخروي، وأمّا في العاجلة فيكفي في بيان عاقبة صاحب الكبر ما ورد من النّصوص الدّالة على كونه سبباً في هلاك كثير من الأمم السّالفة، وأشدّ آثار الكبر ضرراً لصاحبه أنّه يمنعه من اتّباع الحقّ والانقياد له بعد معرفته، فيُحرّم الهداية، وينقاد للباطل بسبب كبره وعناده، ولذلك كان كفر أغلب الأمم بسبب الآباء والاستكبار، فهم عرفوا صدق الرّسل، وأنّ ما جاؤوا به حقّ، ولكنهم لم يؤمنوا بهم تكبراً واستنكافاً أن يتبعوا بشراً مثلهم^(٢).

١٢ - الخطايا والذنوب:

من أكبر أسباب العقاب الإلهي لقوم عاد وقووعهم في المعاصي، وارتكابهم الذنوب والخطايا. والذنوب والخطايا تعمّ جميع ما ذكرت من أسباب هلاك الأمم السابقة وغيرها، كالكفر والشرك، والظلم، والإجرام، والاستكبار، والبطر، والإيذاء، والشتّم لنبئهم وتكذيبه، لأنّ كلّ مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمّعت الخطايا والذنوب على أمة فإنّ هذه الأمة تُعاقب ويحلّ بها الهلاك^(٣).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

إنّ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم^(٤)، ومن أسباب زوال الحضارات الإنسانيّة وهلاكها قديماً وحديثاً، وإنّ الذنوب التي كانت سبباً في هلاك قوم عاد نجد أنّها قد عادت مرّة أخرى

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحرّيم الكبر وبيّانه، رقم ١٣٣.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٦٢.

(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الشيخ، ٢/ ٣٣٧.

(٤) تفسير المنار، ٧/ ٣٠٨-٣٠٩.

للظهور، مع ارتكاب الفواحش والمعاصي علناً، وبخس الناس حقوقهم ما أكثره!، وطغيان المفسدين ما أعظمه!^(١).

وإنَّ سَنَةَ اللَّهِ هذه تراها تتكرَّر اليوم أماننا، فوبال الأعمال السيِّئة التي ذاقته الأمم السالفة قد حاق بالأمم الغريبة، وذلك أنَّه قد أنذرت هذه الأمم بكلِّ وجه من الإنذار، فأفات الحرب العالميَّة، ومشكلات الاعتقاد، وازدياد التعطيل، وانتشار الأمراض الفتَّاكة، وتبدَّد النظام العائلي، كلُّ أولئك آيات بيِّنات لو تأمَّلوها لعلموا أنَّ كلَّ ذلك ثمرة ظلمهم وعتوِّهم، وأتباعهم للشهوات، وإعراضهم عن الحقِّ^(٢).

١٣ - التكذيب بالبعث والنشور:

عدم الإيمان بالبعث والنشور من أسباب هلاك الأمم، وزوالها، ونزول عقاب الله بها، لأنَّ ذلك يجعلهم يرتكبون المعاصي والذنوب، والفواحش، والكبائر، ويقعون في العناد والظلم والجحود، والاستكبار.

فالإيمان بالبعث بعد الموت، وما يعقبه من الحساب بعد من مسائل الأصول التي نازع فيها المكذِّبون رسلهم، فقد استبعدوا وأحالوا أن يُحيي الله الأموات بعد تحلُّلها ومصيرها تراباً وعظاماً، وترتَّب على استبعادهم للبعث والنشور إنكارهم لما بعده من الحساب والجزاء، والنعيم والعذاب.

والإيمان بهذه الأمور من أعظم البواعث على امتثال أوامر الله سُبحَّانَهُ وتعالى، واجتناب نواهيه، ولهذا نجد هوداً عَلَيْهِ السَّلَام بعدما استهلَّ دعوته بالتوحيد وإفراد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ونهى عن الشرك، خوَّف قومه من عذاب يوم عظيم، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥].

(١) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ص ٢١. وانظر: على مفترق الطرق، محمد أسد، ص ٤٨، وفي: الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت، ص ١١٧.

(٢) نحن والحضارة، المودودي، ص ٨١.

وقال تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

واليوم المذكور في الآيات السابقة يحتمل أن يكون يوم نزول العذاب المستأصل في الدنيا، ويحتمل أن يكون القيامة^(١)، ولا مانع من حمله على الإثنين ليكون التخويف من عذاب الدنيا بالهلاك، ومن عذاب الآخرة بالنار، والله أعلم^(٢).

وقد ورد في القرآن الكريم تذكير بعض الرسل قومهم بالبعث والنشور ليوم الحساب بأسلوب لا احتمال فيه، ومن ذلك ما ورد على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

- ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقد ورد تكذيب قوم عاد بالبعث في موضع ذكروا فيه مع ثمود وهو قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

والقارعة: اسم من أسماء يوم القيامة^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۖ إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]؛ أي: هذا الذي نحن عليه هو عادة الأولين قبلنا ودأبهم، وكانوا يموتون ولا يُبعثون ولا يحاسبون^(٤).

وفي سورة المؤمنون جاء تكذيب قوم عاد للبعث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۚ آخِرِينَ ۖ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۚ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

(٤) المحرر الوجيز، ٤/ ٢٣٩، تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٧٩.

مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِيَائَكُمْ إِذَا قُلْتُمْ إِذَا مِثْرُكُمْ إِذَا مِثْرُكُمْ تَرَابًا
وَعَظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٤﴾ * هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٨].

والآيات الكريمة تتحدث عن عاد قوم هود لأنهم الذين أتوا بعد قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام، ويدل
على ذلك قوله لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وكذلك ورود قصّتهم عقب قصّة قوم نوح في سورة الأعراف، وهود، والشعراء،
والقمر^(١).

وهذا الموضع في سورة المؤمنون أكثر تفصيلاً من غيره فيما يتعلق بذكر مجادلة المكذّبين
بالبعث من الأمم الهالكة^(٢).

إنّ عدم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء كان دافعاً للمستكبرين، والظالمين،
والمجرمين، للوقوع في أنواع المعاصي والذنوب ممّا ساهم في نزول غضب الله وسخطه
على قوم عاد.

١٤ - الفساد:

إنّ قوم عاد وصفهم الله بالفساد في سياق ذكر قوم صالح وفرعون، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكُوا كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ٦-١٢]. فذكر الله تعالى:
﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ١١، ١٢]:

فذكرت الآيات الكريمة قوم عاد الذين طغوا واشتهروا بالفساد العقدي، والأخلاقي،
والاجتماعي، والسياسي، والديني، وتمثّل ذلك الفساد في (الملا) وفي عموم الشعب،

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

وإن كانت القيادة للملأ الذين قادوا قوم عاد للفساد بأنواعه، فمضت فيهم سنة الله في نزول العذاب والعقاب الإلهي.

١٥ - الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة:

اشتغل قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور الدنيا، وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل، وغاب عنهم الاستعداد ليوم الرحيل، وتناولوا على أهل الإيمان، ووقعوا في سنة الاستدراج الرباني، فكثرت أموالهم وأولادهم، وأبترتهم النعم الكثيرة، وتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] يُصَوِّرُ الأرزاق، والخيرات، والمتاع، والسلطان، متدفقاً كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا حواجز ولا كد ولا حتى محاولة، إنه مشهد عجيب، برسم حالة في حركة، على طريقة التصوير القرآني العجيب.

- ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤]: وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها، بلا شكر ولا ذكر، وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر النعم، ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلّها، عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدّل^(١).

- ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]: فكان أخذه على غرة وهم في سهوة وسكرة، فإذا هم حائرون منقطعون الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، وإذا هم مُهلكون بجهالتهم حتى آخر واحد فيهم.

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ١٠٩٠.



- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ دابر القوم: هو آخر واحد منهم يدبرهم، أي: يجيء على أدبارهم، فإذا قُطِعَ هذا فأولئك أولى، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥] تعني: الذين أشركوا، والشرك من أنواع الظلم، وهو أعظمها.

- ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]: تعقيب على استئصال الظالمين بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين، وهل يُحمد الله على نعمة أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو على رحمة أجل من رحمته بعباده بهذا التطهير؟

لقد أخذ الله تعالى قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة، والإغريق، والرومان، وغيرهم بهذه السُّنة، ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ذلك السُّرُّ المُغَيَّب من القدر الظاهر في سُنَّتِهِ، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف^(١).

١٦ - سُنَّةُ الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ولقد مضت سُنَّةُ الله في الاجتماع البشريّ أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين، يقومون بعمارة الأرض، ذلك أنّ ذهاب أمة وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً وصدفة، ولكنه سُنَّةُ الله في الأمم والدول، لتتجدّد خلايا الإنسانية، وتتداول الحياة الحضارية بين البشر، ليستمرّ العالم قائماً على عقيدة سليمة وأسس صحيحة صالحة للبقاء^(٢).

وإنّ الحضارات كما أنّ لها سُنن قيام وسقوط، فلها سنن تجدد وانبعاث واستبدال، وقد تحدّث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاريّ، وهذا ما حدث لقوم هود حيث تجمّعت فيهم أسباب الهلاك، فمضت سُنَّةُ الله فيهم بالاستئصال، ولكي تستأنف الإنسانية رسالتها استبدلهم بهود عَلَيْهِ السَّلَام والذين آمنوا معه، وكان هود عَلَيْهِ السَّلَام ومن آمن معه تميّزوا بتوحيد الله، وبمنظومة سلوكيّة أخلاقيّة ربّانيّة متمسّكين بالحقّ وصابرين عليه، وأجرى الله قدره عليهم، ومكّن لهم في الأرض وجمع الله فيهم شروط التمكين وأسبابه.

(١) المصدر السابق، ١٠٩١/٢.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٧٣.

١٧ - سَنَةُ الْأَجَلِ الْجَمَاعِيِّ:

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

جعل الله لكل فرد أجلاً تنتهي به حياته الدنيا، وجعل سبحانه للأمم والحضارات آجالاً تنتهي إليها، وتسقط في نهايتها، ويسدل الستار عليها، وكذلك لحركة التاريخي الجماعي للأمم سنن كثيرة دقيقة تسير عليها، قدرها الحكيم العليم، لا تُقَصَّر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدودة، وأحداثها مقدرة مكتوبة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤].^(١)

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محدّدة في علم الله كجزء من نظام كونّي متماسك ووقت مقاييس زمنيّة قد تبدو للإنسان، ذي القدرات النسيّة المحدّدة، طويلة، ونظراً إلى أنّ إرادة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه شاءت أن تُمدّ في هذه الأجيال كي تمنح لكل قوم أو أمة أن تُكفّر عن ظلمها وطغيانها، وأن تسعى الالتزام الطريق العادل المستقيم، ونظراً لهذا وذاك يتصوّر البعض أنّهم بمنأى عن عقاب الله تعالى، وأنّه لا تدهور ولا سقوط، ﴿يَعْمَلُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ويتطرّف البعض الآخر فيستعجل المصير قبل تحقّقه على سبيل التحدي والاستفزاز، ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، إلّا أنّ أولئك وهؤلاء لم يدركوا أنّ كتابهم لم يبلغ أجله وأنّه إذا جاء فليس أمامهم إلّا أن يعانقوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أي: لكل قوم ميقات لانقضاء مدّتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقلّ مدّة من الزمن، ولا يتقدّمون بالقدر نفسه، لأنّ الله قضى بذلك منذ حين.^(٢)

(١) السنن الإلهيّة في الخلق، عبد الحميد طهماز، ص ٣٥.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٣٠٢.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٥﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ﴾ [الحجر: ٤، ٥].

بيّنت الآية أنّ كلّ القرى الهالكة كان لها أجل مقدّر في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحجة على أهلها بتقدّم النذر، وفرص الإمهال، وسنن الاستدراج^(١)، وتبقى سنة الله ثابتة، وهي أنّ هلاك الأمم مرهون بأجلها، فالهلاك الذي قدره الله لها مرتّب على سلوكها وأعمالها، وعلى اعتقادها وتصوّرها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يغترّ المكذّبين تخلف بأس الله عنهم فترة من الوقت، ومن عدل الله أن يذوق كلّ واحد جزاء عمله وتصرفه، وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المقدّر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقيّة خير عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتنتهي إلى مصيرها^(٢).

وما من أمة عرفت الحياة ثمّ تمرّدت على الحقّ، وتولّت عن العدل إلاّ والله مُهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدّر في الكتاب المسطور، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَأَخَذْنَاهُ مَهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وهذا ما حدث لقوم عاد، وذلك حيث بعث الله لهم رسولاً لهدايتهم، فردّوا دعوته كبراً وعناداً، وأعرضوا عنها جحوداً، وطلبوا منه تعجيل العذاب، وكذبوا، وجحدوا، وظلموا، وبطروا، وأترفوا، فوقع عليهم العقاب الإلهي بسبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق سنة الله ﴿وَإِكُلُّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤] فعلم الله لا يتبدّل، وسنته لا تتحوّل، وهي جارية وحاكمة وفق مشيئته، وإرادته، وعلمه، وحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٨ - سنة الهلاك:

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قضى بجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، لكن جرت سنة بالفصل بين أهل الحقّ وأهل الباطل في الدنيا لحكمة ربّانية عليا، وذلك بإهلاك الظالمين وإنجاء

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

المؤمنين في الصراع الدائر بين الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأعدائهم، وفي هذا الصراع دارت الدائرة وفق سنة الله على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله بالطوفان، ومنهم من أرسل عليه الريح العقيم، ومنهم من أخدمته الصيحة، ومنهم من أخذته الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مُسخوا فغدوا قردة وخنازير، على أن الهلاك الذي حلّ بأولئك الظالمين، إنما هو خزي لهم في الدنيا ونصرة للمؤمنين، وعبرة لمن يجيء بعدهم من الأمم ليتّعظوا بمصائر الغابرين، ويتعدوا عن سُبل الشياطين التي كانت سبباً في إهلاك القرون الخالية المحاذة لله ورسوله.

وقد ورد لفظ (الهلاك) في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة حسب موقعه في السياق، كالموت مطلقاً، والفساد، وافتقاد الشيء، والعذاب^(١). والمعنى الأخير هو الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم، وله صلة بموضوعنا.

أمّا الهلاك في الاصطلاح القرآني فهو: ما يُنزله الله تعالى بأعدائه الكفرة من العذاب المستأصل، وقد ورد هذا كثيراً في قصص القرآن الكريم عن تاريخ الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادة الصراط المستقيم، وجحدت أوامر الله عَزَّجَلَّ، وأذت رسله وأنبياءه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وإن قوم عاد أول الأمم الهالكة بعد قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٩ - سنة الخسران:

تحققت سنة الخسران في قوم عاد، قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣]. وإن من سنة الله أن الكافرين لا يُفلحون، وأنهم خاسرون، وهي سنة نافذة لا تتخلف^(٢).

(١) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمغاني، ص ٤٧٧.

(٢) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٨٣.

فكُلَّ ما كان يُرى على قوم عاد من نعمة، ومتاع، وقوّة، وسلطان عند الملأ، ولم يكن ذلك فلاحاً في ميزان القيم الحقيقيّة، وإنّما كان استدراجاً انتهى بالويل والخسران والطوفان العظيم. ولقد خسر قوم عاد الإدراك والبصيرة، فضاعوا في صحارى الشبهات، وبحار الشهوات، ووديان الضلال، ومضت سنّة الخسران: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

٢٠ - الغفلة عن أسباب الهلاك:

إن من أسباب هلاك قوم عاد ومضيّ سنّة الله فيهم: غفلتهم عن أسباب الهلاك، فلم ينتبهوا إلى خطورتها بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع. إنّ القرآن الكريم في قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَام وجه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم وهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد وزوال الحضارات.

«ثانياً: أهم صفات وخصائص هود عَلَيْهِ السَّلَام ووفاته»

كان هود عَلَيْهِ السَّلَام من الأنبياء المرسلين الذين حقّقوا التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته، وربّى الناس الذين آمنوا برسالته على أخلاق وصفات حميدة كانت متجسّدة في شخصه الكريم: كالإخلاص، والصبر، والتقوى، وحسن العبادة، وكان مستغفراً لله، ومتوكلاً عليه وعالمًا بحقائق الوجود، ناصحاً لقومه، وأميناً في رسالته وكان نبياً رسولاً^(١).

١ - تعريف الرُّسل وصفاتهم:

الرسول في اللغة: مشتق من الإرسال، وهو التوجيه، فالرسول الذي يُتابع أخبار الذي بعثه، آخذاً من قوله جاءت الإبل رسلاً، أي: متتابعة، وسُمّي الرسول رسولاً لأنّه ذو رسالة.

(١) إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، د. عقيل حسن عقيل، ص ١٣٣ إلى ١٦٥؛ صفات الأنبياء من قصص القرآن، الدكتور عقيل حسن، ص ١٧ إلى ٥٥؛ دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، عامر محمود القيسي، ص ٧٤.

والرسول: اسم من أرسلت، وكذلك الرسالة، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

واسم النبي: فعيل من النبا مهموزاً، وأصله النبيء ترك الهمزة تخفيفاً، وهو بمعنى مُفْعِل ومُفْعِل فهو مُنْبِئ ومُنْبَأ، مُنْبِئ أي: مُخْبِرٌ من الله، قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وقال: ﴿نَبِئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

فالنبي هو الذي يُخبر من الله، وهو الذي يُخبر الناس، أي: يُبلِّغهم أمر الله ونهيه ووحيه، وقد يكون لفظ (النبي) من التنبؤ غير مهموز، وهو الرفعة والمكانة.

أ- تعريف الرسول اصطلاحاً:

والرسول في الاصطلاح: هو رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي وأمره بتبليغه. وهذا التعريف يشمل الأنبياء أيضاً، لأنّ لفظي النبي والرسول إذا اجتماعا افترقا، وإذا افترقا اجتماعاً^(١).

ب- هل يُنبأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟:

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبؤون إلّا في سنّ الأربعين لكنّ هذا الغالب، ليس دائماً، لأنّ قوم إبراهيم عليه السلام قالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِزْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ومعنى (الفتى): صغير السن.

وقال الله تعالى في شأن سيّدنا يحيى بن زكريّا (عليهما السلام): ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْخُبْرَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. والحكم هو النبوة، وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة^(٢).

ج- الرسالة اصطفاً:

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، للقرضاوي، ٨/ ٣٦٨.

(٢) المصدر السابق، ٨/ ٣٧٢.

إن الرسالة منحة إلهية يختص بها من يشاء من عباده، وفضلاً منه، ونعمة، وليست الرسالة درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنّما هي اصطفاء واختيار للرسل من بين سائر الناس. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

د- الرسول يوحى إليه:

إنّ أخص ما يميّز الرسول عن سائر البشر هو أنّه يوحى إليه من الله عزّ وجلّ، فالرسول لا يصدر فيما يُبلّغه إلى الناس عن نفسه ورأيه، وإنّما يتلقّى ذلك بوحى من الله عزّ وجلّ. قال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

والوحي لغة: الإعلام في سرعة وخفاء. واصطلاحاً: إعلام من الله لنبيه بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيد الرسول العمل اليقيني القاطع بما أعلمه الله به^(١).

هـ- طريق البشر:

إنّ البشر يحصلون علمهم بطريق الحواس أو العقل، أمّا علم الأنبياء تنقسم إلى أنواع ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الأوّل: أن يلقي الله سبحانه المعنى في قلب النبي مباشرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

ويكون ذلك في اليقظة والمنام وله صور عدّة:

- إلقاء الله معنى يفيضه على قلب رسوله في حالة اليقظة يستيقن معه أنّه من عند الله عزّ وجلّ، بحيث لا يجد فيه شكاً، ولا يستطيع له دفعاً ويُسمّى هذا النوع من الوحي (النفث في

(١) المصدر السابق، ٨/ ٣٧٣.

الرُّوع)، والرُّوع: القلب وفي الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الْطَلَبِ»^(١).

وروح القدس: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونفث في رُوعِي: أي ألقى الوحي في قلبي.

- ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمر الله إِيَّاهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ»^(٢).

والنوع الثاني: ما يكون مكالمة بين الله تعالى وبين رُسُلِهِ، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

والنوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وذلك أشهر أنواع الوحي، ويسميه العلماء: الوحي الجليّ ووحي القرآن كلّهُ من هذا النوع، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٩٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ^(١٩٧) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ^(١٩٨) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^(١٩٩) [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد، رقم ٣٥٤٧٣، وقال الحافظ في المطالب العلية، (٩٢٧)، فيه انقطاع.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، رقم ٤٥٧٢، ومسلم كتاب الإيمان، رقم ٢٣١.

٢- الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول هما لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرقان من وجه، ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجماء الغفير، أنّ كلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً^(١).

وإنّ الراجح في الفرق بين النبيّ والرسول، هو أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأمر بتبليغه، والنبيّ من أمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل، كحال أنبياء بني إسرائيل الذين كُلِّفوا بتبليغ شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَام والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً لم يكن له في التشريع السابق، كما في حال عيسى عَلَيْهِ السَّلَام فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٣- أهمّ صفات الرسل ومنهم هود عَلَيْهِ السَّلَام:

إنّ الرسل هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحق، ودعوتهم إلى الخير. وإنّ هداية البشر مهمّة عظيمة، لا يصلح لها إلّا من توفّرت فيهم صفات رفيعة من الكمالات الإنسانيّة، فالرسول رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه، فهو مصطفى، وموحي إليه، ومُبلّغ عن الله ومن أهمّ صفاتهم المتعلقة بالرسالة:

أ- الصدق:

فالرسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، وقد قال تعالى: على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. والرسالة لا يصلح لها كذاب والرسل مُبلّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. فيستحيل على النبيّ الكذب، وذلك بنقل وحي الله تعالى إلى

(١) الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى، ٢٥١، تفسير القرطبي، ١٢/ ٨٠.

الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرّب شكّ الناس إلى الوحي الذي ينقله إليهم^(١). ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وهود عليه السلام ردّ على قومه لما اتهموه بالسفاهة والكذب، وقال لهم: ﴿قَالَ يَفْقَهُمْ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

ب- الفطنة:

الفطنة: هي أن يكون الرسول ذكياً عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحجّة، شديد الرأي، ليس غيباً ولا بليداً، لأنّ الرسول يُربي أمّته، ويجادل خصومه، وقيم البراهين على صحّة ما جاء به^(٢).

وإذا نظرنا في قصّة هود عليه السلام ومناظرته لقومه، وجدنا صفة الفطنة ظاهرة في تبشيره وإنذاره، وحسن جداله، وقدرته على إقامة الحجّة العقلية، والدليل الفطريّ.

ج- التبليغ:

لا بد لهذا الصادق الفطن أن يُبلّغ ما أوحى إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، فقد قام هود عليه السلام بتبليغ الرسالة حقّ التبليغ.

د- العصمة:

وهي حفظ الله تعالى رُسله من المعاصي والذنوب، ليكونوا أسوة حسنة للناس، ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والردائل التي تنافي تكليفهم بهداية البشر، وتنفّر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد.

وإن معنى العصمة: أنّهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرّماً، ولا يقتربون ما يتنافى مع الخلق الكريم، فأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم دائرة بين الواجب والمندوب، فهم معصومون

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق، ٨/ ٣٧٩.



عن الكبائر وعن المنفّرات، ورسّل الله (صلوات الله وسلامه عليهم) معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان والغفلة، ومعصومون عن الزيادة فيه أو إخفاء بعضه. وهم معصومون أيضاً من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدلّ على خَسَاسِيَةِ الطبع، صيانة لعلو مكانتهم^(١).

هـ- مكارم الأخلاق:

إن الرسل متّصفون بأرفع الكمالات الإنسانيّة، ويتحلّون بأسمى الأخلاق الفاضلة، مثل الكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فالرسالة لا يصلح لها بخيل، ولا حقود، ولا حسود، وإنّما يصلح لها من اتّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلّى بالأخلاق الفاضلة، وإنّما خصّ الله رسله بهذه الصفات ليصحّ الاقتداء بهم، ولو لم يكونوا متميّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لمّا كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعف ثقة الناس بهم ولضاعت الحكمة من رسالتهم^(٢).

و- الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنفّرة:

وكما يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم ممّا تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفراً أو مُقْعِداً عن تبليغ رسالتهم، كالجدري، والجذام، والبرص، والصرع. أمّا الحمّى، فإنّها قد تصيبهم؛ لأنّها لا تمنعهم من أداء رسالتهم، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمرض، وتصدّع رأسه، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود: دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيديّ، وقلت: يا رسول الله إنّك توعك وعكاً شديداً، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجل، كما يوعك رجال منكم»^(٣).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٣٨١-٣٨٢. وللتوسع: العصمة في عقيدة أهل السنة، منصور بن رشد التميمي، ص ١٥؛ دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص ٢٥٠؛ العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، ص ٤٤-٤٦.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٣٩٠.

(٣) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب وَضَعَ الْيَدَ عَلَى الْمَرِيضِ، رقم ٥٢٢٨.

وما يُحكي عن سيدنا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنه اشتد به المرض، وصار الدود يخرج من بدنه، كذب وافتراء وتشويهات إسرائيلية يتنزه منصب النبوة عنها^(١).

٤ - الإيمان بالأنبياء والمرسلين:

الإيمان بأنبياء الله ورُسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنهم بلغوا ما أنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حق جهاده.

قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَذِبٌ ۚ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ومن السنة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقاءه ورسله وتؤمن بالبعث»^(٢).

وإن الإيمان بأنبياء الله تعالى ورُسله لا يتم حتى يؤمن العبد بهم جميعاً من غير حصر، من قصصهم الله علينا، ومن لم يقصص، فقد أخبرنا جلَّ وعَلا أن هناك أنبياء لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۝﴾ [غافر: ٧٨]. فتؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن الله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، وتؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إذ إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائماً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدت الفرائض وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات^(٣).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٣٩١.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ رقم ٤٨.

(٣) مجموع الفتاوى، ٧/ ٣١٣.

ومن أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع، لأنَّ كلَّ رسول يصدِّق الآخر ويقول: إنَّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن عصاه فقد عصى مَنْ أُمِر بطاعته^(١).

٥- عدد الرسل:

أرسل الله سبحانه رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، وقد قصَّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

والآيات القرآنيَّة تشير إلى أنَّ الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. أي: متتابعين، ودلَّت الآية على أنَّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تتابعوا واحداً تلو الآخر، ممَّا يدلُّ على كثرتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، و(وكم): هنا خبريَّة، معناها التكرير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة. وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريَّا، ويحيى بن زكريَّا، وعيسى، ومحمَّد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد (صلَّى الله عليهم أجمعين)، وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بها حجة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس ويضيعوا أوقاتهم بها.

(١) المصدر السابق، ١٩ / ١٨٠.

وقد اختلف في ذي القرنين، وتُبع، والخضر هل هم أنبياء أم لا؟

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبي من الأنبياء وكذلك تُبع، والأولى أن يتوقف في إثبات النبوة لهما، لما صحّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «ما أدري تُبع أنبياء أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياء كان أم لا»^(١).

وأما الخضر فقد رجّح الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ نبي، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أي: أَنَّهُ قد أوحى إليه فيه^(٢).

٦- التفاضل بين الأنبياء والرسل:

وقد أخبر القرآن الكريم أنّ الله فَضَّلَ بعض الرسل على بعض، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها الله لنبيه أو لأمته أو لرسالته.

وأفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ إنه جمع كلّ ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين وسيدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها وأتمته خير أمة أخرجت للناس، ودينه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ واختلف في ترتيب الثلاثة الباقيين بعدهما^(٣).

٧- أولو العزم من الرسل:

العزم: القوّة في الدين، والإمامة في الصّبر، والتقوى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

(١) رواه الحاكم في الإيمان، (أما حديث معمر) رقم ١٠٣، وصحّحه على شرط الشيخين.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٤٠٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

والراجح أن أولي العزم من الرسل خمسة وهم: نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَام. وقد خصَّهم الله بالذكر في كتابه في بعض المواضع: - كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

- وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي الآيتين دليل على أن هؤلاء هؤلاء الخمسة هم أولو العزم؛ لأن الله تعالى ذكر الأنبياء ثم عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاص على العام يفيد أن للخاص زيادة في الفضل.

وخطب الله تعالى نبيه محمداً بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أما سبب تسميتهم بذلك، فلما تميزوا به من الهمة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوة في الحق. قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: "ذوو الحزم والصبر"، وقال الضحاك: "ذوو الجِدِّ والصبر"^(١).

وقد أثنى الله على أولي العزم من الرسل لما فيهم من جميل الخلال، وعظم الصفات، كما قال تعالى عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة: هي كمال المحبة.

وقال عن نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].
 وخطب خاتم رسله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
 وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
 كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]^(١).

٨- حكمة إرسال الرسل عامة:

إن من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، هو أنَّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليبلغوهم ما
 يحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات
 الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلًا
 مبشرين ومنذرين!

فالرسل بُعثوا يُهَدِّبُونَ العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد،
 ويُحرّرونهم من رِقِّ عبودية المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم
 وسيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء.

ولو ترك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهليّة جهلاء،
 وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القويّ
 فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا فاقتضت حكمته جَلَّ وَعَلَا ألاّ يخلق
 عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: ٣٦].

ومن رحمته جَلَّ وَعَلَا بهم، أن منّ عليهم فبعث رُسُلًا مبشرين ومنذرين يتلون عليهم آيات
 ربّهم، ويعلمونهم ما يصلحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن
 كانوا من قبل لفي ضلال مبين^(٢).

أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، ٨/ ٤٠٤.

(٢) نوح والطوفان العظيم، ص ٨١.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ۝ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

ج- رفع الاختلاف ورد الناس إلى أصول يتفقون عليها:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

د- إقامة القسط بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهدف الرسل والرسالات السماوية كلها: إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين بعضهم البعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حق على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد، أو أن تطغى المعاني الروحية على المعاني المادية، أو المادية على الروحية، إنه التوازن، إنه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً: ﴿لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]. لا طغيان، ولا إفسار، ولا تطفيف، ولا إفراط، ولا تفریط^(١).

هـ- الأسوة الحسنة:

إِنَّ مِهْمَةَ الرِّسْلِ (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك، وتطبيق ليقّتي الناس بهم.

- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ

اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه أهمّ المهمّات التي يقوم بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هداية الناس إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الباطل والشرّ، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦] (١).

٩- وظائف الرسل:

إِنَّ للرسل (عليهم الصلاة والسلام) غايات عظيمة، ووظائف كبرى، وأهدافاً سامية، أجمل بعضها في النقاط التالية:

- تبليغ الشريعة الربّانية إلى الناس.

- تبين ما أنزل من الدين.

- دلالة الأمم على الخير، وتبشيرهم بالثواب المعدّ لهم، وتحذيرهم من الشرّ، وإنذارهم بالعقاب الرباني.

- إصلاح الناس بالقدوة الطيّبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.

- إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.

- شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة قد بلغوهم البلاغ المبين.

(١) المصدر السابق نفسه.

فهذه بعض وظائف المرسلين التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنَّهم يُبلَّغون عن ربِّ العالمين، فسبحان من خصَّهم بهذه الرتبة العلية، ومنحهم هذه الوظيفة السنية، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عبادِه، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية^(١)، ويمكن التوسُّع في وظائف الرسل بالرجوع إلى كتابي (نوح عَلَيْهِ السَّلَام والطوفان العظيم).

١٠ - أمور تفرَّد بها الأنبياء:

أ- الوحي:

خصَّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِيدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يقتضي عدَّة أمور، يقارفون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيب، يقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك الإسراء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العُلا، ورؤيته الملائكة والأنبياء، وإطلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعدِّين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: «لَوْلَا أَنَّ لَا تَدَافَتُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢).

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

ومما اختصَّهم الله به أنَّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الإسراء: «والنبي نائمة عينه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»^(٣).

(١) النبوت، ابن تيمية، ٢٨/١-٢٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٥١١٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنام عينه ولا ينام قلبه، رقم ٣٣٠٥.

وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يُقال من قبل الرأي، كما يقول ابن حجر^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تنام عيني ولا ينام قلبي»^(٢).

ج- الأنبياء لا يورثون:

مما اختصَّ الله به الأنبياء أنهم لا يورثون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا نُورِثُ مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

والحكمة من ذلك: أَنَّ الله تعالى صان الأنبياء عن أن يورثوا ديناً، ولئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدر في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم^(٤).

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوة والملك، وليس المراد وراثته المالك، لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليُخصَّ بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في (الصحيح) من غير وجه، عن جماعة من الصحابة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا نُورِثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»^(٥).

وفي لفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»، فأخبر الصادق المصدوق أَنَّ الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاييج، لا يخصصون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم^(٦).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، ليس المراد به إرث المال، إنما إرث العلم والنبوة، وفي الحديث: «وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»^(٧).

(١) فتح الباري، ٦/ ٦٧٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، رقم ٣٣٠٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، باب حُكْمِ الْفَيْءِ، رقم ٣٣٠٢.

(٤) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٤/ ١٩٥.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) البداية والنهاية، ٢/ ١٧.

(٧) مسند أحمد، مسند الأنصار، رقم ٢٠٧٢٣.

د- تخير الإنسان عند الموت:

إِنَّ مِمَّا تَفَرَّدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ أَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعَنَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ فِي شَكْوَاهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بَحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ»^(١).

هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم:

وإن من إكرام الله لأتباعه ورُسُلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَهُمْ، فَمَهْمَا طَالَ الزَّمَانُ، وَتَقَادَمَ الْعَهْدُ تَبَقَّى أَجْسَادُهُمْ مُحْفُوظَةً مِنَ الْبَلَى، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

و- العصمة:

إِنَّ الْعَصْمَةَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا أَنْبِيََاءَهُ وَرُسُلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ سَائِرِ الْبَشَرِ، وَقَدْ عَرَفَهَا الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ، فَقَالَ: حِفْظُهُ إِيَّاهُمْ أَوَّلًا بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ صِفَاءِ الْجَوْهَرِ، ثُمَّ بِمَا أَوْلَاهُمْ مِنَ الْفَضَائِلِ الْجَسْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، ثُمَّ بِالنَّصْرَةِ وَتَثْبِيتِ أَقْدَامِهِمْ، ثُمَّ بِإِزَالِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ، وَبِحِفْظِ قُلُوبِهِمْ، وَبِالتَّوْفِيقِ^(٣).

وَقَدْ أَخَذَ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ تَعْرِيفَ الرَّاغِبِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ فَقَالَ فِي الْفَتْحِ: وَعَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ (عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) حِفْظُهُمْ مِنَ النَّقَائِصِ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِالْكَمَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَالنَّصْرَةِ وَالثَّبَاتِ فِي الْأُمُورِ، وَإِزَالِ السَّكِينَةِ^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، بَابُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، رَقْمٌ ٤٢٢٠.

(٢) سنن ابن ماجه، بَابُ فِي فَضْلِ الْجُمُعَةِ، رَقْمٌ ١٠٧٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٣٧.

(٤) فتح الباري، ٥١/١١.

ومن خلال معرفة الرسالة، والنبوة، وصفات الأنبياء والمرسلين، والحكمة من إرسالهم، ووظائفهم، وما تفرّدوا به، نتعرّف على صفات هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر، والحكمة من إرساله، والوظائف التي قام بها، وما تفرّد به.

١١ - وفاة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لم يثبت خبر صحيح في موقع قبر النبي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ثمّ تباينت الآراء في ذلك، فبعضها ذهب إلى وجوده في المسجد الأمويّ في دمشق أو غير، لكن أقربها إلى الصحة ما ذهب إليه ابن اسحاق وغيره بوجوده في حضرموت باليمن، لترجيح كونه موقع قوم عاد^(١).

وقد قال الشيخ عبد الوهّاب النجّار رَحِمَهُ اللهُ: "ويقول أهل حضرموت: إنّ هوداً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سكن بلاد حضرموت بعد هلاك قوم عاد إلى أن مات، ودُفن في شرقيّ بلادهم، وعلى نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت. وقد أثر عن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه مدفون في كتيب أحمر، وعند رأسه سمرة في حضرموت.

وإن أهل فلسطين يدّعون أنّه دُفن عندهم، وقد بنوا له قبراً ويعملون له في كلّ سنة مولداً، وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول، لأنّها متاخمة لبلاد عاد، وهي الأحقاف دون فلسطين"^(٢).



(١) تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، ص ١٠١.

(٢) قصص الأنبياء، عبد الوهّاب النجّار، ص ٩٠. وانظر: الأنبياء في القرآن قصص وعبر، هدى جعفر، ص ٧٨. وفي:

دعاء الأنبياء والرسول، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، ص ٤٥.

الخلاصة



بعد الانتهاء من عرض قصة نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بكامل تفاصيلها كما جاءت في كتاب الله العزيز، وبعد الوقوف على أهم التفاسير والمصادر التاريخية الإسلامية التي تناولت دراسة قصته عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ووقفت على أبرز معالمها، ودروسها، وعبرها، وفوائدها، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

١. كانت دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى التي بدأت من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم، وتطورت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية، ومعرفتها بخالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأرسل الله عَزَّوَجَلَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقام على قومه الحجة والبرهان، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم وأمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطوفان العظيم.

٢. إن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها: الكفر بالله تعالى، الشرك بالله، الظلم، تكذيب الرسول الكريم "نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ"، إيذاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم، استعجال العذاب، الجدل بالباطل، الترف، البطر، الاستكبار، المكر، الخطايا والذنوب، الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، وسنة الاستبدال، وسنة الأجل الجماعي، وسنة الهلاك، وسنة الخسران، الغفلة من أسباب الهلاك.

٣. تأثرت كتب التاريخ، وأيام الناس، وتسربت إلى كتب التفاسير أخطاء وموضوعات وإسرائيليات مخالفة للمعقول والمنقول لذلك يجب تنقية كتب التراث من الخرافات والأساطير، والاعتماد على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدمها القرآن الكريم في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٤. إفتى بنو إسرائيل على نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد زعموا أنه شرب الخمر، فسكر وتعري داخل خبائه وغير ذلك، فما يكون لنوح وهو من أولي العزم من الرسل أن يشرب الخمر ويسكر ويتعري وتُرى عورته، وإذا كان كذلك فما قيل عن حام كذب أيضاً.

٥. إن قصة الطوفان العظيم شغلت حيزاً كبيراً من حوار العلماء، واسترعت اهتمام الكثير من الباحثين والمتخصصين في المجالات العلمية، كعلم الأديان أو علم مقارنة الأديان أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا والتاريخ، وهو ما يدل على أن حادثة الطوفان بشقيها الأسطوري والديني تركت واقعاً كبيراً في نفوس وعقول وتصورات الأمم اللاحقة.

٦. اختلفت المصادر والمراجع التاريخية في قصة طوفان قوم نوح، وانفرد القرآن الكريم بالحقيقة الكاملة لقصة رسول الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وحادثة الطوفان العظيم، ولا يمكن أن تضاهيها أي مدرسة من المدارس الإنسانية التي اهتمت بالطوفان، فقد حفظ الله ما يفضح بني البشر من سيرة نبيه ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما لن تجده في الآثار السومرية، ولا البابلية، ولا التوراتية المحرّفة ولا غيرها، فالنص القرآني بين بوضوح ودقة متناهية حقيقة دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصته.

٧. إن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك وضلال الوثنية، فهو في صراحة تامة يذكر أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم، وانصرفوا إلى عبادة الأوثان، وكفروا بالله تعالى.

٨. إن النص القرآني لم يعتمد على غيره، فهو وحي من عند الله تعالى، بعكس المصادر الإنسانية القديمة، فالسومريون بعد أن كتبوا روايتهم عن طوفان قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء البابليون من بعدهم، وأخذوا منهم ما أخذوا، ثم جاءت اليهود، ونقلت ما نقلت عن تلك الحضارات، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقت في التدوين، ولكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية التي هي وحي من رب العالمين.

٩. لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا قومه على دراية بقصة الطوفان هذه، وإلى هذا يشير القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

١٠. يَسْأَلُ بعض الناس عن مصير الأطفال، وما ذنبهم حتى يعمهم الطوفان؟ وقد أجاب العلماء على ذلك: جرت العادة أن النعمة إذا حلت بقوم عمتهم دون تمييز بين صغير وكبير، وبار وفاجر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فَتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

١١. بدأت الحضارة الإنسانية الثانية بنزول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من السفينة بعد نهاية الطوفان، وبدايتها، وأبعادها الأمامية، وهو ما يتضح في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ يُونُسُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، فبدأت بالسلام والبركات.

١٢. كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل (عليهم الصلاة والسلام)، والذين حققوا التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته، وربى الناس على أخلاق وصفات فاضلة، وكانت متجسدة في شخصه الكريم، وفاضت على من حوله من أتباعه، فقد كان كثير الشكر لربه، ومخلصاً له، وطارقاً لأبوابه بالدعاء، والتضرع بين يديه سبحانه، وشديد الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، وتائباً إلى الله، وطالباً للمغفرة منه، وصابراً على تكاليف الدعوة، وصادقاً في دعوته، وشجاعاً لا يخاف إلا الله، وباراً بوالديه، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة التي عاش بها بين الناس، ودعا إليها، وعلمها لمن استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطوفان وبعده، وساهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية.

١٣. إن قيادة الحضارات، وتربية النفوس، والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمل في سيرة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة، وتوفيق من الله كبير.

١٤. إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون وعلى الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جداً. والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله

تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها واستخراج العبر منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

١٥. إن حركة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالعبادة، والحث على تقواه، وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين، فقد اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، وتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته: أهمية القيادة في صناعة الحضارة، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافاتها، وأهمية الوحي الذي يبين المنهج الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات، وأهمية سنة التدرج، وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله تعالى.

١٦. تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة الله في تغيير النفوس من خلال ما أوحى الله إليه من عقائد صحيحة، وتصورات سليمة، وأفكار رشيدة، وأخلاق رفيعة، وأثر في أتباعه الذين آمنوا بها، والتزموا طريق الله المستقيم.

١٧. تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة الأخذ الأسباب في أسلوب الدعوة، والاهتمام بمن آمن معه، وصناعة الفلك، وحمل بذور الحضارة الإنسانية الثانية معه في الفلك المشحون وغير ذلك.

١٨. تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة التدافع في عالم العقائد والأفكار والتصورات والأخلاق، وقد ظهرت بينه وبين قومه جلية واضحة.

١٩. تعامل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع سنة الله في النصر التمكين، وأخذ بشروطه وأسبابه، وتحقيق قول الله تعالى فيه والذين آمنوا معه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٢٠. إن مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية يعتمد على تحليل عميق للقصص القرآني واستنباط فهم حقيقي لمفهوم الحضارة يعتمد على الازدهار الإنساني، بخصائصه الفكرية

والروحانية، والوجدانية، والسلوكية، تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عَزَّوَجَلَّ على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

٢١. أفضل من رسم فقه الحضارة الربانية لمسيرة الإنسانية على مرّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمرسلون (عليهم الصلاة والسلام)، وبالتالي هم قادة حضارات إنسانية عظيمة؛ أصلت وبيّنت مفهوم التوحيد والعبادة، والقيم الرفيعة، وفقه العمارة، والاستخلاف، والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي النفسي والعمراني والمادي المنبعثة من قيم مستمدة من الوحي الرباني.

٢٢. إنّ الحضارة لا تكون ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقى على المستويين المادي والمعنوي؛ لأن الحضارة تُقاس بالتقدم العلمي والصناعي أو الآلي والعمراني عندما تعبر عن مقاصد إنسانية صالحة، وتجسداً لمبادئ خُلقية فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع تجده في قيادة الأنبياء والمرسلين للأمم والشعوب، كالحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عَلَيْهِ السَّلَام.

٢٣. إنّ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُعطي الحضارة الإسلامية هويتها، وهو الذي يربط بين أجزائها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويظهرها من خلال عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها.

٢٤. كان من أبرز خصائص الحضارة الإنسانية الثانية سمات الوجدانية المطلقة، والإنسانية، والأخلاق، والعلم، والحرية.

٢٥. إنّ عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية عديدة، ومنها: العامل العقدي، العامل الصناعي والاقتصادي، وعامل البيئة، والعامل الاجتماعي، والعامل الأخلاقي، والعامل السياسي، وعامل الجمال.

٢٦. كانت دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَام مهتمة بالتأمل والتفكير، والتدبر في الطبيعة، وهذا الكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمرسلين، ولم تكن دعوتهم تنصب على الجانب التجريبي العملي

من أجل إدراك عظمة الله، واكتشاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيه الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري، ورفعته إلى مستوى السمو الروحي والأخلاقي للإنسان.

٢٧. عامل الجمال في الحضارة الإنسانية الثانية يظهر جلياً على مستوى صاحب الرسالة، ومكونات الطبيعة، ومنها: جمال المنطق، وسمو الروح، وصفاء النفس يظهر جلياً في دعوته، وأساليبه، وحرصه على هداية قومه، وجمال الأخلاق يتضح في صبره، وتحمله ردود الأفعال الشنيعة من قومه، وجمال عاطفة الأبوة الملتهبة تظهر في عرضه على ابنه النجاة، وجمال صناعة السفينة، واتقانها يظهر في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وجمال الاعتذار يظهر في طلبه للمغفرة والرحمة من ربه ﴿وَالَّا تَعْفِرُ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وجمال نزول المخلوقات من السفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسيح، ومراعيه الخصبة، وأشجارها المثمرة، وغاباتها الكثيفة، وجمال انكشاف الغمة والكرب العظيم في المشهد الكوني والنفسي في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يٰأَرْضُ أْبْلِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فعامل الجمال له حضوره، وشهوده على كل مكونات الحياة في الحضارة الإنسانية الثانية، وتعامل معها نوح عَلَيْهِ السَّلَام على أعلى المستويات الذوقية الجمالية والإنسانية الرفيعة.

٢٨. استطاعت الحضارة الإنسانية الثانية أن تحقق الإخاء والمحبة، التعاطف والتراحم، التساند والتعاون، والتكافل والتضامن، والتواصي والتناصح، والتطهر والترقي، والعدالة الإنصاف، والتقدم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي. ولقد حققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية، ومن أبرزها: العبادة لله، وخلافة الله في الأرض، وعمارة الأرض.

٢٩. لم تكن قبيلة صغيرة ولا محدودة، بل كانت أمة عظيمة أسست أقدم حضارة في العالم، وكانت معظم أجزاء آسيا وأفريقيا ساحاً لقوتها وشوكتها، وكانت القصور الفخمة

الرائعة من صناعة أيديها، فلم تكن للعرب أمة غيرها، ففيها موعظة وعبرة لها. ومن ثم كرّر القرآن الكريم قصة هذه الأمة العربية العظيمة.

٣٠. إنّ الأمم السامية تفرّقت بعد اجتماعها مدّة، ونزحت من بلاد العرب، وتفرّقت في الأراضي المجاورة، وحصلت لها قوّة وسلطة، ولم يجهل المؤرّخون العرب هذه الحادثة.

٣١. كانت الأمم السامية الأولى أقدم سكان بلاد العرب، ومن ثم خرجت منها لأسباب مختلفة، وانتشرت في بلاد بابل ومصر، والشام. ويُسمّيها المؤرّخون العرب بالأمم البائدة، وذلك لأنّها تدفّقت من بلادها، وذهبت أدراج الرّيح.

٣٢. إنّها أوّل دولة قويّة ظهرت في بلاد العرب بعد هلاك قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام، كما تشير إليها آيات القرآن الكريم.

٣٣. لم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ، فلم يذكروا عهداً للعرب البائدة، لكن انطلاقاً من أنّ المؤرّخين العرب جعلوا عاداً ابناً حقيقياً لعوص بن إرم بن سام، فإنّ عهده يرجع إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وحيثما ذكر القرآن عاداً جعلها خلفاء قوم نوح.

٣٤. كان عهد ازدهار عاد من ٢٢٠٠ ق.م - ١٧٠٠ ق.م، وأمّا الصالحون من عاد فقد بقوا إلى بداية عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام، وقد ذكرهم اليونان باسم عاد إرم، وعادٍ سكان حضرموت واليمن، ويفرّق بينهما بعاد الأولى وعاد الثانية.

٣٥. كانت مساكن قوم عاد المركزيّة تقع في أفضل أجزاء بلاد العرب، أي: في اليمن وحضرموت، وعلى سواحل بحر الهند إلى ساحل الخليج إلى حدود العراق، ومن ثمّ من العراق إلى البلاد الأخرى، وهذا هو طريق هجرة الأمم السامية (حسب البحوث الحديثة).

٣٦. إنّ مدّة حكم العرب الساميين لمصر التي ذكرها التاريخ، هي المدّة من عهد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، إلى ما قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَام بقليل، وإنّ كانت بعض كتب التاريخ غير دقيقة في معلوماتها، وحدثت فيها بعض الأخطاء في أسماء الملوك، وعدم التفريق بين ملوك الهكسوس، وفراعنة مصر.

٣٧. كان للعرب من بين الأمم السامية أقوى علاقة بمصر، فكانت هاجر أم بني إسماعيل العرب من مصر، وكانت قوافل العرب ترحل إلى مصر بصفة دائمة، ولما وقعت المجاعة في عهد سليمان في مصر وما حولها من البلاد، وطلبت ملكة اليمن التي كانت موطن عاد والعمالة حسب الرواية العامة، الطعام من مصر، ويظهر ذلك من النقش الذي وجده علماء الآثار المسلمون في اليمن في القرون الأولى، وهذا يُظهر العلاقة بين عرب اليمن والعرب الساميين الذين كانوا يحكمون مصر باسم الملوك الرعاة.

٣٨. سكن الفينيقيون في سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكانت عاصمتهم تائر، وكانوا يملكون أزمّة التجارة القديمة من آسيا إلى أوروبا، وعرفوا في اللغة العبريّة بالآراميين.

٣٩. أوّل بلاد أوربيّة متحضّرة هي اليونان، وحضارة اليونان وعلومها وخطّها، كلّ ذلك مُستعار من فينيقيا، ومن هنا بدأ ازدهار اليونان.

٤٠. لم تكن عاد قبيلة صغيرة ولا محدودة، وإنما كانت أمّة عظيمة أسست أقدم حضارة في العالم، بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت معظم أجزاء آسيا وأفريقيا ساحة لقوّتها وشوكتها، وكانت القصور الفخمة الرائعة من صناعة أيديها، فلم تكن للعرب أمّة غيرها فيها موعظة وعبرة، ومن ثمّ كرّر القرآن الكريم قصّة هذه الأمّة العربيّة، التي تقدّمت في الحضارة الماديّة، وانحرفت في قضايا التوحيد، وإفراد العبادة لله، وتورّطت في الشرك.

٤١. أوّل رسول عربيّ هو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والرّسل من العرب أربعة، وهم: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهود، وصالح، وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما جاء ذكره في الحديث النبويّ.

٤٢. يرجع نسب هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما اتّفق أهل الأنساب، إلى سام بن نوح، وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذي هم بين هود وسام بن نوح.

٤٣. ذُكر نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن سبع مرّات، وذُكرت قبيلته وهي عاد سبعاً وعشرين مرّة، وهو من هذه القبيلة التي تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمال في اليمن، يُقال: إنّها بين عمان وحضرموت في بلد يُقال لها: الشّحر، وهي الآن في اليمن، وهي بلد زراعيّة.

٤٤. قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد تناسلت ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وهذا بعد الطوفان العظيم حتى وصلت إلى قوم عاد، وهم من نسل سام بن نوح، فأول من عبد الأصنام من ذرية نوح قوم عاد، وكانت أصنامهم ثلاثة: صَدَى وصمود وهري أو هباء.

٤٥. معنى (هود) من هاد، ويهود، وهوداً، أي من تاب، ورجع إلى الحق، والهادي المبيّن في كلامه. والهُود هو: التَّائِي، فكان يدعو قومه بهدوء، وتأنٍ، ورحمة.

٤٦. لم تذكر عاد وثمود في التوراة، وتفسير ذلك، أنه لما كانت هاتان الأُمّتان من العرب، لم يضبطوا خبرهما جيّداً، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما مشهوراً في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٤٧. ما يحدث الآن من تمكين الحضارة المعاصرة في صورتها الجاهلية هو من باب الاستدراج الذي يعطيه الله للكافرين حين يُريدون الدنيا، ويبدلون الجهد المكافئ لتلك الإرادة، فيوفيهم جزاءهم في الحياة الدنيا، ويفتح عليهم أبواب كل شيء مما يتعلق بباب التمكين.

٤٨. وردت قصّة هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه عاد في ثماني عشرة سورة في القرآن. وقد وردت في هذه السور على عدّة حالات، فأحياناً تُفَصّل قصّة هود مع عاد، وتُعرض بلقطات مفصّلة، وأحياناً تُعرض بلقطات أقصر وأوجز، وأحياناً تُعرض بلقطات سريعة وخاطفة، وأحياناً يكتفي بتسجيل إشارات، وأحياناً لا يُذكر إلا اسم عاد، أو اسم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٤٩. إنّ دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي نفس دعوة نوح والأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام)، وإنّها نفس الرسالة، ونفس الحوار، ونفس العقابة، وإنّها السُّنّة الماضية، والناموس الجاري، والقانون الواحد.

٥٠. إنّ قوم عاد من ذراري نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذين نجوا معه في السفينة، وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الإسلام، وكانوا

يعبدون ربّ العالمين، قال لهم نوح: ﴿وَلَا كُفِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، فلمّا طال عليهم الأمد تفرّقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية وقادهم من شهواتهم، وفي أولها شهوة الملك، وشهوات المتاع، ووفق الهوى، لا وفق شريعة الله تعالى. ٥١. عندما انحرفت الإنسانية في عقيدتها بعد الطوفان العظيم شاءت رحمة الله عزّ وجلّ أن يرسل هوداً عليه السّلام مبشّراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق وبالعدل في مجال التشريع.

٥٢. بعث الله هوداً عليه السّلام حينما عمّ الفساد ليُبشّر بالخير والحق والعدل، وبدأ سيّدنا هوداً عليه السّلام بالتوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا الذي قاله سيّدنا هود عليه السّلام، هو التبشير بالتوحيد، وهو جوهر الرسائل السماوية جميعها.

٥٣. إن التوحيد الذي جاءت به الرسل عليهم السّلام عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة، وهذا العنوان هو كلمة (لا إله إلا الله) التي تُسمّى (كلمة التوحيد) و(كلمة الإخلاص) و(كلمة التقوى).

٥٤. في قصّة هود عليه السّلام الدعوة إلى أن أعظم ما يحتاجه العبد، وهي معرفة أسماء الله، وذلك ليحمده، ويُمجّده، ويثني عليه، ويسأله المغفرة والرحمة ويتوب إليه.

٥٥. إن المتأمل في قصّة هود عليه السّلام ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي عليه السّلام في قيامه بأداء مهمّة التبليغ لقومه، ودعوته إيّاهم لعبادة الله تعالى وحده، حيث مكث في قومه متحملاً الأذى والعناد والجحود لعلّهم يستجيبون إلى دعوته.

٥٦. اهتمّ هود عليه السّلام بدعوة قومه إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبودية، والحثّ على تقواه، لأنّ تقوى الله عزّ وجلّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة النّاس على ذلك المنهج، وعدم التفلّت منه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه والالتواء في تنفيذه، كما أنّها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة.

٥٧. إِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ، والدِّينَ مِنْهُجَ اللهُ جَاءَ لِيَسْعَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا، وَيَنْظُمَ جَمِيعَ أُمُورِهَا مِنْ أَدَبِ الْأَكْلِ، وَالشَّرْبِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ إِلَى بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَسِيَاسَةِ الْمَالِ، وَشُؤُونِ الْمَعَامَلَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَأَصُولِ الْعِلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ فِي السَّلْمِ وَالْحَرْبِ.

٥٨. إِنَّ الشَّعَائِرَ التَّعَبُّدِيَّةَ مِنْ صَلَاةٍ وَصُومٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ، لَهَا أَهْمِيَّتُهَا وَمَكَانَتُهَا، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ كُلَّهَا، بَلْ هِيَ جُزْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَرِيدُهَا اللهُ تَعَالَى، وَإِنَّ مُقْتَضَى الْعِبَادَةِ الْمَطَالِبَ بِهَا الْإِنْسَانَ أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمَ أَقْوَالَ، وَأَفْعَالَ، وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَسُلُوكِهِ، وَعِلَاقَاتِهِ مَعَ النَّاسِ وَفَقَ الْمَنَاهِجِ وَالْأَوْضَاعِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، يَفْعَلُ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ، وَاسْتِسْلَامًا لِأَمْرِهِ.

٥٩. دَفَعَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْاِتِّهَامَ بِالنَّفْيِ، وَذَلِكَ مَعَ أَدَبِ الدَّعَاةِ إِلَى اللهِ الرَّفِيعِ، وَأَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَخْيَارِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَبَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مَا اتَّهَمُوهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ مَبْعُوثٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمُكَلَّفٌ بِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ، وَمَأْمُورٌ بِأَنْ يَنْصَحَ لِقَوْمِهِ.

٦٠. ذُكِرَ الْإِيمَانُ فِي مَوْضِعِ الْأَمَانَةِ، وَالْكَذِبُ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَالصَّدَقُ مِنَ الْأَمَانَةِ؛ لِأَنَّ كَذِبَ الْخَبَرِ بِأَمْرٍ غَيْرِ وَاقِعٍ فِي صُورَةٍ تُوْهِمُ السَّامِعَ أَنَّهُ وَاقِعٌ، فَذَلِكَ خِيَانَةٌ لِلْسَّامِعِ. وَالصَّدَقُ إِبْلَاجٌ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ كَمَا هُوَ. فَهُوَ أَدَاءُ الْأَمَانَةِ بِمَا عَلَّمَهُ الْمَخْبِرُ.

٦١. إِنَّ التَّمَسُّكَ بِالتَّقَالِيدِ الْمُتَوَارِثَةِ عَنِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، يَعِدُّ مِنْ أَكْبَرِ الْمَعْوَقَاتِ الَّتِي تَقُومُ فِي وَجْهِ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيَمْنَعُ كُلَّ إِصْلَاحٍ وَتَقَدُّمٍ وَتَغْيِيرٍ.

٦٢. سُورَةُ هُودٍ هِيَ السُّورَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ فِي تَرْتِيبِ السُّورِ فِي الْمَصْحَفِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ، حَيْثُ ابْتَدَأَتِ السُّورَةُ بِبَيَانِ أَحْكَامِ آيَاتِ اللهِ، وَكَانَتِ السُّورَةُ السَّابِقَةَ (سُورَةُ يُونُسَ)، قَدْ افْتُتِحَتْ أَيْضًا بِالْحِكْمَةِ.

٦٣. ركّزت سورة يونس على حكمة الله في قضائه وقدره، وأمّا سورة هود، فتحدّثت عن حكمة الله في كتابه وآياته، لتركّز على حكمة المؤمن في التعامل مع (الواقع) بالاستعانة بآيات الله الحكيم.

٦٤. نزلت سورة هود في أجواء عصيبة تحيط بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتولّت تشبّيته على المنهج من خلال وضع أسس ومقوّمات ذلك الثبات، وعرض سير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما واجهوا مع تلك الأمم، وتقديم نماذج للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه من خلال بيان منهج الرسل في مواجهة الباطل والكفر والعناد.

٦٥. إنّ قوم عاد انحرفوا عن التوحيد، وإفراد العبادة لله عَزَّجَلَّ نتيجة للطغيان المادّي على حساب قيم الروح ومناهج الأنبياء، فقد انشغلوا بالتصنيع، وإنشاء القصور والقلاع والأبنية الباهرة ونسوا عبادة الله في خضمّ زهوهم بحضارتهم الماديّة التي أشغلتهم عن الحقائق الكبرى من التوحيد والمصير، وحقيقة الدنيا ومآل الآخرة.

٦٦. إنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب قومه بأنّه يريد بدعوته إلى التوحيد رضا الخالق الكريم، الذي فطره على التوحيد، واستدلّ بدليل الفطرة المغروس في كلّ إنسان، فالفطرة السليمة تشهد بوجود الله جَلَّ جَلَّالُهُ، والاستدلال على الله بالفطرة يُعَدُّ من أوّل الأدلّة على وجود الله، وباقي الأدلّة تأتي مؤكّدة ومُرسّخة لما فطر الله عليه الخلق.

٦٧. إنّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بيّن لقومه بأنّ معرفة الرب سبحانه، ووجوب عبادته وحده مركز في الفطرة بغير استدلال عليه، فهي معرفة فطريّة ضروريّة بديهيّة أوليّة، وليست معرفة الربوبية وحدها فقط الراسخة في أعماق الفطرة فحسب، بل كل من وحدانيّة الربوبية والألوهية معلومة فيها على حد سواء.

٦٨. إنّ العقل من الأدلّة القاطعة على معرفة الله وتوحيده، وكذا بطلان الشرك وقبحه وجاءت دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤيّدّة بالوحي الربّاني على توحيد الله وإفراده بالعبادة والابتعاد عن الشرك بكافة أشكاله وألوانه.

٦٩. إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بَيَّنَّ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلَ وَالْمَعَادَ، وَقُبْحَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ، وَالْكَذِبِ، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَدِلْ بِهَا، وَبَيَّنَّ أَنَّهَ بِالْعَقْلِ يَعْرِفُ الْمَعَادَ، وَحَسَنَ عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ، وَحَسَنَ شُكْرِهِ، وَقُبْحَ الشِّرْكِ وَكَفْرَ نَعْمِهِ.

٧٠. هَيَّاَ اللَّهُ الْعُقُولَ لِلْقِيَامِ بِالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الدَّامِغَةِ، وَبِهَذَا كَانَتْ الْفِطْرَةُ وَالْعُقُولُ؛ مِنْ أَقْوَى مُسْتَنْدَاتِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى مُشْرِكِي قَوْمِهِ.

٧١. إِنَّ التَّوْبَةَ مَلَاذِمَةٌ لِلْإِنْسَانِ الْمَفْطُورِ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَقَدْ يَرْتَكِبُ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ وَالْمُخَالَفَاتِ، مَعَ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ لَهُ بِذَلِكَ، فَيَأْتِي بِأَبْوَابِ التَّوْبَةِ مُفْتَوِّحاً لِلْإِنْسَانِ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِيُغْفِرَ لَهُ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ، وَيَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ.

٧٢. إِنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ أَسْمَائِهِ (التَّوَابُ) وَالتَّوْبَةُ مِنْ شَرِّعَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ، وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ طَوَالَ الْأَزْمَانِ وَالْأَيَّامِ وَالْأَسْبَابِ، وَدَعَا إِلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلَ.

٧٣. التَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ، وَخُلِقَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَخْلَاقِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَهُوَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِ الدِّينِ، وَمَقَامٌ مِنْ مَقَامَاتِ الْمُوقِنِينَ، بَلْ هُوَ مِنْ مَعَالِي دَرَجَاتِ الْمُقَرَّبِينَ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦].

٧٤. إِنَّ قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرَكَوا نَبِيَّهُمْ رَمَزَ الرَّحْمَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالرَّأْفَةِ وَالْحِلْمِ وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَسَلَامَةِ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ مُتَكَبِّرٍ قَاسٍ غَلِيظَ الْقَلْبِ عَنِيدٍ مُكَابِرٍ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ، فَاقْدِ الْإِحْسَاسَ وَالشُّعُورَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ.

٧٥. إِنَّ التَّفَاصِيلَ الَّتِي جَاءَتْ فِي قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقِصَصَ مِنْ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَقَدْ كَانَ مَعْلُوماً مِنْ حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهَ كَانَ أُمِّيًّا وَكَانَ مَعْرُوفاً مِنْ حَالِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ عَنْ قِصَصِ وَأَنْبَاءِ الْأَقْوَامِ الْمَاضِينَ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَسِيرِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُ أَتَى بَعْدَ الْبَعْثَةِ بِجُمْلَةٍ مَا وَقَعَ وَحْدَهُ لِلْأُمَمِ الْغَابِرَةِ،

لَمَّا كَانَتْ تَتَخَبَّطُ فِي الضَّلَالَةِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْهَا تَعَالَى أَنْبِيَاءٌ يَدْعُونَهَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلَمَّا اعْتَرَضَتْ عَنْ أَنْبِيَائِهَا وَصَدَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَعَنْ رِسَالَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَيْفَ عَاقَبَ اللَّهُ تَعَالَى تِلْكَ الْأُمَمَ الْغَابِرَةَ ثُمَّ كَيْفَ كَانَ مَصْرَعَهَا.

٧٦. سورة المؤمنون، تعتبر السورة الثالثة والعشرين، وذلك بحسب ترتيب المصحف الشريف، والسادسة والسبعين في عداد نزول سور القرآن الكريم، وآياتها (١١٨) آية، وهي مَكِّيَّةٌ بالاتفاق، وسميت هذه السورة بسورة (المؤمنون) لافتتاحها بفلاح المؤمنين، واشتمالها على أوصافهم وجزائهم في الآخرة.

٧٧. إِنَّ دَائِرَةَ الْعِبَادَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ لَهَا الْإِنْسَانَ، وَجَعَلَهَا غَايَتَهُ فِي الْحَيَاةِ، وَمَهْمَّتَهُ فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ دَائِرَةٌ وَاسِعَةٌ، وَإِنَّهَا تَشْمَلُ شُؤُونَ الْإِنْسَانِ كُلِّهَا، وَتَسْتَوْعِبُ حَيَاتِهِ جَمِيعاً، وَتَسْتَغْرِقُ كَافَّةً مَنَاشِطَهُ وَأَعْمَالَهُ.

٧٨. إِنَّ مَقْتَضَى الْعِبَادَةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هُوَ أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمُ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ وَتَصَرُّفَاتِهِ وَسُلُوكَهُ وَعِلَاقَاتِهِ مَعَ النَّاسِ، وَفَقِ الْمَنَاهِجِ، وَالْأَوْضَاعِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا شَرِيعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِفَعْلِ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ، وَاسْتِسْلَاماً لِأَمْرِهِ.

٧٩. إِنَّ مَسْأَلَةَ الْبَعْثِ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا دَعْوَةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ، وَتَوَسَّعَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي إِثْبَاتِهَا بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَّتْ مَظَاهِرَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وَالْحِسَابَاتِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَلَا بَدَّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ، وَالَّتِي بَيَّنَّهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْخَالِدِ (الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ).

٨٠. سَجَّلَتْ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ دَعْوَةَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَادَ، وَتَكْذِيبَهُمْ لَهُ، وَأَضَافَتْ الْقِصَّةَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَبْعَاداً أُخْرَى، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ قَوْمُ عَادَ مِنْ حَضَارَةٍ وَقُوَّةٍ، وَقَدْ جَاءَتْ قِصَّةُ عَادَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ فِي السُّورَةِ.

٨١. إِنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ الْإِنْشَغَالَ بِالدُّنْيَا، وَالتَّبَاهِي بِالْأَبْنِيَةِ الشَّامِخَةِ فَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ، إِظْهَاراً لِلْقُوَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ، مَعَ قِسْوَةِ الْقَلْبِ، وَالْكَفْرِ، وَالشُّرْكِ، وَالْمَعَاصِي، وَالذُّنُوبِ، وَالْغَفْلَةِ عَنْ طَرِيقِ الْآخِرَةِ.

٨٢. إِنَّ رُؤْيَا الْخُلُودِ مِنْ خِلَالِ الثَّرَاءِ الْمَادِّيِّ أَمْرٌ سَيِّئٌ، وَيَعُودُ بِالْخِيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ عَلَى أَصْحَابِهِ بِشَكْلِ عَامٍ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ أَتَى تَحْذِيرُ هُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ قَوِيًّا.

٨٣. إِنَّ تَحْرِيمَ الْبَطْشِ وَالظُّلْمِ مِنْ شَرْعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً، وَحَذَرٌ مِنْ ذَلِكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَهُوَ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْخَالِدَةِ، وَالتِّي كَانَ أَحَدُ أَهْدَافِهَا الْعَدْلَ وَمَنْعَ الظُّلْمِ.

٨٤. الْإِنْسَانُ لَا بَدْلَ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ؛ لِأَنَّ فِيهِ ضَعْفًا فَكَيْفَ يَقْوَى إِنْ لَمْ يَكُنْ بِعِبَادَةِ جِهَةٍ قَوِيَّةٍ؟ وَلِأَنَّ فِيهِ نَقْصًا فَكَيْفَ يَكْمُلُهُ إِنْ لَمْ يَتَوَجَّهْ نَحْوَ جِهَةٍ كَامِلَةٍ؟ فَمَا أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَإِمَّا أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، فَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَعْبُدُ الْقَوِيَّ الْغَنِيَّ، الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ، الْحَكِيمَ الْعَلِيمَ، السَّمِيعَ الْبَصِيرَ.

٨٥. إِنَّ الْأُمَمَ الْمُتَغَطَّرَةَ الْمُتَعَالِيَةَ تَظُنُّ أَنَّ تَفَوُّقَهَا الْحَضَارِيَّ عَلَى غَيْرِهَا يَخُولُهَا التَّعَدِّيُّ عَلَى حَقُوقِ الْبِلَادِ الْأَقْلَى قُوَّةً، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى أَرْضِيهَا، أَوْ نَهْبَ مَوَارِدِهَا، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَثْبِيتِ دَعَائِمِ حُكْمِهَا.

٨٦. إِنَّ الْإِيمَانَ يَحْتَاجُ إِلَى تَفَكُّرٍ فِي خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الطَّاعَةِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى حُضُورِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَلَازِمَةِ الذِّكْرِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

٨٧. لَيْسَ وَرَاءَ الطُّغْيَانِ إِلَّا الْفُسَادُ، فَالطُّغْيَانُ يَفْسِدُ الطَّاعِيَةَ وَيَفْسِدُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِمُ الطُّغْيَانُ سِوَاءَ كَمَا يَفْسِدُ الْعِلَاقَاتُ وَالْإِرْتِبَاطَاتُ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ، وَيَحْوُلُ الْحَيَاةَ عَنْ خَطِّهَا السَّلِيمِ النَّظِيفِ، وَالْمَعْمَرِ الْبَانِي، وَإِلَى خَطِّ آخِرٍ لَا تَسْتَقِيمُ مَعَهُ خِلَافَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ بِحَالٍ.

٨٨. إِنَّ الطُّغْيَانِ يَعْطِلُ مَلَكَاتِ الْإِبْتِكَارِ الْمُتَحَرِّرَةِ الَّتِي لَا تَنْمُو فِي غَيْرِ جَوْ الْحَرِّيَّةِ، وَالنَّفْسِ الَّتِي تَسْتَذِلُّ تَأْسَنَ وَتَتَعَفَّنَ وَتَصْبِحُ مَرْتَعًا لِدِيدَانِ الشَّهَوَاتِ الْهَابِطَةِ وَالْغَرَائِزِ الْمَرِيضَةِ، وَمِيدَانًا لِلانْحِرَافَاتِ مَعَ انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ، وَالْإِدْرَاكِ، وَفَقْدَانِ الْأُرْيَحِيَّةِ وَالْهَمَّةِ، وَالتَّطَلُّعِ، وَالْإِرْتِفَاعِ، وَهُوَ فُسَادٌ أَيْ فُسَادٌ.

٨٩. إِنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الثانية، التي بدأت من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ثم انحرفت عن التوحيد، وإفراد الخالق العظيم بالعبودية، وتطوّرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت، وأخطأت السبيل في قيمها الروحية، ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسل الله عزَّجَلَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩٠. إِنَّ من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك الحضارة التي أنشأتها قبيلة عاد: الكفر بالله، وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، وقد سُمي الكافر كافراً لأنه غطّى بالكفر ما يجب أن يكون عليه من الإيمان.

٩١. رفض قوم عاد دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ للتوحيد ورسالات الله، وكفروا بها وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر.

٩٢. إِنَّ وصف قوم عاد بالكفر يعني أنها في تلك الفترة التاريخية من تاريخ الإنسانية كانت منفصلة عن الدين، ومتحررة من تكاليف الإيمان بالله وشرعه، وهذا يُفضي إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها، وهذا ما حدث لها من حالة الشقاء والتعاسة التي كان يعيشها قوم عاد جرّاء بُعدهم عن هدايات السماء.

٩٣. بعد أن استفحل في قوم عاد الظلم، وأصبح ظاهرة على مستوى المجتمع، وارتكبه بكل أنواعه، واستمروا على ذلك نزل بهم العقاب الربّاني.

٩٤. في نهاية قصص هود مع قومه قضى الله تعالى بهلاك المشركين، وهي سنة فيمن أشرك به، وحاد عن منهج رسله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا انهدمت أركان شرك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية.

٩٥. إِنَّ الإهلاك بسبب الظلم سنة من سنن الله في سقوط الحضارة الإنسانية كقوم نوح، وعاد، وشمود، وأصحاب مدين، والمؤتفكات، وذلك بإبادة مدينتيها المتخلفة عن نور الوحي، وإزالة سلطان الملأ الذين يُمثلون القيادة السياسية، والاجتماعية، والفكرية في تلك الحضارات الفانية من تاريخ البشر.

٩٦. كان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهده أصدق الناس لهجة، وأنقاهم سريرة، وأكرمهم خلقاً وأمانة، فاختاره الله لرسالته، وأيده بالوحي الإلهي والآيات والدلائل، وما اختاره الله لرسالته إلا لعلمه بأهليته لها، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

٩٧. من أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم هود استعجالهم العذاب، فقوم هود عندما يتسوا من مناجزة الحجة بالحجة أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا وأبوا الإذعان للبرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الحوار والجدال إلى التحدي.

٩٨. عندما يتس هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من صلاح قومه، واستجابتهم لدعوته، ورأى أنه لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أدبته، ومخالفته، وتكذيبه بكل طريقة من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب الله عَزَّجَلَّ، فلبى الله دعوته، وأجاب طلبه.

٩٩. من أسباب العقاب الإلهي الترف، والترف أن يسترخي الإنسان في إرادته، وعزيمته، وصبره، فيكون كل شيء فيه مسترخياً، وإرادته مسترخية، وعزيمته لا قوة فيها، ونفسه غير منضبطة، والشهوات حاكمة، والأهواء جامحة، ومخافة الله غائبة.

١٠٠. إذا أراد الله عَزَّجَلَّ إهلاك قرية، فإنه يأمر هؤلاء الذين أترفوا بالطاعة، فيفسقون فيها، ويبقون على ترفهم، ويبقون على معاصيهم، ومخالفتهم لأمره سبحانه، فيحق عليهم وعيد الله الذي أوعدهم من كفر به وخالف رسله من الهلاك والدمار، فيخربها سبحانه تخريباً، ويهلك من كان فيها إهلاكاً.

١٠١. إنَّ النعمة وسيلة لأداء رسالة الإنسان في الأرض، فيجب أن تكون سُلماً للخير، فمن شكر الله تعالى عليها زاده منها، ومن لم يفعل ذلك، بل جعلها وسيلة للشر والبطر بها، فإنَّ العذاب سينزل به.

١٠٢. إنَّ الأمم إنما يهلكها بطرها، واستكبارها، وغفلتها عن الحق، واستغراقها في شهواتها الدنيوية دون تدبر وترو.

١٠٣. إنَّ صفة الاستكبار الذميمة كانت شائعة في قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا قوماً مستكبرين متجاوزين الحد في الكبر، وهذا من أهم أسباب إهلاكهم.

١٠٤. تكبر قوم عاد على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بالترفع عن عبادته، وعن الإذعان لأوامره ونواهيهِ، وعلى هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، ولذلك مضت فيهم سنة الله في الهلاك.

١٠٥. إِنَّ الكبر خلُق ذميم، وكبيرة من كبائر الذنوب، وبسببه شقي كثير من الناس، وأوبقوا أنفسهم في العاجلة، واستحقوا العذاب في الآخرة، والنصوص الواردة في ذمّه وبيان خطورته، وما أعدّ الله لصاحبه كثيرة لا تُحصى.

١٠٦. إِنَّ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم، ومن أسباب زوال الحضارات الإنسانيّة وهلاكها قديماً وحديثاً.

١٠٧. إِنَّ الذنوب التي كانت سبباً في هلاك قوم عاد نجد أنّها قد عادت مرّة أخرى للظهور، مع ارتكاب الفواحش والمعاصي علناً، وبخس الناس حقوقهم ما أكثره!، وطغيان المفسدين ما أعظمه!

١٠٨. عدم الإيمان بالبعث والنشور من أسباب هلاك الأمم وزوالها ونزول عقاب الله بها، لأنّ ذلك يجعلها ترتكب المعاصي والذنوب، والفواحش، والكبائر، وتقع في العناد والظلم والجحود، والاستكبار.

١٠٩. إنّ عدم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء كان دافعاً للمستكبرين، الظالمين، المجرمين، الكافرين، المشركين للوقوع في أنواع المعاصي والذنوب ممّا ساهم في نزول غضب الله وسخطه على قوم عاد.

١١٠. اشتغل قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور الدنيا وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل، وغاب عنهم الاستعداد ليوم الرحيل، وتطاولوا على أهل الإيمان، ووقعوا في سنة الاستدراج الربّانيّ، فكثر أموالهم وأولادهم، وأبترتهم النعم الكثيرة.

١١١. أخذ الله تعالى قوم نوح وأخذ عاداً وثمود وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة، والإغريق، والرومان، وغيرهم بسنة الاستدراج، ووراء ازدهار حضارتهم ثمّ تدميرها ذلك السرّ المُعَيَّب من القدر الظاهر في سنّته، وهذا التفسير الربّانيّ لهذا الواقع التاريخيّ المعروف.

١١٢. مضت سنة الله في الاجتماع البشريّ أنّه ما أهلك قوماً إلّا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين يقومون بعمارة الأرض، وذلك أنّ ذهاب أمة، وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً وصدفة، ولكنه سنة الله في الأمم والدول، لتجدّد خلايا الإنسانيّة، وتتداول الحياة الحضاريّة بين البشر، وليستمرّ العالم قائماً على أسس عقائدية صحيحة.

١١٣. لكلّ قوم ميقات لانقضاء مدّتهم، وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقلّ مدّة من الزمن، ولا يتقدّمون بالقدر نفسه، لأنّ الله قضى بذلك منذ حين.

١١٤. ما من أمة عرفت الحياة، ومن ثمّ تمرّدت على الحقّ، وتولّت عن العدل إلّا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدّر في الكتاب المسطور.

١١٥. من سنة الله أنّ الكافرين لا يُفلحون، وأنّهم خاسرون، وهي سنة نافذة لا تتخلّف كما أنّ الفلاح للمؤمنين طرد من الناموس الكبير.

١١٦. إنّ كلّ ما كان يُرى على قوم عاد من نعمة ومتاع، وقوّة وسلطان عند الملأ، لم يكن ذلك فلاحاً في ميزان القيم الحقيقيّة، وإنّما كان استدراجاً انتهى بالويل والخسران والطوفان العظيم.

١١٧. إنّ من أسباب هلاك قوم عاد، ومضيّ سنة الله فيهم، غفلتهم عن أسباب الهلاك، فلم ينتبهوا إلى خطورتها، بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع.

١١٨. كان هود عليه السّلام من الأنبياء المرسلين الذين حقّقوا التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته، ورَبّى الناس الذين آمنوا برسالته واستجابوا لدعوته على أخلاق حميدة، وكانت متجسّدة في شخصه الكريم: كالإخلاص، والصبر، والتقوى، وحسن العبادة، والتوكل على الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١١٩. الرسالة التوحيدية هي منحة إلهيّة يختصّ بها من يشاء من عباده، وذلك فضلاً منه ونعمة، وليست الرسالة درجة علميّة يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنّما هي اصطفاء، واختيار للرسل من بين سائر الناس.

١٢٠. من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَنَّ الخلق بحاجة إلى الرسل لِيُبلِّغُوهم ما يُحِبُّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلُّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلًا مبشرين ومنذرين!.

١٢١. إِنَّ الرسل بُعثوا يُهذِّبون العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ويُحرِّرونهم من رِقِّ عبوديَّة المخلوق، إلى حرِّيَّة عبادة ربِّ العالمين الذي أوجدهم من العدم، وسيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمَّا أشقياء وإمَّا سُعداء.

١٢٢. لو تُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهليَّة جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة غابة مظلمة، وفيها يأكل القويُّ الضعيف، ويذلُّ الشريف الوضع، وهكذا.. فاقتضت حكمته سبحانه ألا يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً.

١٢٣. إِنَّ مهمَّة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقبضي الناس بهم، ويكونوا هداة مهديين.

١٢٤. لم يثبت خبر صحيح عن موقع قبر النبيِّ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ثمَّ تباينت الآراء في ذلك، فبعضها ذهب إلى وجوده في المسجد الأمويِّ في دمشق أو غيره، غير أن أقربها إلى الصحَّة ما ذهب إليه ابن اسحاق وآخرون بوجوده في حضر موت باليمن، لترجيح كونه موقع قوم عاد.



المصادر والمراجع



١. أبو بكر الصديق، علي محمد الصلابي، دار الروضة، اسطنبول، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
٢. الأحاديث الصحيحة، صالح العلي.
٣. أحسن القصص، زاهية الدجاني، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٤. إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد محمد محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
٥. الإخلاص في القرآن الكريم، حمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، الرياض، السعودية، ١٤٣٧هـ - ٢٠٠٦.
٦. أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، محمد درويش.
٧. أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
٨. الأساليب التربوية في دعوة الرسل من خلال سورة الأعراف، ياسر حسن عارف، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ.
٩. الأساليب والوسائل الدعوية في سورة هود، زينب محمد أمين، رسائل جامعية، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، ٢٠٠٥م.
١٠. الأسرار البلاغية في الفوائد القرآنية، د. عبد الله عبد الغني سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.
١١. الإسلام حضارة الغد، يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٩٥.
١٢. أسلوب الإثارة الوجدانية في الدعوة في سورة هود، مروة الدهماني، رسالة جامعية، جامعة السلطان قابوس، عمان، ٢٠١٥م.

١٣. الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
١٤. أصول الاعتقاد في سورة يونس، د. قذلة بنت محمد القحطاني، رسالة ماجستير- كلية أصول الدين، الرياض، ٢٠١٦م.
١٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ٢٠١٣م.
١٦. إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران، يحيى وزيري، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.
١٧. أعلام المكان في القرآن الكريم، يوسف أحمد أبو ريدة، رسالة ماجستير- جامعة الخليل، ٢٠٠٧م.
١٨. اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م.
١٩. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ١٩٠٥م.
٢٠. أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى حسن، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.
٢١. أولو العزم من الرسل نوح عَلَيْهِ السَّلَام، عبد الله محمد المعتاز دار السلام، الرياض، السعودية.
٢٢. آيات عاد قوم هود، علي مجدي علاوي، ديوان الوقف السني، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
٢٣. الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٢٤. الإيمان بالقدر، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م.
٢٥. البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٦. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٠م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٢٧. بدائع التفسير، ابن القيم الجوزية، دار ابن الجوزي، الرياض، ٢٠٠٧م.
٢٨. برنامج أحسن القصص، أحمد الكبيسي، الإعداد للنشر والمداخلات، فاطمة محمد ستون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٢٩. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك لصناعة الكتاب، ٢٠٠٨م.
٣٠. البيان القرآني في آيات قصة هود، بلسم فارس سليمان، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، ٢٠١٢م.
٣١. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، ٢٠٠١م.
٣٢. تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم، ٢٠١٦م.
٣٣. تاريخ الرسل والملوك المعروف تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، دار سويدان، بيروت، لبنان، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٣٤. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق اليعقوبي.
٣٥. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ١٩٨٣م.
٣٦. تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الحادي عشر، ١٤٢١هـ.
٣٧. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٣٨. تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣٩. تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة.

٤٠. تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤١. تفسير الرازي، التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٢. تفسير الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٠١٣م.

٤٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢م.

٤٤. تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٤٥. تفسير القرآن بالقرآن، طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

٤٦. تفسير القرطبي، أبو عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

٤٧. تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٦/ ٤٦ - ٤٧.



٤٨. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٩٧٥ م.
٤٩. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
٥٠. التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
٥١. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.
٥٢. تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، الإمام النسفي دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٣. تفسير سورة هود دراسة تحليلية - موضوعية، الدكتور: أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩ م.
٥٤. التقوى الدرة المفقودة والغاية المنشودة، أحمد فريد، دار الإسلام، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
٥٥. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.
٥٦. التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٥٧. التيسير في التفسير، أبو حفص النسفي.
٥٨. التيسير في القرآن، القشيري.
٥٩. الجريمة والعقاب، د. محمد المجذوب.
٦٠. جماليات القرآن الكريم، محمد تكروك، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٩ م.

٦١. حاشية الصاوي على الجلالين، الصاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦م.
٦٢. حديث القرآن العظيم، عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي، دار العلوم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٦٣. الحق الواضح المبين، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح.
٦٤. حماية البيئة الطبيعية، صفاء مؤزة، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٦٥. الحوارات القرآنية قراءة حجاجية، محمد عبد المطلب، دار النابغة، ٢٠٢١م.
٦٦. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاح.
٦٧. خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٦٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.
٦٩. دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي، دار الميمان للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.
٧٠. الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي بن سعد الشمراني، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٧١. دعوة الرسل إلى الله، محمد العدوي، العصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
٧٢. الدعوة إلى الله في سورة هود، عبد الرحمن بن راجي بن رجاء العوفي، ١٩٩٢م.
٧٣. دليل الفطرة والميثاق، أبو يوسف مدحت فراج، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٦م.

٧٤. الرزق في القرآن الكريم، سليمان البيرة، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٧٥. رسالات الأنبياء دين واحد وشرائع عدة، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥م.
٧٦. رقائق القرآن، إبراهيم عمر السكران، دار الحضارة، ٢٠١٤م.
٧٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
٧٨. رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٧٩. زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٨٠. زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.
٨١. سبائك الذهب، محمد أمين سويدي، المكتبة العلمية، ٢٠١٦م.
٨٢. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، مكتب المعارف.
٨٣. السلسلة الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٨٤. سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن، رمضان خميس، دار المقاصد، القاهرة، طبعة ٢٠١٤هـ.
٨٥. سنن ابن ماجه، ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية.
٨٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط ١، ١٣٨٨هـ.

٨٧. السنن الاجتماعية، محمد أمحزون، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
٨٨. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، مكتبة الرشد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٨٩. السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمم، جمال نصار، دار الأصول العلمية، اسطنبول، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
٩٠. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار عمران، بيروت.
٩١. سنن القرآن في قيام الحضارات، محمد هيثور، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٩٢. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
٩٣. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
٩٤. الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٩٥. الشمين في قصص الأنبياء والمرسلين، زهير علي.
٩٦. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٩٧. صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء، أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.



٩٨. صحيح البخاري، دار ابن كثير، محمد بن إسماعيل، البخاري، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٩٩. صحيح قصص القرآن، القاهرة، حامد البسيوني، دار الحديث، القاهرة، دار البصائر، الجزائر، طبعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٠٠. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
١٠١. الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، عادل صالح أبو العلا، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ، فرع الكتاب والسنة.
١٠٢. الصواعق المرسلّة، ابن القيم، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٠٣. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
١٠٤. طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، الاسكندرية، ٢٠٠٠م.
١٠٥. العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٩٩٥م.
١٠٦. عقيدة التوحيد، سعاد مبير، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
١٠٧. على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة ٢٠١٠م.
١٠٨. فبهدهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٠٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١١٠. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٩٩٢م.
١١١. فتح القدير في الجمع بين فني التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة.
١١٢. الفصل بين الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
١١٣. فقه السنن الإلهية، وفاء محمد سعيد طيب، دار الأمة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
١١٤. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١١٥. الفكر التاريخي في الإسلام، عبد اللطيف شرارة، دار الأندلس، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ٨٣.
١١٦. فلسفة الحضارة، ألبرت إشفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٣.
١١٧. في صحبة الرسل الكرام، السيد عبد المقصود عسكر، دار البشير، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١١٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.



١١٩. القصة القرآنية هداية وبيان، وهبة الزحيلي، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
١٢٠. قصة دعوة الأنبياء، عمرو خالد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.
١٢١. قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام، عمر إيمان أبو بكر، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠١٧م.
١٢٢. قصص الأنبياء في رحاب الكون، الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
١٢٣. قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١٢٤. قصص التوراة والإنجيل، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١٢٥. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.
١٢٦. قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرو الشاعر، مكتبة النافذة.
١٢٧. قصص القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢م.
١٢٨. القصص القرآني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٢٩. قصص المرسلين في كلام رب العالمين، أبو بكر الجزائري، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
١٣٠. كتاب المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
١٣١. كيف نكتب التاريخ، محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٣٢. لسان العرب، محمد مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.
١٣٣. مباحث التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.
١٣٤. مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره، د. محمد عياش الكبيسي، دار نشر جامعة قطر، ٢٠١٩م.
١٣٥. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
١٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حاكم قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، رمضان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٣٧. مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٣٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.
١٣٩. الاستفادة من قصص القرآن الكريم، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٤٠. المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (١٤).
١٤١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨م.
١٤٢. مسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي، دار التأصيل، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
١٤٣. المشروع الحضاري لنهضة الأمة.

١٤٤. المعارف، أبو محمد بن قتيبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
١٤٥. معالم الصراع الإيماني في قصّة هود، أحمد محمد.
١٤٦. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
١٤٧. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م -
١٤٨. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة السادسة.
١٤٩. معجم شيوخ الطبري الذين روى عنهم في كتبه المسندة المطبوعة، أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
١٥٠. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة تزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م.
١٥١. مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين، عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
١٥٢. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١م.
١٥٣. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩م.
١٥٤. من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
١٥٥. من حديث يوسف وموسى، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٢٠١٠م.
١٥٦. من قصص التراث، عصام الدين التهامي.

١٥٧. منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، أحمد سليمان الرقب، دار المأمون، الأردن، طبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٥٨. منهج القرآن الكريم في دحض شبهات الملحدين، أفنان حمد محمد الغماس، مركز دلائل، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
١٥٩. موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي.
١٦٠. موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
١٦١. موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد ملوح، دار الوسيلة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٦٢. موسى كليم الله، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢.
١٦٣. مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، رسالة دكتوراه، جامعة درمان، السودان، ٢٠١١م.
١٦٤. النبي الوزير يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين، د. علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٣.
١٦٥. نصوص اللعن في القرآن وأثرها في الأحكام الشرعية، عمر شاعر الكبيسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٣هـ.
١٦٦. نوح عَلَيْهِ السَّلَام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١٦٧. نوح والطوفان العظيم، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.
١٦٨. نوح وقومه في القرآن المجيد، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.



١٦٩. الوسطية في القرآن، علي محمد محمد الصلابي، مكتبة الصحابة مكتبة التابعين،
٢٠٠٨م.

١٧٠. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة،
السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.



فهرس الموضوعات



٥	تقديم
٧	الإيمان لا يتعارض مع القوة، بل هو قوة إلى القوة:
٩	هود عليه السلام ومفردات الإنقاذ الرسالي والحضاري
١٩	الإهداء
٢١	المقدمة

المبحث الأول

٢٩	ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية
٢٩	أولاً: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهِيْطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾:
٣٣	ثانياً: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
٣٦	ثالثاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾
٣٩	رابعاً: صفات وأخلاق نوح عَلَيْهِ السَّلَام ودورها في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية
٤٠	١ - الإخلاص:
٤٣	٢ - الصبر:
٤٧	٣ - التقوى:
٥٠	٤ - مستغفر وتواب:
٥٧	٥ - الدعاء:
٥٨	٦ - العبودية:
٦٠	٧ - العلم:
٦٠	٨ - العفة:
٦٠	٩ - الأمانة:
٦١	١٠ - الثبات:
٦١	١١ - بر الوالدين:
٦١	خامساً: فقه نوح عَلَيْهِ السَّلَام في التعامل مع السنن الربانية

- ١ - سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي: ٦٣
- ٢ - سنة الله في الابتلاء: ٦٥
- ٣ - سنة الله في الأخذ بالأسباب: ٦٩
- ٤ - سنة الله في التدافع في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ٧٣
- ٥ - سنة الله في النصر والتمكين: ٧٦
- سادساً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية ٧٨
- ١ - العامل العقدي: ٨٤
- ٢ - العامل الصناعي والاقتصادي: ٨٥
- ٣ - عامل البيئة: ٨٧
- ٤ - العامل الاجتماعي: ٨٨
- ٥ - العامل الأخلاقي: ٩٠
- ٦ - العامل السياسي: ٩٥
- ٧ - عامل العمال: ٩٦
- سابعاً: تفسير الآيات التي تحدثت عن الجارية والفلك المشحون ١٠٠
١. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ...﴾ ١٠٠
٢. قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَسْحُونِ﴾ ١٠٤
٣. قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَمٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ...﴾ ١٠٦
- ثامناً: وصية نوح ووفاته: ١٠٩
- تاسعاً: قوم عاد في ضوء التاريخ القديم والبحوث والاكتشافات الحديثة ١١٢
- ١ - أرض الأمم السامية: ١١٢
- ٢ - مسكن الأمم السامية الأول: ١١٥
- ٣ - الهجرة من المسكن الأول: ١١٨
- ٤ - الأمم السامية الأولى: ١١٩
- ٥ - عاد: ١٢١
- ٦ - مساكن عاد: ١٢٣
- ٧ - دول عاد: ١٢٣

- ٨- العرب الساميون أو عاد في بابل: ١٢٣
- ٩- العرب الساميون، أو عاد في مصر: ١٢٥
- ١٠- العرب الساميون أو عاد في البلدان الأخرى (آشور، وإيران، وفينيقيا، وقرطاج، وكريت، واليونان): ١٢٨
- ١١- العلامة الندوي رحمه الله وربطه بين التاريخ والبحوث والاكتشافات الحديثة وإشارات القرآن الكريم: ١٣١
- ١٢- نبي الله هود عليه السلام: ١٣٢
- ١٣- عاد والتوراة: ١٣٤
- ١٤- عاد الثانية: ١٣٥

المبحث الثاني

- قصّة هود عليه السلام في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف، وفصلت ١٣٩
- أولاً: قصّة هود في سورة الأعراف ١٣٩
- ١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ .. ١٤١
- ٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾ ١٥٣
- ٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ ١٥٦
- ٤- قوله تعالى: ﴿أَتُفَكِّرُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ١٥٧
- ٥- قوله تعالى: ﴿أَوْعِظْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ...﴾ ١٥٩
- ٦- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ...﴾ ١٦٣
- ٧- قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ...﴾ ١٦٤
- ٨- قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ .. ١٦٦
- ثانياً: قصّة هود في سورة هود ١٦٨
- ١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ ١٦٩
- ٢- قوله تعالى: ﴿يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ... ١٧٢
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُومُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾ ١٧٧
- ٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا...﴾ ١٨٥
- ٥- قال تعالى: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ...﴾ ١٨٧

- ٦- قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا.....﴾ ١٩٠
- ٧- قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ.....﴾ ١٩٤
- ٨- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ.....﴾ ١٩٧
- ٩- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ٢٠١
- ١٠- ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ... ٢٠٤
- ثالثاً: قصّة هود في سورة المؤمنون ٢٠٨
- ١- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ.....﴾ ... ٢٠٩
- ٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ.....﴾ ٢١٣
- ٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ.....﴾ ٢١٩
- رابعاً: قصّة هود في سورة الشعراء ٢٢٣
- ١- قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ.....﴾ ٢٢٤
- ٢- قوله تعالى: ﴿أَتَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ ءَايَةً يَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ.....﴾ ٢٢٧
- ٣- قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ.....﴾ ٢٣٣
- ٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ.....﴾ ٢٣٤
- ٥- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.....﴾ ٢٣٦
- خامساً: قصّة هود في سورة الأحقاف ٢٣٨
- ١- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّدُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ.....﴾ ٢٣٩
- ٢- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ٢٤٥
- ٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ مَتَىٰ تَجْهَلُونَ﴾ ٢٤٦
- ٤- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا.....﴾ ٢٤٩
- ٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَرَّ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ.....﴾ ٢٥١
- ٦- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً.....﴾ ٢٥٣
- ٧- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلِيَدَيْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٢٥٥
- ٨- قوله تعالى: ﴿فَقُولَا نَصْرُهُمُ الَّذِي تَأْخُذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً.....﴾ ٢٥٦
- سادساً: قصّة هود في سورة فصلت ٢٥٧
- ١- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ ٢٥٧

- ٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...﴾ ٢٦٠
- ٣- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً...﴾ ٢٦١
- ٤- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُبَذَّهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ...﴾ ٢٦٤
- ٥- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ...﴾ ٢٦٦
- ٦- قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ٢٦٨
- سابعاً: إشارات سريعة في قصّة هود في القرآن الكريم ٢٦٨
- ١- قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الذاريات: ٢٦٩
- ٢- قصّة هود في سورة القمر: ٢٧٠
- ٣- قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الحاقة: ٢٧٥
- ٤- قصّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الفجر: ٢٨٠
- ثامناً: ذكر عاد مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم ٢٨٧
- ١- قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ...﴾ .. ٢٨٧
- ٢- قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ ٢٨٨
- ٣- قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ...﴾ ٢٨٩
- ٤- قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ ٢٩٠
- ٥- وفي قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ ٢٩١
- ٦- قوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ...﴾ ٢٩٤
- ٧- قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ...﴾ ٢٩٤
- ٨- قوله تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٦﴾...﴾ ٢٩٦
- ٩- قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ ٢٩٧

المبحث الثالث

- أسباب هلاك قوم هود، وصفات هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووفاته ٣٠٣
- أولاً: أسباب هلاك الكافرين من قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٠٣
- ١- الكفر بالله عَزَّجَلَّ: ٣٠٣
- ٢- الشرك بالله: ٣٠٥

- ٣- الظلم: ٣٠٦
- ٤- الإجماع: ٣٠٧
- ٥- تكذيب الرسول الكريم هود عَلَيْهِ السَّلَام: ٣٠٨
- ٦- إيذاء هود عَلَيْهِ السَّلَام بأنواع الإيذاء: ٣١٠
- ٧- استعجال العذاب ودعاؤه على قومه: ٣١١
- ٨- الجدل بالباطل: ٣١١
- ٩- الترف: ٣١٣
- ١٠- البطر: ٣١٥
- ١١- الاستكبار: ٣١٦
- ١٢- الخطايا والذنوب: ٣١٨
- ١٣- التكذيب بالبعث والنشور: ٣١٩
- ١٤- الفساد: ٣٢١
- ١٥- الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة: ٣٢٢
- ١٦- سُنَّة الاستبدال: ٣٢٣
- ١٧- سُنَّة الأجل الجماعي: ٣٢٤
- ١٨- سُنَّة الهلاك: ٣٢٥
- ١٩- سُنَّة الخسران: ٣٢٦
- ٢٠- الغفلة عن أسباب الهلاك: ٣٢٧
- ثانيًا: أهمّ صفات وخصائص هود عَلَيْهِ السَّلَام ووفاته: ٣٢٧
- ١- تعريف الرُّسل وصفاتهم: ٣٢٧
- ٢- الفرق بين النبي والرسول: ٣٣١
- ٣- أهمّ صفات الرسل ومنهم هود عَلَيْهِ السَّلَام: ٣٣١
- ٤- الإيمان بالأنبياء والمرسلين: ٣٣٤
- ٥- عدد الرسل: ٣٣٥
- ٦- التفاضل بين الأنبياء والرسل: ٣٣٦
- ٧- أولو العزم من الرسل: ٣٣٦



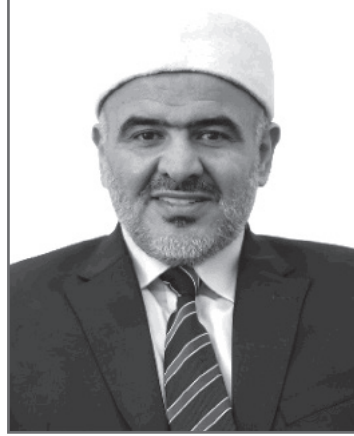
٣٣٨	٨- حكمة إرسال الرسل عامة:
٣٤٠	٩- وظائف الرسل:
٣٤١	١٠- أمور تفرّد بها الأنبياء:
٣٤٥	الخلاصة
٣٦٥	المصادر والمراجع
٣٨١	فهرس الموضوعات



السيرة الذاتية للؤلف



د. علي محمد محمد الصّلابي
مفكر ومؤرخ وفقيه



- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣ م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦ م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩ م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفاً.

كتب صدرت للمؤلف



١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. فتنة مقتل عثمان.
٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.
٣٠. دولة المرابطين.
٣١. دولة الموحدين.
٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٢. الإيمان باليوم الآخر.

٤٣. الإيمان بالقدر.

٤٤. الإيمان بالرسول والرسالات.

٤٥. الإيمان بالملائكة.

٤٦. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

٤٧. السلطان محمد الفاتح.

٤٨. المعجزة الخالدة.

٤٩. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

٥٠. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥١. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٢. الشورى فريضة إسلامية.

٥٣. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٤. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

٥٥. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٦. العدل في التصور الإسلامي.

٥٧. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٨. الأمير عبد القادر الجزائري.

٥٩. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦٠. سنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦١. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٢. أعلام التصوف السني: "ثمانية أجزاء".



٦٣. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٤. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٥. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٦. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحقيقة الكاملة.

٦٧. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦٨. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٩. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

٧٠. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله.

٧١. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر.

٧٢. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.

٧٣. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.

٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٥. مؤمن آل فرعون في القرآن الكريم.

٧٦. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٧. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب - التداعيات).

٧٨. سقوط الدولة الأموية (الأسباب - التداعيات).

٧٩. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.
٨٠. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.
٨١. ذكريات لا تنسى.
٨٢. "الأنبياء الملوك"؛ داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهيكلي سليمان المزعوم.
٨٣. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.
٨٤. لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.
٨٥. نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب زوال حضارة قوم عاد.
٨٦. نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القرآن والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين. ونحن في الاتحاد تبنينا هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فاليوم نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفاً الإسهام في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آملمين من أمتنا -وبخاصة علماؤها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحقة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محكمكم جميعاً: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-73-4



9 786255 637734

asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

